



جزيرة الكنز

تأليف: روبرت لويس ستيفنسون
ترجمة: محمد عبدالحافظ ناصف
مراجعة: يسرى إبراهيم

2813

كان قلبي يدق عندما بدأنا تلك المغامرة الخطيرة، تلك الليلة الباردة؛ حيث كان القمر بدرًا رغم أنه كان يُرى بصعوبة على الحافة الجنوبية بسبب الضباب، وزاد ذلك من سرعتنا كي نصل، فقد كان كل شيئًا واضحًا قبل أن نبدأ رحلتنا مرة أخرى، كان واضحاً كالنهار ورحلتنا كانت معرضة أن يكتشفها كل المارين، لذا هربنا عبر الأحراش بلا صوت وبسرعة لكي لا يرانا أو يسمعنا أحدًا حتى لا يزيد من رعبنا، واصلنا الرحلة ولم نرتاح حتى أغلقنا باب الفندق وراءنا، سحبت رتاج الباب في الحال ووقفنا للحظات نلهث في الظلام، وجدنا جثة الكابتن في المنزل، أحضرت أمي شمعة من البهو، أمسكنا أيدي بعضنا البعض ثم تقدمنا، كان الكابتن ممدًا كما تركناه على ظهره وعيناه مفتوحتين وإحدى ذراعيه كانت مفرودة..

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

جزيرة الكنز

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة عالم الطفل
المشرف على السلسلة: يعقوب الشارونى

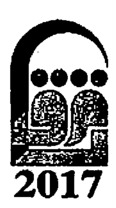
- العدد: 2813
- جزيرة الكنز
- روبرت لويس ستيفنسون
- محمد عبد الحافظ ناصف
- يسرى إبراهيم
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة كتاب:
TREASURE ISLAND
By: Robert Louis Stevenson

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

جـزيرة الكـنز

تـأليـف : روبـرت لويس ستيفنسون
ترجمــة : محمد عبد الحافظ ناصف
مراجعة : يســرى إبـراهـيـم



2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ستيفنسون؛ روبرت لويس، ١٨٥٠-١٨٩٤
جزيرة الكنز؛ تأليف: روبرت لويس ستيفنسون؛ ترجمة: محمد عبد الحافظ ناصف؛ مراجعة: د/ يسرى إبراهيم
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧
٢٧٢ ص؛ ٢٤ سم
١- القصص الإنجليزية
(أ) ناصف، محمد عبد الحافظ (مترجم)
(أ) إبراهيم، يسرى (مراجع)
(جـ) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠١٦/٢٥٦١٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-92-0905-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتــويات

الجزء الأول (القرصان العجوز)

الجزء الثانى (طباخ البحر)

الجزء الثالث (مغامرة الشاطئ)

الجزء الرابع (الحصن)

الجزء الخامس (مغامرتى البحرية)

الجزء السادس (كابتن سيلفر)

إهـــداء

الى

إس إل أو S. L. O

الرجل الأمريكى اللطيف.

إلى أصحاب المذاق الكلاسيكى .

الرواية القادمة خُطط لها .

هى الآن عودة للساعات المرحة السعيدة.

كل الأمنيات الطيبة.

المجددة

من صديقه المحب.

المؤلف

إلى المشترى المتردد

لو أن

حكايات البحار

للبحار تغنى

سنجد

العاصفة والمغامرة

تشتعل وتهدأ

لو أن المراكب الشراعية والإشارات

والقراصنة والذهب المدفون

لو الحكايات الرومانسية القديمة تكررت

بنفس طريقتها القديمة

سنسعد كما سعد القدماء

وسنرى الشاب الحكيم لزماننا

إذ هى تساقطت علينا

لو أن الشباب الشغوف لم يعد يحن

وشهيته للقديم لم تعد تئن

فإن كينج ستون ووبلانتيان الشجاع(*)

أو كوبر الغابة سيتأرجحون

تلك هى الحكايات وربما حكاياتى أيضا

وكل قراصنتى يشاطروننى الحزن

لأن هؤلاء وكل الخلق يكذبون.

(*) مجموعة من الكتاب الذين كتبوا قصصاً عن البحر، وهم:
كينج ستون (١٨١٤-١٨٨٠) أ. أم بلانتيان (١٨٢٥-١٨٩٤)، جيمس كوبر (١٧٨٩-١٨٥١).

الجزء الأول

(القرصان العجوز)

١- البحار العجوز فى فندق الأدميرال بنبو

حين عدنا طلب منى الإقطاعى أسكوير تريلونى والدكتور ليفزى وباقى الرجال الطيبين أن أدون كل شىء عن جزيرة الكنز من البداية للنهاية ولا أترك شيئًا إلا الحديث عن الطرق الموصلة إلى الجزيرة، فبعض الكنز لم يكتشف بعد، حملت قلمى وبدأت الكتابة باهتمام خلال عامى السابع عشر.

رجعت بذاكرتى حين كان والدى مريضًا ومحجوزًا بحانة الفندق والبحار العجوز الغامق اللون المصاب بطعنة سيف يقضى أول أيامه تحت سقفنا، أتذكره وكأنه بالأمس القريب، حين جاء متثاقلاً إلى باب حانتنا وصندوقه الخاص يتبعه فى عربة يد كارو، كان رجلاً طويلا قويا ضخمًا، بندقى اللون، تنسدل ضفيرة شعره المغطاه بالقار على أكتاف معطفه الأزرق المترب، كانت يداه متسختين وأظافره مكسورة و كانت يداه مرعوبتين ومنهكتين، كما توجد ندبة على أحد خديه القذر الشاحب. أتذكره ينظر حول الخليج الصغير، ويصفر لنفسه كما كان يفعل ذلك دائمًا ويبدأ فى غناء أغنية البحر القديمة.

خمسة عشر بحارا فوق التابوت

ياه، هو، هو، وزجاجة روم

ولما يزداد السكر، يظهر صوت هذا العجوز ملحنا وإيقاعيا رغم أنه كان منكسراً.

أطرق على الباب بعصا قصيرة مثل رافعة حديدية يحملها وحين ظهر والدى طلب بفظاظة كأسا من خمر الروم التى أحضرت إليه وبدأ يشربها بتلذذ وتريث كأنه يتذوق طعمها لأول مرة وظل ينظر لأبى وينظر إلى اللافتة وقال بعد فترة:

– هذا خليج ملائم جدا ومكان به إقامة مريحة.. هل لديكم نزلاء كثيرون؟ أخبره أبى أنه لا يأتى إلينا إلا نفر قليل جدا، فكلما زاد العدد من النزلاء زاد الشقاء.

قال العجوز:

– حسنًا.. سيكون هذا مضجعى وستكون زميلى!!

وصاح على الرجل الذى يجر العربة الكارو اليد قائلا:

– أحضر الصندوق هنا بجوارى، سأنزل فى هذا الفندق.

واستمر فى حديثه قائلا:

– أنا رجل بسيط، كل ما أريده شراب الروم ولحم الخنزير المقدد والبيض وأسكن فى مكان عال لرؤية السفن المغادرة.

وأضاف قائلاً:

– من الممكن أن تدعوننى الكابتن.

– لقد فهمت لماذا تريد أن تسكن فى الطابق الأعلى.. هناك!

ورمى الكابتن بثلاث أو أربع قطع ذهبية على العتبة وقال بقسوة وعنف وكأنه قائد المكان:

– تستطيع أن تخبرنى متى يجب أن أدفع ثانية!

وكان حقا سيئا مثل ملابسه القذرة وفظا حين تكلم، فلم يكن أبدا يملك منظرا لبحار قاد يوما صارى سفينة لكنه يبدو كمجرد زميل أو ربان اعتاد أن يطاع وإلا سيهاجم أو يؤذى من يخالفه.

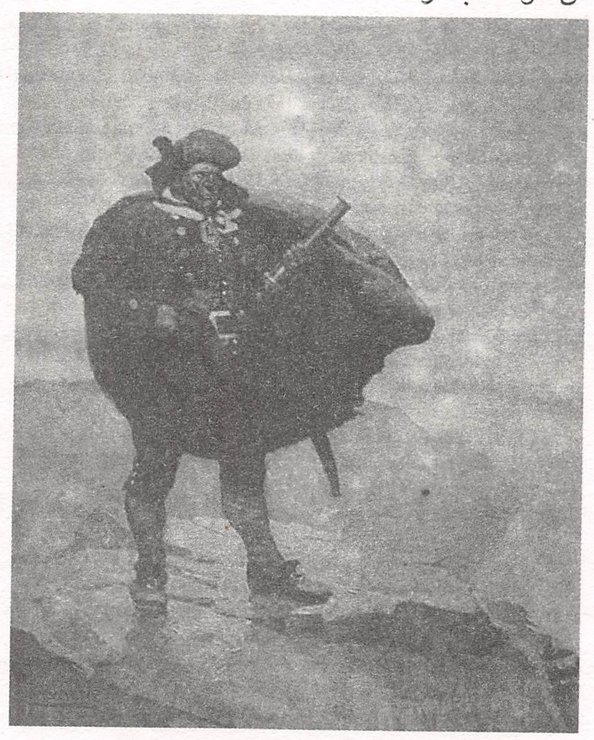
أخبرنا الرجل الذى جاء بالعربة الكارو اليد أنه وضع البريد أمس الأول عند رويل جورج وأنه سأل كل الحانات التى توجد بطول الشاطئ وأنه سمعنا ونحن نتحدث جيدا، لذا يعتقد أنه اختارنا دون غيرنا للإقامة عندنا دون باقى الحانات.. يبدو أن كل من يأتى من ضيوفنا يقول ذلك وما نستطيع أن نعرفه منهم هو ذلك فقط.

كان الرجل العجوز صامتا جدا كعادته، يظل يتجول طوال النهار فى الخليج الصغير ويصعد على المنحدرات بتلسكوبه النحاسى الصغير وحين يأتى المساء يجلس فى أحد أركان الردهة أمام النار يشرب شراب الروم بشراهة.

لم يكن الرجل العجوز يتحدث غالبا مع أحد وإذا حدثه أحد ينظر إليه فجأة بغضب وتنتفخ أوداجه وأنفه كصفارة عاصفة، لذا تعلمنا ونزلاء الفندق أن نتركه مع نفسه لا نحدثه أبدا.

كان حين يعود من جولته اليومية، يسألنا إذا كان أحد البحارة قد سلك الطريق الذى يمر أمام الفندق، اعتقدنا فى البداية أنه يسأل رغبة فى رفقة أحد أصحابه الطيبين، ولكننا اكتشفنا أخيرا أنه كان يرغب فى تجنبهم.

فعندما كان يحضر إلينا أحد البحارة فى فندق الأدميرال بنبو - كما كان يفعل من حين لآخر بعض الذين يستخدمون طريق الساحل للذهاب إلى بريستول(*) - كان يراقبه من وراء الستار قبل أن يدخل البهو ويلاحظ أنه يظل صامتا كالفأر حين يحضر أى أحد من هؤلاء البحارة.



طوال اليوم يسير على شاطئ الخليج ويصعد المنحدرات
ومعه تليسكوبه النحاسى

(*) مدينة كبيرة جنوب غرب إنجلترا مشهورة بالتجارة الملاحية.

لم يكن هناك سر بالنسبة لى بشأن ذلك على الأقل، فقد كنت شريكًا فى تحذيراته على أى حال، وذات يوم انحنى بى جانبًا ووعدنى بقطعة فضة مقدارها أربعة بنسات فى بداية كل شهر إذا فتحت عينى جيدًا لقدوم بحار بقدم واحدة وأبلغته لحظة أن يظهر.

ومع قدوم كل شهر أطالبه بالمبلغ الشهرى، فيعبر عن استيائه الشديد نافخًا أنفه ومبحلقًا فىّ بشكل سيئ، لكنه يعود ويفكر جيدًا قبل أن ينقضى الأسبوع الأول من الشهر ويحضر القطعة الفضية ذات الأربعة بنسات ويكرر أوامره الحاسمة أن أراقب وصول البحار صاحب القدم الواحدة جيدًا.

كيف استطاعت تلك الشخصية البارزة أن تلازمنى فى أحلامى، لن أحتاج أن أحكى لكم، فقد كنت أراها فى الليالى العاصفة عندما تضرب الريح أركان البيت الأربعة وتزأر العواصف عبر الخليج وفوق التلال، كنت أرى تلك الشخصية بألف وجه وآلاف التعبيرات الشيطانية، أراها مقطوعة الساق من عند الركبة، ثم من عند الفخذ، صار الرجل الآن مخلوقًا رهيبًا لا يملك إلا ساقًا واحدة تكون فى منتصف جسده، أراه يقفز ويجرى ويطاردنى فوق سياج الأشجار وفى الحفر، ياله من كابوس سيئ كنت أراه، لقد دفعت أعز ما أملك من راحة البال مقابل البنسات الأربعة شهريًا كى أرى تلك الأشكال من الخيالات الشيطانية الكريهة، وبالرغم من أننى كنت مرعوبًا من فكرة مقابلة الرجل ذى القدم الواحدة فإننى كنت أقل خوفًا من الكابتن نفسه وعن أى شخص آخر كان يعرفه.

وفى الليالى التى يشرب فيها الكابتن شراب الروم والخمر أكثر مما يستطيع أن يتحمل، يجلس ليغنى أغنيته المفضلة عن البحر، يغنى تلك الأغنية القديمة دون أدنى اعتبار لأحد وأحيانًا يدعو أن تدور كؤوس الخمر على الجميع ويجبر رفقاءه المرتعشين أن يستمعوا لقصصه ويرددوا غناءه مثل كورس، فكنت أحيانًا أسمع البيت يتمايل حين تأتى فقرة:

يو، هو، هو، وزجاجة روم

كان يشاركه الغناء كل الجيران خوفًا على حياتهم، فيرفع كل واحد صوته تجنبًا لملاحظاته، فقد كان الأكثر هيمنة وسيطرة على الآخرين أثناء تلك الحالة، فيطرق بيده

ـى المـائدة كى يصمت الباقين ويستشيط غضبًا لسؤال أحدهم أو لعدم توقفه وسماعه لأوامره، فلا يسمح لأحد أن يغادر الحانة حتى يثمل تمامًا ويذهب إلى فراشه.

كانت قصصه من النوعية التى تثير الرعب بين الناس أكثر من غيرها، فقد كانت قصصًا عن الشنق والمشى على الألواح وحكايات البحر وجزر تورتيوجس القاحلة(*) والحملات الشرسة وبعض الأماكن فى عرض البحر الإسبانى ويؤكد أنه عاش حياة بين أسوأ بشر خلقهم الله وسمح لهم أن يكونوا فى البحر، لقد صدمت تلك الحكايات أناسا من القرويين البسطاء وخاصة وصفه لتلك الجرائم.

يعتـقـد أبى أن ذلك سـوف يدمـر الحـانة؛ فـالناس توقـفت عن الحـضـور إلينا لإحساسهم أنهم سوف يُظلمون أو يُضطهدون أو يُرسلون إلى سرائرهم وهم مرتعشون مرتجفون، لكنى أعتقد أن حضوره كان جيدًا بالنسبة لنا، بالرغم من خوف الناس لبـعض الوقت فـإنهم - عند عودتهم - يحبون ذلك، فتلك إثارة ممتعـة لعـالم الريف الهادئ، وكانت هناك مجموعة من الشباب الذين يدعون الإعجاب به ويدعونه البحّار الحقيقى والملاح العجوز ويطلقون أسماءً أخرى عليه ويقول: إنه من نوعية الرجال الذين يجعلون إنجلترا تقلق فى عرض البحر.

كان الكابتن دون غيره يدفع الحساب حين يريد ومتى يشاء كى يجبرنا ليستمر أسبوعًا بعد أسبوع وشهرًا بعد شهر، لدرجة أن الحصول على تلك الأموال صار أمرًا مضنيًا وأبى لا يمتلك الشجاعة كى يطلب المزيد من تلك الأموال المتراكمة، وإذا ذكر ذلك له فإن الكابتن يهب بصوت عالٍ وكأنه زئير الأسد، فينسحب أبى من الحجرة عائدًا يجر أذيال الخيبة، لقد رأيته يعض يديه بعد رفض وصد الكابتن له، أصبحت متأكدًا أن حالة الضيق والرعب التى عاش فيها عجلت بنهايته وموته الحزين.

لم يطرأ على الكابتن أى تغيـر طول الوقت الذى عـاش فـيـه مـعنا، ولا حـتى على ملبسه باستثناء بعض الجوارب التى اشتراها من بائع متجول، لدرجة أنه أعاد إصلاح محابس قبعته مرة أخرى رغم أن ذلك سبب له ضيقًا كبيرًا حين سقطت.

(*) سبع جزر صغيرة على بعد سبعين ميلا من كى وست بفلوريد.

أتذكر جيداً منظر معطفه الذى رقعه بنفسه فى حجرته بطابقه العلوى وصار ذلك هو الشيء الذى لا يفعل غيره، لم يكن يكتب أو يستلم أى رسائل، ولم يكن يتحدث مع أحد إلا جيرانه فقط وكان الشيء الأعظم فعله شراب الروم، كما لم يره أحد يفتح صندوقه أبداً.

وأثناء احتضار أبى وضعفه الشديد مر علينا لأول مرة وكان قد اقترب أبى من نهايته، وجاء إلينا الدكتور ليفزى ذات ظهيرة ليرى أبى المريض ثم أخذ غذاءه القليل من أمى وذهب إلى البهو كى يدخن البايب حتى يأتى حصانه من القرية الصغيرة لأننا لا نمتلك إسطبلاً للخيل فى فندق بنبو القديم، تابعت الكابتن داخل البهو ورأيت التناقض الشديد بين الدكتور ليفزى الأنيق المنمق الأبيض مثل الثلج بعينيه السوداوين اللامعتين وبين الكابتن، كان سلوك الدكتور ليفزى مفرحاً مؤدباً وقد ظهر عليه مع الولد السايس القروى الذى أحضر له الحصان، مقارنة بخيال المائة الثقيل البذئ، قرصان الفندق الجالس يحتسى شراب الروم ويداه على المائدة، وفجأة يقف ويفاجئ الحضور بأغنيته الأبدية:

خمسة عشر بحاراً على التابوت

يو هو هو وزجاجة روم

اشرب وسيفعل الشيطان الباقى

يو هو هو وزجاجة من الروم

اعتقدت فى البداية أن تابوت الرجل الميت هو نفسه الصندوق الكبير الذى يوجد بالطابق الأعلى أمام حجرته الأمامية واختلطت الفكرة فى كوابيسى مع البحار ذى الساق الواحدة.

كنا قد قررنا سابقاً ومن وقت بعيد أن نكف عن إبداء أى ملاحظة على أغنيته تلك وندعى الإعجاب بها، لقد كان هذا الأمر جديداً على دكتور ليفزى ولاحظت أنه لم يعط أى تأثير بالموافقة والإعجاب على الأغنية، فأثار غضب الكابتن، بل واستمر فى حديثه

إلى "تايلور العجوز" الجنايني عن العلاج الجديد للروماتيزم وأثناء ذلك اندمج الكابتن بالتدريج مع موسيقاه الخاصة، وفجأة خبط بيده على المائدة بطريقة يفهم منها أنه يريد الهدوء، فتوقفت كل الأصوات في الحال، لكن الدكتور ليفزي استمر في الحديث كما كان يفعل من قبل، فقد كان كلامه واضحًا ورقيقًا ويدخن غليونه برشاقة بعد كل كلمة أو كلمتين.

نظر الكابتن بغضب وسخط وخبط بيده مرة ثانية واستمر في النظر إليه بسخط شديد وأخيرًا قال بحنقٍ وشر:

– الهدوء.. هناك بين المقاعد!!

قال له الدكتور ليفزي:

– هل تقصدني؟!

قال الكابتن الهمجي بتهديد ووعيد:

– نعم!!

فقال له الدكتور ليفزي:

– سأقول لك شيئًا واحدًا.. إن لم تتوقف عن تناول شراب الروم فسوف يغادر العالَم نذل قذر مثلك!!

كان غضب الكابتن مُرعبًا، قفز على قدميه وسحب مطواة بحار كانت حول وسطه ووازنها في راحة يده ثم فتحها وهدده أن يعلقه على الحائط، لم يتحرك الكابتن قيد أنملة وتحدث إليه كما كان يتحدث سابقًا وبنفس نبرة الصوت وزاد قليلاً حتى سمعه كل من في الحجرة وساد هدوء تام وقال بثبات:

– إذا لم تضع هذه السكينة في جرابها، أعدك بشرفي أنك ستشنق في الدورة القضائية القادمة(*).

(*) الدورة القضائية الإنجليزية assize.

واستمرت معركة النظرات بين الاثنين واضطر الكابتن أن يخضع فى النهاية ويضع سلاحه فى جرابه وسحب مقعده ودمدم وتذمر مثل كلب مهزوم، واستمر الدكتور قائلاً:

– عرفت أن فى الحى شخصًا مثلك يجب أن أضع عينىّ عليه ليلاً ونهارًا، أنا لست طبيبًا فقط، أنا قاض أيضًا وإذا وصلتنى أى شكوى ضدك مثل الفظاظة التى ارتكبتها اليوم سأتخذ كل الإجراءات كى يُقبض عليك وتُرمى فى الشارع.. وهذا يكفى!

وبعد لحظة جاء حصان دكتور ليفزى وامتطاه وذهب بعيداً وأصبح الكابتن أكثر هدوءًا فى تلك الأمسية ولأمسيات كثيرة قادمة.

٢- الكلب الأسود يظهر ويختفى

لم يمض وقت طويل على ذلك الحدث الذى يعتبر واحداً من الأحداث الغامضة التى خلصتنا أخيراً من الكابتن الذى رأيتم أحواله السيئة وسلوكه الشاذ فى فندقنا.

كان الشتاء قارسًا جدا والصقيع قاسيًا وطويلاً وعواصف ثقيلة تهب، كان واضحًا من البداية أن أبى لن يرى الربيع، فقد كان يغمى عليه يوميا وتحملت وأمى كل أعباء الحانة وظللنا منهمكين فى العمل دون أن نعطى أى اهتمام لضيفنا التعيس.

ياله من صباح بارد جدا، كان أحد صباحات شهر يناير، حيث الخليج مغطى تماماً بالصقيع واللون الرمادى يغطيه وموجات الماء تلعق الصخور برقة، والشمس ما زالت بعيدة تلمس فقط قمم الجبال وتشرق من بعيد نحو البحر، استيقظ الكابتن على غير العادة ونزل إلى الشاطئ، كان خنجره يتمرجح تحت جيبته الواسعة تحت معطفه الأزرق القديم والتلسكوب النحاسى تحت إبطه وقبعته المائلة على رأسه، أذكر نفسه المعلق كالدخان فى استفاقته كلما خطى خطوة، آخر صوت سمعته له لما حرك الصخرة الكبيرة كان صوت شخير الغضب، يبدو أن عقله ما زال يفكر فى الدكتور ليفزى.

حسنًا.. كانت أمى فى الطابق الأعلى حينما كنت أعد مائدة الإفطار تحسبًا لعودة الكابتن عندما فتح باب البهو رجل لم أره من قبل، كان شاحبًا ومخلوقًا شمعيا له إصبعان فى يده اليسرى ويرتدى خنجراً، لم يكن يبدو كمقاتل، كنت دائمًا أترقب البحار صاحب الساق الواحدة، أتذكر أن هذا الرجل حيرنى، لم يكن مثل البحارة وإن كان به مذاق البحر هو أيضًا، سألته إن كان يريد أى خدمة.. فقال: إنه يريد شراب الروم، وبينما أنا ذاهب لإحضاره، جلس على المائدة وطلب منى أن أقترب منه، توقفت مكانى وأنا أمسك منديل المائدة، قال:

- تعال هنا يا بنى.. اقترب أكثر.

أخذت خطوة أقرب، سألنى بنظرة خبيثة:

- هل هذه مائدة زميلى بيل؟

أخبرته أننى لا أعرف زميلاً له يسمى بيل، وأن تلك المائدة لشخص ينزل فى فندقنا نسميه الكابتن، قال:

- حسنًا.. صديقى بل يُدعى أحيانًا الكابتن وتوجد ندبة على أحد خديه وله أسلوب قوى وشرس ومدمن شراب الروم، هذا هو زميلى بيل.

اتفقنا دون جدال أن الكابتن له ندبة على أحد خديه وكانت فعلاً على خده الأيمن.

- حسنًا.. هل صديقى بيل هنا فى هذا البيت؟!

- نعم.. هو خرج يتنزه.

- لأى طريق يا بنى، أى الطرق سلك؟!

أشرت له إلى الصخرة وأخبرته أنه على وشك العودة حالاً وأجبته على أسئلة أخرى وقال:

- سيكون ذلك الشراب جيداً لصديقى بيل.

لم تكن تعبيرات وجهه سعيدة حين قال تلك الكلمات، ولدى أسبابى للتفكير أن الغريب كان مخطئًا فى افتراض ما قاله، لكن الأمر لم يكن يعنينى فى شىء، فكرت وكان من الصعب أن أعرف ماذا سيفعل.

ظل نظر الرجل معلقًا بباب الحانة الداخلى، يتلفت ناحية الناصية مثل قط ينتظر فأرًا، سحبت نفسى إلى خارج الحانة لكنه نادى علىّ أن أعود فى الحال، ولما لم أستجب بسرعة غمر وجهه الشمعى تغير رهيب، أمرنى بنظرة عميقة متحدية فجعلنى أقفز عائداً، وبمجرد أن عدت عاد ثانية لسابق عهده معى وعاد يتملقنى ثانية وينظر إلىّ ساخراً ويربت على كتفى وأخبرنى أننى ولد جيد وأنه يمتلك رؤية طيبة تجاهى وقال:

- لدى ولد مثلك، يشبهك تمامًا وفخور دائمًا بى، لكن الشىء الجيد للأولاد هو النظام.. النظام يا بنى، والآن إذا أبحرت مع بيل لم تكن لتقف هناك لنتحدث معًا.

أعتقد أن تلك ليست طريقة بيل ولا طريقة مثل أولئك الذين يبحرون معه، ها هو زميلى بيل وتلسكوبه تحت إبطه، يمارس هوايته القديمة، هيا نذهب معًا إلى داخل البهو لنقف خلف الباب كى نفاجئه وندهشه.

وأثناء الكلام تراجع الغريب للخلف وأنا معه للبهو وجعلنى خلفه فى الركن حتى صرنا مختفيين وراء الباب المفتوح، لم أكن مرتاحًا وكنت منزعجًا جدا، وأضاف إلى مخاوفى إحساسه نفسه بأنه خائف وخاصة حين أمسك مقبض السيف وفك النصل من غمده، كما أنه كان يبلع ريقه أثناء فترة انتظارنا كما لو أن حجرًا يقف فى حلقه.

أخيرًا دخل الكابتن وأغلق الباب وراءه بعنف دون أن ينظر يمينًا أو يسارًا، سار مباشرة إلى حيث كان الفطور فى انتظاره، قال الغريب بصوت جرىء وقوى:

- بيل!!

استدار الكابتن على عقبيه وواجهنا وهرب الدم كله من وجهه، حتى أنفه صارت زرقاء، ظهر عليه وكأنه شاهد شبحًا أو شخصًا شريرًا أو شيئًا سيئًا، رغم كل شىء وأى شىء شعرت بالحزن أن أرى الكابتن هكذا، صار فى لحظة عجوزًا ومريضًا، قال الغريب:

- تعال يا بيل.. ألا تعرفنى؟! ألا تعرف زميل السفينة القديم؟!

شهق الكابتن شهقة وقال:

- الكلب الأسود؟!

استدار الغريب له بعد أن استلب الكثير من اطمئنان الكابتن، وقال:

- نعم.. الكلب الأسود بنفسه.. جاء كى يرى صديقه القديم فى السفينة فى فندق الأدميرال بنبو، لقد عشنا أوقاتًا معًا نحن الاثنين، منذ أن فقدت إصبعى الاثنين.

ورفع الغريب يده المبتورة الأصابع لأعلى.. قال الكابتن:

– وماذا تريد الآن بعد أن وجدتنى هنا؟!

قال الكلب الأسود:

– ها أنت دائمًا يا بيل تضع الأمور فى مكانها الصحيح، سآخذ كأسًا من الروم من يد هذا الغلام العزيز لأنى أريد أن نجلس معًا ونتحدث عن زملاء السفينة القدامى.

حين عدت بشراب الروم، كانا جالسين على الجانب الآخر من منضدة فطور الكابتن، كان الكلب الأسود يجلس بجوار الباب ويشكل جانبى لكى يضع عينًا على زميل السفينة القديم وعينًا أخرى على مكان هروبه، وطلب منى أن أذهب وأترك الباب مفتوحًا وقال لى:

– أرجو ألا تكون أذنك معنا ولا تتابعنا!!

غادرتهما ورجعت إلى البار، و لوقت طويل حاولت أن أستمع إليهما لكنى لم أسمع سوى ثرثرة بصوت منخفض وأخيرًا بدأت أصواتهما تعلو وتعلو حتى استطعت أن ألتقط كلمة أو كلمتين وخاصة تهديدات الكابتن الغامضة، ثار الغريب قائلاً:

– لا، لا، لا.. هذه نهاية كل شىء.

وأضاف:

– لو أن الأمر صار مائعًا، لن نصل لشىء أبدًا.

وفجأة سمعنا انفجارًا رهيبًا من التهديدات والضوضاء الصاخبة وطار كرسى ومنضدة فى الهواء وسقطا ككتلة وتبعه تصادم حديدى ثم صرخة ألم مفزعة، ثم رأيت الكلب الأسود يسرع بالهرب والكابتن يلاحقه بحرارة وكلاهما يشهر سيفه والدم يتدفق من الكتف الأيسر للكابتن، ثم صوب الكابتن آخر ضربة رهيبة للرجل الهارب وقد جرحته بالتأكيد فى العمود الفقرى، ولم يوقف ذلك العراك وجودهم تحت لافتة فندقنا الكبير الأدميرال بنبو، فربما ترى قطعًا بتلك اللافتة أخذ الحرف V على الجانب المنخفض للإطار بعد إصابتها.

كانت تلك العاصفة آخر شىء فى المعركة، هرب الكلب الأسود خارجًا إلى الطريق بالرغم من جرحه وبخفةٍ مذهلة، ثم اختفى عند حافة الجبل فى نصف دقيقة تقريبًا، وقف الكابتن يحملق فى اللافتة مثل رجل مذهول، ثم مرر يده أمام عينيه عدة مرات وعاد إلى المنزل مرة ثانية قال بلهفة:

- شراب الروم!!

وبينما كان يتحدث أصيب بدوار قليلاً واستند بإحدى يديه على الحائط، فصرخت:

- هل جرحت يا سيدى؟



كانت ضربة أخيرة رهيبة أدمت الكابتن حتى العمود الفقرى
ولم تعترضها حتى لافتتنا لفندق الأدميرال بنبو.

وكرر الكابتن طلبه:

- الروم!! يجب أن أبعد عن هنا، الروم، أريد الروم.

جريت كى أحضر له شراب الروم، لكنى لم أكن مستقرا على ما حدث فى الخارج، كسرت كأسًا وأخطأت السدادة. وبينما أسير فى طريقى، سمعت ارتطام سقوط مدو فى البهو، جريت بسرعة للداخل وحملت الكابتن الممدد على الأرض، فى نفس الوقت أسرعت أمى المنزعجة من الصراخ والعراك، نزلت بسرعة كى تساعدنى، رفعنا رأسه بيننا، كان يتنفس بصوتٍ عالٍ وبصعوبة وعيناه كانتا مغلقتين ولون وجهه كان مرعبًا، صرخت أمى:

- يا عزيزى!! يا خراب هذا البيت، فأبوك المسكين مريض جدا.

وأثناء ذلك لم يعد لدينا تصور ماذا نفعل لنساعد الكابتن، ولا أى فكر سوى أنه أصيب إصابة موت فى الشجار مع الغريب، أحضرت له شراب الروم، حاولت أن أضعه فى فمه لكن أسنانه كانت مغلقة بقوة وفكيه كانا مثل الحديد، كان الأمر مريحًا عندما فتح الباب فى الوقت المناسب ودخل علينا الدكتور ليفزى فى زيارته لأبى، صرخنا:

- دكتور ليفزى.. ماذا نفعل؟

قال الدكتور ليفزى:

- جرح؟! نهاية طعنة عبثية!!

وأضاف:

- لا أحد مجروح أكثر منك ومنى، الرجل أصيب بسكتة دماغية، لقد حذرته والآن يا مسز هوكنز، اصعدى إلى زوجك ولا تخبريه بما حدث وأنا بدورى سأبذل قصارى جهدى كى أنقذ حياة هذا الزميل، هل تحضر لى يا جيم الطست؟!

حين عدت بالطست وجدت الدكتور قد شق كُم الكابتن وكشف أوردة ذراعه وضرب عليها عدة ضربات وقال:

- سيكون حظ بيلى بونز فى هذا الساعد، لعل الريح تكون طيبة.

كان يوجد بالقرب من كتف بيلى بونز وشم لمشنقة ورجل معلق بها، قال الدكتور ليفزى وهو يلمس الصورة بإصبعه أسيان:

- حدث ما كنت أتوقع.. نبوءة!!

- والآن يا سيد بيلى بونز لو كان ذلك اسمك، سنلقى بنظرة على لون الدم، هل تخاف يا جيم من لون الدم؟!

قلت:

- لا يا سيدى.

قال الدكتور ليفزى:

- حسنًا أنت أحضرت الطست بسرعة.

أخذ الدكتور ليفزى المشرط وفتح أحد الأوردة بعد أن أخذ احتياطاته، وقبل أن يفتح عين الكابتن الذى نظر إليه بضبابية، تعـــرف بيلى فى البداية على الدكتـــور بتـجـهم واضح، ثم ألقى نظرة علىّ ونظر بارتيـاح قليـــلاً وفجـأة تغيـر دمه وحـاول أن ينهض وصرخ:

- أين الكلب الأسود؟!

قال الدكتور ليفزى:

- لا يوجد هنا كلب أسود باستثناء ما يوجد على ظهرك من طعنة، أنت ما زلت تشرب الروم وأصبت بسكتة دماغية كما قلت لك من قبل وحذرتك، وسأحاول أن أبذل ما فى وسعى حتى أنقذك وأسحبك من القبر الذى ستدخله الآن يا سيد بونز.

قاطعه بيلى قائلاً:

- اسمى ليس بونز.

عاد الدكتور للحديث قائلاً:

- سأعتنى بك قدر استطاعتى وأعتقد أن ذلك الاسم لأحد القراصنة وأنا أدعوك به كى أختصر لا أكثر ولا أقل، وما يجب أن أقوله لك أن كأسًا واحدة من الروم لن تقتلك ولكنك لو أخذت واحدة ستأخذ الثانية وأراهن إن لم تتوقف ولو لفترة قصيرة

ستموت، ستموت.. هل تفهم؟ ستلقى حتفك كما يقول الإنجيل، تعال معى الآن، أعطنى يدك، ابذل قصارى جهدك وسوف أساعدك حتى ترتاح فى سريرك.

بصعوبة بالغة استطعنا أن نصعد به على السلالم وأن نضعه فى سريره حيث ارتاحت رأسه على المخدة وكأنه فقد وعيه تماماً، قال الدكتور ليفزى له بحسم:

– الآن سأخلص ضميرى وأقول لك: إن مجرد اسم الروم بالنسبة لك يعنى الموت المحقق.

ثم أخذنى الدكتور ليفزى من يدى كى يكشف على أبى وأضاف بعد أن أغلق الحجرة:

– هراء، اضطررت لسحب دم كاف كى أحافظ عليه هادئًا لفترة، يجب أن ينام لمدة أسبوع فى مكانه وهذا أفضل شيء له ولك، لكن إغماءة أخرى سوف تصيبه حتماً!

٣- البقعة السوداء

توقفت أمام باب الكابتن عند الظهر تقريبًا، أحمل بعض المشروبات الباردة وبعض الأدوية، كان يرقد مرتاحًا كما تركناه، فقط يرتفع صوته قليلاً ويبدو ضعيفًا ومنهكًا، قال لى حين رآنى:

- جيم، أنت الوحيد هنا الذى يستحق أى شىء، أنت تعرف أننى دائمًا طيب معك، سأعطيك قطعة نقود فضية تقدر بأربعة بنسات كل شهر لأجلك، الآن كما ترى يا صاحبى، إننى محبط جدا والجميع قد هجرنى.. جيم هو الصديق الوحيد، أرجو منك أن تحضر لى قنينة واحدة فقط من شراب الروم، والآن هل تفعل يا صديقى؟!

بدأت أرفع صوتى:

- والدكتور؟!

انفجر الكابتن فى لعن الدكاترة ولكن بصوت منخفض، وقال من كل قلبه:

- الدكاترة لا يقدمون شيئًا نافعًا، وهذا الدكتور هناك وليس هنا الآن، ماذا يعرف هذا الدكتور عن البحارة؟ فقد كنت فى أماكن ساخنة جدا وحولى مجموعة من الزملاء الأشرار مثل " بلوجاك " فى الأرض المقدسة التى كالبحر والملآنة بالزلازل، ماذا يعرف الدكتور ليفزى عن أرض مثل تلك، كنت أعيش فيها على شراب مثل الروم كما أخبرتك، إن الشراب بالنسبة لى هو كل شىء، هو اللحم والشراب والإنسان والزوجة، فإذا لم أشرب الآن الروم سأكون مثل رجل ضخم الجثة فقير يبحث عن شاطئ وملاذ وسيكون دمى فى عنقك يا جيم وفى رقبة هذا الدكتور الفظ.

واستمر لحظات فى اللعن والسب ثم قال لى:

- انظر يا جيم كيف ترتعش أصابعى.

واستمر فى نغمة التوسل قائلاً:

– لن أستطيع أن أبقى إلا إذا أخذت قطرة من شراب الروم فى هذا اليوم المبارك، هذا الدكتور أحمق كما قلت لك، فإذا لم آخذ قليلاً منه يا جيم سوف أصاب بالرعب، سأرى بعض الأشياء المرعبة، سأرى القرصان العجوز الشرير فلنت فى الركن هناك، خلفك، واضحًا كالبصمة، أراه الآن وإذا رأيت تلك الأشياء المرعبة سأتحول إلى شخص فظ خشنٍ، سأكون مثل قابيل بن آدم، طبيبك نفسه قال: إن كأسًا واحدًا لن تؤذينى، سأعطيك قطعة ذهبية مقابل قنينة من شراب الروم يا جيم.

لقد صار الكابتن أكثر إثارة مما جعلنى حذرًا وخائفًا على أبى الذى كان يعانى هذا اليوم كثيرًا وفى حاجة للهدوء، وقد أُؤكد علىّ من جانب الدكتور وكلماته التى ترن فى أذنى ألا أتأثر أبدًا أو تُجرح مشاعرى أو تتأثر لأى عرض للرشوة من جانبه.

قلت له:

– لا أريد نقودك وما نريده ديونك لوالدى، سأحضر لك كأسًا واحدًا لا شىء أكثر.

وعندما أحضرت الكأس له، قبض عليه بشراهة وشربها مرة واحدة، قال الكابتن سعيدًا:

– إنه بعض الشراب الجيد، لكنه يكفى، والآن يا بنى ما المدة التى قال الدكتور: إننى سأبقى فيها بمضجعى هنا؟!

قلت له:

– أسبوع على الأقل.

قال:

– سيأتى الرعد!! أسبوع!! لا أستطيع أن أفعل ذلك، سيضعون البقعة السوداء حولى، حينئذ سيكون الأغبياء على وشك أن يعرفوا أين وجهتى فى تلك اللحظة، فالأغبياء لن يحتفظوا بما يعرفون ويريدون أن يسمرونى على الحائط، هل هذا هو سلوك البحارة الآن؟! أريد أن أعرف، سأنقذ روحى ولن أضيع نقودى هباءً أو أفقدها، سوف أخدعهم ولن أخاف منهم، سأواجه أى عقبة خطيرة يا بنى، سألاعبهم مرة أخرى.

وبينما يتحدث، نهض من فراشه بصعوبة بالغة مستنداً على كتفى بمسكة شديدة جعلتنى أصرخ، وكان يحرك قدميه بثقل شديد وكأنه ميت، كانت كلماته تخرج مملوءة بالحزن والضعف كلما تحدث، توقف قليلاً حتى وصل إلى مكان جلوسه على الحافة ودمدم قائلاً:

– ما هذا الذى فعله بى الدكتور، لقد جعل أذنى تصفر وتغنى، دعنى أعود ثانية.

وقبل أن أستطيع أن أساعده سقط مرة أخرى لمكانه الأول حيث رقد صامتًا للحظة، قال الكابتن بيل بصعوبة:

– جيم.. هل رأيت البحار اليوم؟!

سألته:

– هل تقصد الكلب الأسود؟!

قال:

– نعم، الكلب الأسود، إنه شخص سيئ لكن يوجد من هو أسوأ منه وأرسله لنا، الآن لن أستطيع أن أهرب بأى طريقة، فقد حددوا لى البقعة السوداء، هل تفهمنى؟! ستجد صندوقى الذى يبحثون عنه، ستركب الحصان، أليس كذلك؟! حينئذ ستذهب إلى

– نعم.

قلت له:

– سأفعل.

أضاف قائلاً بعد أن ارتاح قليلاً:

– إلى الطبيب الفظ وأخبره أن الأمر صعب أيها القاضى وأن يضع الصندوق على سطح فندق الأدميرال بنبو، فكل طاقم فلنت العجوز سيحضرون، كل رجل، كل غلام، كل من تبقى من رجاله، فقد كنت أول زميل له، كنت مساعده الأول وكنت الوحيد الذى يعرف المكان، وأعطانى هذا السر عند السفانا، حين كان يحتضر كما أحتضر الآن، لكن لا تبلغ حتى تتأكد أنهم وضعوا العلامة السوداء حولى أو حتى ترى الكلب الأسود مرة ثانية أو البحار ذا القدم الواحدة، إنه أخطرهم جميعاً يا جيم.

قلت له:

- لكن ما البقعة السوداء يا كابتن؟!

قال:

- هى إشارة يا زميلى، سوف أخبرك حين تصلنى، لكن يجب أن تفتح عينيك جيداً يا جيم وسأعطيك نصف الكنز بشرفى.

وسرح الكابتن بخياله قليلاً وبدأ صوته يضعف بعد أن أعطيته الدواء الذى أخذه كطفل بعد أن قدم ملاحظاته قائلاً:

- لو أراد بحار مخدرات اعرف أنه أنا.

ثم راح فى نوم عميق، فتركته، فما يجب أن أفعله قد تم بشكل جيد. لا أدرى كيف؟ من المحتمل أن أخبر الدكتور ليفزى بكل تفاصيل القصة، لأنى كنت فى خوف مميت أن يندم الكابتن على اعترافاته ويضع نهاية لذلك، لكنى نسيت ذلك وتلاشت مخاوفى قليلاً وانشغلت فى موت أبى فجأة هذا المساء فوضعت كل الأمور على الهامش، لقد أصابتنا تلك المحنة وبدأت زيارات الجيران وترتيبات الجنازة وشغلتنى كل أعمال الفندق، فلم أعد أمتلك وقتًا وصرت مشغولاً بدرجة كبيرة حتى إنى نادرًا ما كنت أفكر فى أمر الكابتن أكثر من أننى أحيانًا أخاف منه.

نزل فى الصباح التالى من حجرته وتناول وجباته كالمعتاد وبالرغم من أنه أكل قليلاً فإنه شرب كثيرًا من الروم أكثر من المعتاد فكنت خائفًا، استطاع أن يساعد نفسه ويخرج من البار عابسًا، كان يبدو عليه الغضب فلم يجرؤ أحد أن يوقفه، وكانت صدمة فى بيت يعلن الحداد أن يشرب كثيرًا جدا بعد يوم من الجنازة، وسمعته يغنى أغنيته القديمة القبيحة عن البحر وكان ضعفه يجعلنا نخشى عليه جميعًا من الموت.

كان الدكتور ليفزى قد انشغل بحالة أخرى على بعد عدة أمتار ولم يكن قريبًا من البيت بعد موت أبى، قلت للجميع: إن الكابتن صار ضعيفًا ويزداد ضعفًا أكثر من العودة للصحة مرة أخرى، كان يستلقى أحيانًا فى الدور العلوى وأحيانًا فى الدور السفلى ويخرج أحيانًا من البهو إلى البار ويعود مرة ثانية ويخرج أحيانًا كى يشم

بعض الهواء على البحر ويواصل الخروج من تلك الجدران كلما أراد أن يشم الهواء ويدعم نفسه، فقد كان مثل رجل على حافة جبل ولم يكن يبلغنا بذلك.

كان اعتقادى أنه مازال بخير طالما أنه ينسى ثقته الكبيرة بنفسه، لكن مزاجه كان متغيراً ويؤثر فى ضعف جسده وصار أكثر عنفًا عن ذى قبل، صار له أسلوب تمهيدى الآن خاصة حين يشرب الخمر ويسحب سيفه ويضعه أمامه على المائدة خاليًا من غمده، وكان يعارض الناس قليلاً ويبدو متحفظًا فى أفكاره الخاصة، وكثيراً ما كان غافلاً، فكنا على سبيل المثال ندهش من غنائه فى أى وقت لأغنية وطنية تعلمها فى شبابه قبل أن يبدأ حياته فى البحر.

ومرت الأشياء عادية حتى جاء يوم بعد الجنازة وتقريباً الساعة الثالثة مساء يوم ضبابى عاصف قاس، كنت أقف على الباب فى تلك اللحظة ويدور فى ذهنى الكثير من الأفكار الحزينة بشأن أبى، رأيت شخصاً يتسلل بهدوء عبر الطريق، كان كفيف البصر يطرق بعصاه قبل أن يخطو، يرتدى عُصابة خضراء على عينيه وأنفه ومحنيا كما لو كان رجلاً عجوزاً وضعيفاً ويرتدى عباءة بحار قديمة بقلنسوة تشوه شكله، لم أر فى حياتى شكلاً أكثر رعبًا منه، توقف بعيداً عن الفندق إلى حد ما، ورفع صوته بأغنية غريبة مناجيًا الهواء الذى أمامه قائلاً:

- هل من صديق يقول لرجل أعمى فقد أعز ما لديه فى الدفاع عن وطننا الحبيب إنجلترا - وأعز الله ملكنا جورج - أين هو الآن وفى أى جزء من الوطن؟!

قلت له:

- أنت الآن فى فندق الأدميرال بنبو، وفى خليج بلاك هيل يا سيدى.

رد الرجل الأعمى قائلاً:

- أسمع صوتًا، صوت شاب، هل تعطينى يدك، صديقى الشاب الصغير وتصحبنى إلى الداخل.

مددت له يدى، لكن هذا المخلوق الرقيق المرعب قبض على يدى فى لحظة مثل ملزمة الحداد الحديدية، حاولت قدر استطاعتى أن أسحب يدى منه لكن الرجل الأعمى سحبنى حتى التصقت به بحركة واحدة من يده، قال:

- والآن يا ولد، خذنى إلى الكابتن.

– قلت له: أنا لا أجرؤ يا سيدى.

قال ساخرًا:

– سيحدث، خذنى إليه مباشرة وإلا سأكسر ذراعك.

وشدنى بعنف من يدى شدة جعلتنى أصرخ عاليًا، فقلت له:

– أقصد أن الأمر ليس فى مصلحتك، فلن تستطيع أن تتعامل مع الكابتن، لأنه يجلس وسيفه دائمًا بجواره.

قاطعنى قائلاً:

– تعال والآن سر أمامى.

لم أسمع صوتًا أكثر قسوة وبرودة وقبحًا من صوت هذا الرجل الأعمى، فقد روعنى أكثر من أى ألم آخر، لذا بدأت أطيعه فى الحال وأدخل معه من الباب إلى حيث البهو حيث يجلس صديقنا البحار العجوز فاقدًا للوعى بفعل شراب الروم، التصق بى أكثر وقبض على يدى بقبضة حديدية واتكأ علىّ بكل ثقله لدرجة أننى لم أستطع أن أتحمله، وقال لى:

– خذنى مباشرة له، وحين أقترب منه قل لى: هذا صديقك بيل، وإن لم تفعل ذلك سوف أفعل هذا.

وضغط علىّ حتى شعرت أننى سوف يغمى علىّ، وبين هذا وذاك كنت مرعوبًا من هذا الشحاذ الأعمى ونسيت رعبى تمامًا من الكابتن، وحين فتحت باب البهو قلت الكلمات التى طلب منى أن أقولها بصوت مرتعش.

رفع الكابتن المريض عينيه وبنظرة واحدة للرجل الأعمى ضاع تأثير شراب الروم من رأسه وعاد ثانية لاتزانه وامتلأ وجهه بالرعب كالمصاب بمرض مميت، حاول أن يتحرك لكنه لم يكن يمتلك القدرة الكافية فى جسده، قال الشحاذ الأعمى:

– والآن، ابق كما أنت يا بيل، فإذا لم أكن أرى فإننى أسمع حركة إشارة الأصابع، ارفع يدك اليسرى يا ولد وخذ يده اليسرى من معصمه وأحضرها بالقرب من يدى اليمنى.

أطعناه معًا ورأيته يمرر شيئًا من تجويف يده التى تحمل عصاه إلى راحة يد الكابتن التى قبضت على الشىء بسرعة، قال الأعمى:

- والآن تم ما أريد.

وفجأة غادرنا وبدقة متناهية ورشاقة وثب خارج البهو إلى حيث الطريق، ظللت واقفًا أراقبه بلا حركة وأسمع صوت عصاه تدق الطريق من بعيد، مر وقت قبل أن أستطيع أنا والكابتن أن نجمع شتات أحاسيسنا وفى نفس اللحظة فتح راحة يده التى ما زلت أحملها وسحب يده ونظر بحدة فيها وصرخ قائلاً:

- الساعة العاشرة!! لدينا ست ساعات نستطيع أن نفعل شيئًا.

ثم قفز على قدميه، فأدى ذلك إلى إصابته بالدوار فوضع يده على زوره ووقف يتمايل للحظة وبصوت خاص سقط من طوله على الأرض.

جريت إليه فى الحال واستدعيت أمى، لكن ضاع جهد الجميع عبثًا، فقد سقط الكابتن صريعًا بسبب سكتة دماغية(*)، كان ذلك شيئًا غريبًا على أن يفهم، بالرغم أننى لم أكن أحب الرجل إلا أننى بدأت أشفق عليه والغريب أنه مات بمجرد أن حدث ذلك، انفجرت دموعى فقد كان ذلك الموت الثانى الذى شاهدته ومازال حزنى على أبى متربعًا فى قلبى.

(*) فقد الوعى فجأة حين ينقص الأكسجين فى المخ بسبب تجلط الأوعية الدموية.

٤- صندوق البحر

لم أضيع وقتًا طويلاً فى إبلاغ أمى عن كل ما عرفته بالطبع، فاحتمال أننى قد أخبرتها عن الموقف منذ فترة طويلة، ورأينا أنفسنا فى الحال فى ورطـــة وفى وضع خطر جدا.

رأينا أن بعضًا من نقود الرجل - لو عنده - حق لنا، ولكن الباقى سوف يأتى أصدقاؤه كى يأخذوه، فهم بالطبع من عينة الاثنين اللذين شاهدتهما، فالكلب الأسود والشحاذ الأعمى لن يتخليـــا بالطبع عن حقهما فى كنز الرجـــل من أجـــل دفـــع ديون الكابتن.

كانت أوامر الكابتن بيل أن نركب فى الحال ونذهب للدكتور ليفزى، فكيف أترك أمى وحيدة وغير محمية، لم أكن أقدر أن أفعل ذلك، سيكون ذلك بالطبع مستحيلاً لكل واحد منا أن يبقى وقتًا طويلاً بمفرده فى المنزل، فسقوط الفحم فى المطبخ شىء مزعج وحركات الساعة المتتالية ملأتنا بالحذر، قرب هذا الدق من آذاننا جعله ملتصقًا متزامنًا ومرتبطًا بوقع أقدام القادمين.

وما بين جسد الكابتن الميت على أرضية البهو والأفكار السيئة لعودة الشحاذ الأعمى التى تحوم بالقرب من يده والمستعدة للعودة مرة أخرى، مرت اللحظات ثقيلة، اختبأت فى جلدى من الرعب، شىء ما سوف يحل بسرعة، شىء حدث أخيرًا لنا كى نذهب معًا لنبحث عن المساعدة فى القــرية المجاورة، لم نكد نفكر حتى تحركنا بسرعة، كنا بلا أفكار محددة، فذهبنــا فى الحال فى هذا المســاء شبه الضبابى المكسو بالصقيع.

لم تكن تبعد القرية عنا أكثر من مئات الأمتار بالرغم من أنها لم تكن على مرمى البصر وكانت على الجانب الآخر فى الخليج، ما شجعنى بشكل كبير أنها كانت فى

الاتجاه المعتاد للاتجاه الذى ظهر فيه الرجل الأعمى الذى ربما قد يعود منه، لم نأخذ دقائق قليلة حتى كنا على الطريق رغم أننا كنا أحيانًا نتوقف لكى نساعد بعضنا البعض ونحاول أن نستمع لأى شيء، لم يكن هناك أى صوت غير عادى، لا شيء سوى خرير الماء ونقيق ساكنى الغابة.

حين وصلت القرية لم أجد غير ضوء شمعة، لم أنس لماذا كنت سعيداً حين رأيت الشعاع الأصفر الواهن للشمس على الشبابيك والأبواب، لكن الأمل الأكبر يكمن فى مساعدة أهل هذا المكان إذا وافقوا على ذلك، وإن لم يساعدونا فسوف يشعر الرجال بالخزى والعار إذا لم يأتوا معنا، لكن للأسف لم نجد روحًا واحدة وافقت أن تعود معنا إلى فندق الأدميرال بنبو، وكلما أخبرناهم عن الكثير من مشاكلنا ازدادوا التصاقًا أكثر بمساكنهم سواء كانوا رجالاً أو نساء أو أطفالاً ولم لا؟! ومجرد ذكر اسم الكابتن فلنت كفيل أن يحمل لهم من الرعب الكثير، كنت أعتقد أنه غريب عنهم لكنه كان معروفًا لهم جيداً، بعض الرجال الذين كانوا ذاهبين إلى حقولهم بجوار فندق الأدميرال بنبو تذكروا أنهم شاهدوا الكثير من الأغراب على الطريق واعتقدوا أنهم مهربون، وأعلن أحدهم أنه قد شاهد قاربًا مزوداً بأربعة أشرعة كنا نسميه كيتى هول.

لذا كان أى زميل للكابتن فلنت كفيلاً بأن يسبب الرعب لهم لدرجة الموت، وبعد جذب وشد للأمر معهم، لم نجد أحداً لديه الرغبة كى يركب حصانه إلى الدكتور ليفزى الذى يوجد فى الاتجاه الآخر، لم يرد أحد أن يساعدنا لكى ندافع عن الفندق وقالوا لنا: إن الجبن شيء معد لكن الجدل على الجانب الآخر يزيد ويصبح أكثر شجاعة، وحين قالوا ذلك جعلتهم أمى حديثها وأعلنت أنها لن تفقد أبداً مال ابنها اليتيم وقالت:

- إذا لم يجرؤ أحد على مساعدتنا والذهاب معنا أنا وجيم، سنذهب فى الليل من نفس الطريق الذى جئنا منه، وشكرًا قليلاً للرجال الأقوياء الذين يملكون قلوب الدجاج، وسوف نفتح هذا الصندوق حتى لو قتلنا فى سبيل ذلك، وسأشكركم لإحضار هذه الشنطة، سيدة كروسلى، لإعادة نقودنا الشرعية فيها مرة أخرى.

قلت لهم سأذهب بالطبع مع أمى، ولكنهم صرخوا معترضين غباءنا المحكم، لأننا سنذهب لهلاكنا، فلم يذهب معنا حتى رجل واحد، فكل الذى فعلوه أن أعطونا مسدسًا محشوا بالرصاص خشية أن نهاجم ووعدونا بوجود حصانين جاهزين معنا فى حالة

أن يتعقبنا أحد ما فى طريق عودتنا للفندق، بينما كان أحد الغلمان على وشك أن يمتطى جواده إلى مكان الدكتور كى يبحث عن المقاومة المسلحة.

كان قلبى يدق عندما بدأنا الرحلة فى تلك المغامرة الخطيرة فى هذه الليلة الباردة، حيث كان القمر بدرًا ومشرقًا وبالرغم من ذلك يُرى بصعوبة على الحافة الجنوبية بسبب الضباب وزاد ذلك من سرعتنا كى نصل، فقد كان كل شىء واضحًا قبل أن نبدأ رحلتنا مرة أخرى، كان واضحًا كالنهار ورحلتنا كانت معرضة أن يكتشفها كل المارين، لذا هربنا عبر الأحراش بلا صوت وبسرعة لكى لا يرانا أو يسمعنا أحد حتى لا يزيد من رعبنا، واصلنا الرحلة ولم نرتح حتى أغلقنا باب فندق الأدميرال بنبو وراءنا، سحبت رتاج الباب فى الحال ووقفنا للحظات نلهث فى الظلام، وجدنا جثة الكابتن فى المنزل، أحضرت أمى شمعة من البهو، أمسكنا أيدى بعضنا البعض ثم تقدمنا، كان الكابتن ممدًا كما تركناه على ظهره وعيناه مفتوحتان وأحد ذراعيه كان مفرودًا.. قالت أمى هامسة لى:

– سد منافذ الفندق يا جيم، فاحتمال أن يأتوا ويراقبوا الخارج.

ثم أضافت وأنا أنفذ ما طلبته

– يجب أن نخفى المفتاح تمامًا ومن يلمسه يجب أن أعرف.

ثم تنهدت بعد أن قالت ذلك ونزلت على ركبتى فى الحال واقتربت أكثر من الكابتن، كانت توجد ورقة على الأرض قريبة من يده ومسوّدة على إحدى جوانبها، لم أشك أن هذا السواد هو البقعة السوداء، ألتقطتها، وجدت كتابة على الجانب الآخر بخط واضح، كانت رسالة قصيرة تقول "لديك حتى الساعة العاشرة مساءً"، قلت:

– لقد قال حتى العاشرة يا أمى.

ثم كررت الجملة، بدأت ساعتنا القديمة فى الدق، صدمتنا هذه الضوضاء المفاجئة لكن الأخبار كانت جيدة، لأن الساعة كانت السادسة الآن، قالت أمى:

– والآن يا جيم.. أين المفتاح؟!

بحثت فى جيبه واحدًا بعد الآخر، لم أجد شيئًا إلا عملات فضة وخيطًا وبعض الإبر الكبيرة ولفة من التبغ وسكينًا بيد معقوفة وجراب بوصلة وصندوقًا من مادة التندر، وهذا كان كل شىء، لذا بدأ اليأس يدب فى قلبى، اقترحت أمى قائلة:

– ربما يكون حول رقبته!!

تغلبت على اشمئزازى من الجثة وبدأت أبحث، مزقت قميصه من عند الرقبة بدرجة تكفى، يتدلى من رقبته خيط، قطعته بالسكين المعقوف، وجدت المفتاح، شعرنا فى تلك اللحظة بالانتصار، لذا مُلئنا بالأمل وأسرعنا إلى الطابق الأعلى دون أى تلكؤ إلى الحجرة الصغيرة حيث كان ينام وقتًا طويلاً وحيث يوجد صندوقه منذ يوم وصوله إلى الفندق، كان هذا الصندوق من الخارج مثل صندوق أى بحار ومطبوع عليه الحرف "B" بالحديد المذاب ويبدو أن أركانه قد تهشمت منذ فترة بفعل استخدام عنيف، قالت أمى:

– أعطنى المفتاح.

وعلى الرغم من أن القفل كان متيبسًا فإن أمى استطاعت أن تدير المفتاح ثم استطاعت أن ترفع الغطاء فى لحظة خاطفة، فارتفعت رائحة التبغ والقطران من عمق الصندوق ورغم أننا لم نر شيئًا فى القمة إلا بذلة جديدة كانت منظفة ومطوية بعناية ولم تكن ممزقة أبدًا، كان تحت ذلك أشياء كثيرة ومتنوعة بدأت تظهر مثل مقياس وبعض عيدان من التبغ ومسدسين جيدين وقطعة من الفضة وساعة إسبانية قديمة وبعض الإكسسوارات والحلى الرخيصة المصنوعة فى الخارج وبوصلة مطلية بالنحاس وخمس أوست من المحارات الهندية الغريبة، كنت أتساءل منذ متى وهو يحمل تلك المحارات معه فى حياة القنص والإثم والتجوال.

وأثناء ذلك لم نجد شيئًا له أهمية أو قيمة غير قطعة فضة وبعض الحلى الرخيصة، لا شىء من ذلك كان فى طريقنا، وكان تحت ذلك عباءة يكسوها اللون الأبيض بفعل ملح البحر فى بارات الموانى، سحبتها أمى بلا اكتراث ووضعتها بجوارنا، كان آخر ما وجدناه كومة من المشمع الذى يبدو كالورق وشنطة من القماش تعطى رنين الذهب عند لمسها، قالت أمى:

– سيعرف هؤلاء الأشرار أننى امرأة أمينة وسوف آخذ حقى فقط، لا شىء أكثر.

وبدأت أمى تعد المبلغ المستحق على الكابتن من حقيبة البحار إلى حقيبة أخرى كنت أحملها، كان الوقت طويلاً والأمر صعبًا والعملات الفضية الموجودة من كل الأقطار والأحجام، كان من بينهم عملة الديلون الإسبانية القديمة وعملة اللويسية الذهبية الفرنسية والجنيهات الإنكليزية وقطع من ذوات الثمانى بنسات وعملات أخرى إضافية، كان الجميع معًا بشكل عشوائى والجنيهات الإنكليزية هى الأندر وكان ذلك ما استطاعت أمى أن تعده.

فى منتصف عملية العد، وضعت يدى فجأة على ذراعها، فقد سمعت صوتًا قادمًا من الهواء الضبابى الصامت جعلنى ازداد رعبًا، صار صوت ضربات عصا الرجل الأعمى على الطريق الجليدى أقرب وأقرب ونحن جالسون نلتقط أنفاسنا، ثم يطرق بعنف على باب الحانة، سمعنا صوت يد الباب يُحاول فتحها فارتفعت خشخشات القفل، فالبائس يحاول الدخول، عاد الصمت يخيم على المكان ثانية، أخيرًا توقف الخبط على الباب، شعرنا بفرح لا يوصف وبدأ الصوت يبعد ببطء مرة أخرى حتى توقف تمامًا، قلت لأمى:

- أمى، علينا أن نأخذ الأشياء ونمضى.

كنت متأكدًا أن الباب المغلق سوف يثير الشك وسوف يحضر عش الدبابير بالقرب من آذاننا بالرغم من أننى أشعر بكل الامتنان لأننى أغلقته، فلا أحد يعرف من سيقابله هذا الأعمى المرعب، كانت أمى مرعوبة لكنها لم توافق أن تأخذ أى شىء زائدًا عن حقنا وكانت مصرة إصرارًا شديدًا أن تأخذ حقنا وألا يقل أبدًا، قلت:

- لن يقل عن سبعة!!

كانت تعرف حقها تمامًا وسوف تأخذه وتناقشت معى عندما سمعنا صوتًا لصفير بسيط قادم من الجبل، كان ذلك كافيًا وأكثر من الكاف فى لكل منا، قالت أمى وهى تقفز على قدميها:

- سآخذ ما جمعت.

فقلت وأنا ألتقط الكيس المشمع:

- وأنا سآخذه كى يسدد الحساب!!

بدأنا فى اللحظة التالية نتلمس النزول وتركنا الشمعة بجوار الصندوق الفارغ، حين فتحنا الباب شعرنا بالمأوى والأمان التام، لم نضيع لحظة أخرى، بدأ الضباب يتشتت بسرعة وظهر ضوء القمر جليًا فى الجانب الآخر، كان يسكن قاع الوادى الصغير حول باب الحانة الذى كون حجابا رفيعًا مازال معلقًا ليخفى الخطوات الأولى لهروبنا، وفى أقل من منتصف الطريق إلى القرية وقليلاً خلف قاع الجبل كنا نسير فى طريقنا نحو ضوء القمر فى سعادة، سمعنا صوتًا لخطوات عديدة تأتى إلى آذاننا وحين نظرنا خلفنا شاهدنا ضوءًا يجىء ويروح ويتقدم بسرعة ويظهر أحد القادمين الحاملين لفانوس، قالت أمى فجأة:

- ابنى العزيز، خذ النقود واهرب، سيغمى علىّ.

شعرت أن تلك نهايتنا وبدأت ألعن وأسب حالة الجبن لجيراننا وحالة الأمانة والطمع لأمى وحالة الغباء الشديدة والضعف الحالية، كنا لحسن الحظ على الكوبرى الصغير، ساعدتها حتى وصلنا إلى حافة الضفة، هناك شعرنا بالأمان بشكل كبير وتنهدت أمى تنهيدة كبيرة وسقطت على كتفى، لم أعرف كيف جاءت إلىّ هذه القوة لأفعل، كنت خائفًا أن أكون فعلت ذلك بخشونة لكنى جاهدت أن أجرها قدر استطاعتى إلى الضفة حيث طريق صغير تحت القنطرة، لم أستطع أن أحركها أكثر من ذلك تحت الكوبرى، فلم أفعل أكثر من سحبها تحته واضطررنا أن نبقى فى هذا المكان مدة، كانت أمى مكشوفة تمامًا وكانت آذاننا مع ما يمكنه أن يحدث داخل الحانة.

٥- نهاية الرجل الأعمى

كان إحساس الفضول لدى أقوى كثيراً من الخوف كى لا أبقى حيث أكون، لذا عدت ثانية زاحفًا إلى الضفة حيث أخفيت رأسى خلف شجيرة من البراعم، كشفت الطريق تمامًا قبل الذهاب لبيتى، كنت تقريبًا فى مكان مناسب قبل أن يأتى أعدائى، كانوا سبعة أو ثمانية رجال يتحركون بسرعة وبجد وأقدامهم تسابق الزمن على الطريق وأحدهم يحمل فانوسًا ويسبقهم ببضع خطوات، رأيت ثلاثة رجال معًا يدًا فى يد، اكتشفتهم رغم الضباب، ويسير الرجل الأعمى وسط الثلاثة، أكد لى صوته فى اللحظة التالية أنه هو المتسول الأعمى حين صرخ:

- افتحوا الباب.

أجاب اثنان أو ثلاثة منهم:

- نعم يا سيدى!!

ثم اندفع الرجال نحو باب فندق الأدميرال بنبو ومن قبلهم حامل الفانوس، ثم رأيتهم يتوقفون مؤقتًا، سمعت صوتًا وخبطًا جاءا إلىّ من الباب المفتوح الذى دهشوا لكونه كذلك، ثم واصلوا التحرك وأصدر المتسول الأعمى أوامره مرة أخرى، كان صوته عاليًا ومرتفعًا مثل نار مشتعلة فى لهفة وغضب، صاح فى غضب:

- هيا ادخلوا، ادخلوا.

ثم سب ولعن تأخرهم رغم أن أربعة أو خمسة رجال قد أطاعوا أوامره فى الحال وظل اثنان على الطريق مع المتسول المرعب الفظيع، سيطرت حالة من الصمت المؤقت ثم خرجت صرخة لها دهشة كبيرة، ثم علا صوت ينادى فى المنزل:

- بل مات!!

لكن الرجل الأعمى سبهم مرة أخرى لتأخرهم، وقال لهم:

- فتشوه، البعض منكم يجب أن يتجنب الأغبياء والبعض الآخر يصعد لأعلى للحصول على الكنز.

سمعت وقع أقدامهم تصعد على سلمنا القديم حتى إن المنزل كان يهتز بهم ثم ارتفعت بعد ذلك أصوات التعجب وفتح شباك غرفة الكابتن بعنف مما أدى إلى كسر الزجاج وأحدث صوتًا مرتفعًا ثم أطل منه رجل فى ضوء القمر وتدلى برأسه وكتفه ونادى على المتسول الأعمى أسفله على الطريق وصاح قائلاً:

- بو، لقد وصلوا قبلنا وشخص ما قلب الصندوق رأسًا على عقب

زأر بو:

- ألا يوجد شيء؟!

قال الرجل:

- يوجد نقود.

لعن الرجل الأعمى النقود، وصاح قائلاً:

- أقصد سر كنز فلنت!!

رد الرجل:

- لم نر شيئًا حتى الآن.

صرخ الرجل الأعمى قائلاً:

- هنا.. أنتم بالقرب منه، مع بيل.

فى تلك اللحظة أتى أحد زملائه إلى باب الفندق، احتمال أن يكون الشخص الذى ظل هناك لكى يفتش جثة الكابتن، قال:

- يبدو أن الكابتن قد فُتش بالفعل ولا شيء تبقى!!

صرخ الرجل الأعمى قائلاً:

- أصحاب الحانة هم الذين فعلوا ذلك وإنه الغلام لا أحد غيره، ليتك فقأت عينيه يا بو.

وأضاف قائلاً:

- كانوا هنا من لحظات قليلة وأغلقوا الباب حين حاولت أن أدخل، عليك أن تجدهم يا سكتر أنت والغلمان.

نظر أحد الرجال من الشباك وقال:

- بالتأكيد كانوا هنا من وقت قصير جدا.

كرر بو الكلام:

- سيجدهم سكتر وسيهزمهم خارج البيت.

وبدأ يدب بعصاه على الطريق وبدأت أشياء كثيرة تفعل بحانتنا القديمة، الأقدام القوية تروح جيئة وذهابًا تبحث عن شيء، أثاث البيت بدأ يُرمى به، الأبواب تُرفس، حتى الاهتزازات بدأ يعلو صداها، خرج الرجال مرة أخرى واحداً بعد الآخر على الطريق ويعلنون أننا لسنا موجودين، سمعنا نفس الصفير الذى حذرنا من قبل أنا وأمي بشأن أموال الكابتن الراحل، صارت مسموعة أكثر من ذى قبل خلال الليل، ولكنها كررت مرتين الآن، أعتقد أن هذا الصفير هو بوق الرجل الأعمى لكى يخاطب عصابته لكى يستدعيهم من أجل الهجوم ولكنى وجدت الآن أن هذا الصفير إشارة من منحدر التل إلى القرية تبين هجوم القراصنة وتأثيرهم، هى إشارة تحذر أبناء القرية من اقتراب الخطر، قال أحدهم:

- درك هناك مرة أخرى، يجب أن نزحزح الزملاء بعيداً.

صرخ بو:

- تزحزح!! أنت تتخاذل!

وأضاف الأعمى قائلاً:

- درك رجل أحمق وجبان من البداية، ألا تذكر ذلك، يجب أن يكونوا قريبين من البيت وليس بعيدين عنه، سوف تضعون أيديكم عليهم، ابحثوا عنهما، يجب أن تضعوا أيديكم عليهم، يا سكتر، كلاب، لقد أرجفتم روحى، آه لو أننى أمتلك عينىّ.

أثر هذا الموقف عليهم، بدأ اثنان منهم يبحثان فى كل مكان، هنا وهناك وبين سقط المتاع، ولكن بلا حماس وبلا قلب حقيقى، كنت أفكر وأتابعهم بنصف عين خطرهم الداهم طوال الوقت بينما باقى الرجال يقفون مترددين على الطريق، قال لهم الأعمى:

- أنتم أغبياء، ستضعون أيديكم على الآلاف، تريدون الراحة، ستكونون أغنياء كالملوك إذا وجدتم الكنز وأنتم تعرفون أنه هنا، لكنكم تتخاذلون، لا أحد فيكم يجرؤ أن يواجه "بل " لكنى فعلت، أنا الرجل الأعمى، أنا على وشك أن أفقد فرصتى لأجلكم، فأنا على وشك أن أكون فقيراً، أزحف كمتسول، يتطفل من أجل كأس من الروم وربما أدور فى حافلة من أجل ذلك، لو أنكم تمتلكون شجاعة سوسة الفاكهة فى قطعة بسكويت لاستطعتم أن تقبضوا عليهم.

قال أحدهم متذمراً:

- دعك من ذلك يا بو، معنا الجنيهات الذهبية الإسبانية.

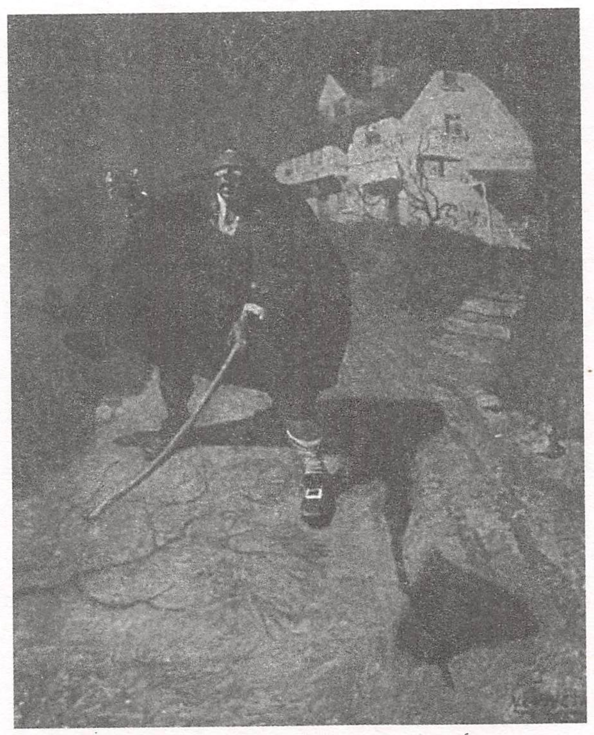
قال آخر:

- ربما يخفون ما هو أهم من ذلك وأكثر قيمة، خذ الجنيهات الإنكليزية يا بو ولا تقف هنا طويلاً، تتشاجر وتزعق وتنهق.

كانت كلمة التشاجر هى الكلمة التى أثارت غضب بو وارتفع غضب بو بسبب تلك الاعتراضات حتى زاد انفعاله لدرجة كبيرة، وبدأ يطيح بعصاه ويضرب يميناً ويساراً وعصاه تصدر صوتاً ثقيلاً للضربات واحدة بعد الأخرى.

وبدأوا يسبون بدورهم ويلعنون هذا الوغد الأعمى ويهددونه بألفاظ بغيضة وحاولوا عبثاً أن يمسكوا العصا وينزعوها من قبضته، الجميل أن تلك المشاجرة أنقذتنا، وأثناء ذلك سمعنا صوتاً قادماً من قمة التل على جانب القرية، كان صوتاً لوقع أقدام خيل تعدو مسرعة، انطلقت فى نفس الوقت طلقات نارية وفلاشات تأتى من جانب سياج الأشجار،

وكان ذلك آخر إشارة قادمة للتعبير عن الخطر، فتحول القراصنة عن الرجل الأعمى وهربوا فى اتجاهات متفرقة، واحد هرب عبر الخليج وآخر انحدر إلى التل.



بدأ يطرق بعصاه الطريق فى جنون شديد
ويتلمس طريقه وينادى على زملائه

وفى خلال نصف دقيقة لم نر أحداً منهم إلا بو الأعمى، تركوه جميعًا وحيداً فى رعب مطلق وانتقامًا من كلماته الحقيرة، لكنه ظل خلفهم، وبدأ يطرق الطريق بعصاه فى جنون شديد ويحاول أن يتلمس طريقه وينادى على زملائه، أخيراً سلك طريقًا خاطئًا وجرى فى اتجاه خاطئ وراءنا فى اتجاه القرية وصاح:

- جونى، الكلب الأسود، درك، يجب ألا تتركوا بو العجوز الضرير، أيها الزملاء، لم يعد هناك بو العجوز بعد الآن.

وارتفع بعد ذلك ضوضاء الخيل القادمة، ظهر فى الأفق حوالى أربعة أو خمسة فرسان يعدون بسرعة إلى المنحدر، زاد رعب الأعمى بو حين سمع ذلك و رأى الرعب

بعينيه المطفئتين وصرخ مرعوبًا وجرى فى اتجاه القناة حيث سقط وتدحرج لكنه استطاع أن ينهض مرة أخرى بسرعة وحاول الهرب لكنه ارتبك وسقط تحت أقرب حصان قادم، حاول الفارس أن ينقذه لكن عبثًا، فقد سقط بو وصرخ صرخة انتزعت سكون الليل، فقد داست عليه حوافر الحصان الأربعة ودهسته بثقلها ثم مرت عليه.

وقفت على قدمى بسرعة وناديت على الفرسان، حاولوا أن يشدوا اللجام لكى يوقفوا الخيل لكنهم لم يستطيعوا، كانت على أى حال حادثة مروعة، استطعت أن أحدد هويتهم، كان أحدهم يتعقب الآخرين، كان ضابطًا قد خرج من القرية إلى دكتور ليفزى وكان بقية الضباط من ضباط الجمارك والضرائب الذين قابلتهم على الطريق، وكان لديه الذكاء أن يكون معهم فى الحال، فقد كانت هناك بعض الأخبار عن وجود مركبة رباعية الأشرع للقراصنة فى كيت هول وجدت طريقها للمشرف "دانس" الذى اتخذ طريقه مباشرة إلينا فى تلك الليلة ولولاه ما أنقذنا، فأنا وأمى مدينان له بحياتنا.

لقد مات "بو" ميتة شنيعة وبالنسبة لأمى فقد حملناها إلى القرية، ورغم تعبها الشديد إلا أن قليلاً من الماء البارد وبعض الأملاح أعادتها ثانية إلى وعيها، لم تكن أسوأ حالاً من حالة الرعب التى كانت عليها، وبالرغم من ذلك كانت حزينة على ما ضاع من رصيدها من المال.

أثناء ذلك أسرع المشرف قدر استطاعته على الطريق إلى السفينة كيتى لكن رجاله اضطروا أن يترجلوا ويتجهوا إلى الوادى الصغير الظليل، يقودون خيولهم لكنهم كانوا فى خوف دائم من الأكمنة التى قد تفاجئهم من القراصنة، لذا لم يكن هناك أمر يدعو للدهشة حين نزلوا إلى السفينة الموجودة فى أسفل الطريق.

نادى عليها واستجاب له صوت، أخبره أن يبقى بعيدًا عن ضوء القمر وإلا سيطلق عليه الرصاص، ومرت فى نفس الوقت رصاصة بجوار ذراعه وضاعفت المركبة من سرعتها واختفت، وقف السيد دانس هناك وقال نحن مثل السمك الذى خرج من الماء وكل ما فعله أن أرسل رجلاً لكى ينذر المركب المسلح بالصفير لمنع التهريب وقال:

- هذه النتائج أفضل مما لا شيء، لقد فلتوا بجلدهم وتلك نهايتهم وأنا سعيد أننى دهست مستر "بو" وكان مستر "دانس" قد سمع منى حكايتى من قبل.

عدت ثانية معه إلى فندق الأدميرال بنبو ولك أن تتخيل المنزل فى مثل هذه الحالة من الدمار، فقد دُمرت ورُميت كل الأشياء بواسطة هؤلاء العصابة بعد أن هربت أنا وأمى، وبالرغم من ذلك لم يؤخذ شيء إلا صرة نقود الكابتن وقليل من الفضة من الصندوق، رأيت فى الحال كم دُمرنا، لم يفعل السيد دانس شيئًا تجاه الأمر، قال دانس:

– لقد حصلوا على النقود لكنى أرى أنهم تركوا الكثير من النقود ولم يأخذوا كل شيء.

– ليست النقود ما جاءوا لأجلها يا سيدى، أعتقد أن هناك شيئًا آخر معى فى جيب الصديرى وسوف أخبرك بالحقيقة، أود أن يكون فى أمان.

قال مستر دانس:

– تأكد من ذلك يا بنى وسوف آخذه لو أردت.

قلت له:

– أفضل أن يكون مع الدكتور ليفزى.

قاطعنى السيد دانس قائلاً بسعادة:

– رائع جدا، إنه سيد وقاضى صلح والآن يجب أن أفكر فى الأمر، يجب أن أركب حصانى وأذهب إلى هناك بنفسى وأبلغه أو أبلغ العمدة عن موت السيد "بو" متى حدث، لست نادمًا ولكنه مات، لقد رأيت ذلك بنفسك لكن الناس سوف ترى ذلك الأمر بصعوبة أن يحدث من ضابط ملكى، والآن أقول لك يا جيم هوكنز لو أردت سوف آخذك إلى هناك مباشرة.

شكرته من كل قلبى لعرضه، وعدنا ثانية إلى القرية حيث يوجد الفرسان، وقبل أن أخبر أمى بما سأفعل كان جميع الفرسان مستعدين للذهاب، وأخبر مستر دانس زميله روجر قائلاً:

– أنت لديك حصان جيد، خذ الغلام جيم وراءك.

وبمجرد أن ركبت الحصان خلف روجر أعطى السيد دانس المشرف أمره بالتحرك، بدأنا جميعًا فى طى الأرض طيا فى طريقنا إلى منزل الدكتور ليفزى.

٦- أوراق القبطان

امتطينا الخيول متحمسين حتى نزلنا قبل باب الدكتور ليفزى، كان البيت مظلماً حتى مقدمته، أمرنى السيد دانس أن أقفز وأطرق الباب وأعطانى روجر السرج حتى أهبط، فُتح الباب بواسطة الخادمة التى سألتها:

- هل السيد ليفزى موجود؟

قالت:

- لا، سيأتى البيت بعد الظهر لكنه ذهب إلى صالة الغذاء كى يتناول العشاء ويمر قبل المساء على العمدة والإقطاعى تريلونى.

قال السيد دانس:

- يجب أن نذهب إلى هناك يا أولاد.

ولأن المسافة لم تكن طويلة فلم نركب الخيل ومشيت بسرعة مع السيد روجر إلى بوابة البيت عبر طريق زراعى طويل كان بلا أوراق للشجر وينيره ضوء القمر حتى للبيوت الريفية التى تطل على الجانب الآخر للحدائق القديمة العظيمة، هنا أخذنى السيد دانس معه بعد أن نزل عن حصانه وأمر له بالدخول إلى المنزل، قادنا الخادم إلى ممر مفروش بالحصير وأرنا فى النهاية مكتبة عظيمة مصفوفة بالكتب والتماثيل على قاعدتها، حيث يجلس الدكتور ليفزى والإقطاعى العمدة تريلونى يدخنان البايب على جانبى نار هادئة، لم أر الإقطاعى من قرب لكنه كان رجلاً طويلاً، تقريباً ستة أذرع ارتفاع، عريضاً فى حجمه وصريحاً وصاحب وجه جاهز وجامد وخشن وخجول وعليه آثار الرحلات والسنين؛ له حاجبان سوداوان وكثيفان ويتحركان بثبات وذلك يعطيه نظرة غضب ليست سيئة على أى حال، قال الإقطاعى العمدة تريلونى بجلال وعطف:

- ادخل يا مستر دانس.

وقال الدكتور ليفزى بإيماءة ترحيب:

- مساء الخير يا دانس، مساء الخير عليك وعلى صديقك جيم، أى ريح طيبة أحضرتك إلى هنا؟

وقف المشرف مستقيمًا وثابتًا وهو يحكى القصة وكأنه يلقى درسًا جعل ذلك السيدين يتكئان للأمام إنصاتًا له حتى إنهما نسيا أن يطفأ البايب اهتمامًا ودهشة ونظرا إلى بعضهما البعض حين سمعا كيف عادت أمى إلى الحانة مرة أخرى، ضرب الدكتور ليفزى فخذه دهشًا وصرخ الإقطاعى العمدة تريلونى قائلاً بدهشة:

- برافو!!

وكسر البايب فى الحاجز الحديدى الذى أمامه وقبل أن يحدث ذلك بفترة نهض السيد تريلونى من مقعده وبدأ يخطو خطوات واسعة فى الحجرة وبدأ الدكتور يسمع لما يقال باهتمام وخلع باروكته وجلس ينظر بشكل غريب لببغائه الأسود والملتصق به وأخيراً انتهى السيد دانس من القصة، قال تريلونى:

- سيد دانس، أنت إنسان وزميل نبيل وبالنسبة لمصرع هذا الوغد البشع الأسود، فلا تأس، انظر لذلك كنوع من الفضيلة يا سيد، مثلما تركل صرصوراً، وهذا الغلام جيم هوكنز هو زميل عزيز ورفيق ملكى، أعى ذلك جيداً، اضرب الجرس يا هوكنز، لابد أن يأخذ السيد دانس بعض البيرة.

قال الدكتور ليفزى:

- وكذلك جيم، لابد أن يأخذ شيئًا، فأنت تمتلك الآن الشىء الذى جاءت من أجله العصابة، أليس كذلك؟!

أعطيت الكيس الجلدى للدكتور وقلت:

- هاهو يا سيدى الكيس.

نظر الدكتور للكيس جيداً من كل جانب كما لو كانت أصابعه تريد أن تفتحه لكنه بدلاً من ذلك وضعه بهدوء فى جيب المعطف، قال الدكتور:

– سيدى تريلونى، حين ينتهى السيد دانس من شرب الجعة سيذهب بالطبع إلى خدمته الملكية وأريد أن يبقى جيم معنا لكى ينام فى بيتى بعد إذنك يا سيد تريلونى، أقترح أن نتناول الفطيرة الباردة وندعه يتناول عشاءه.

قال تريلونى:

– كما ترغب يا دكتور ليفزى، فجيم كسب أكثر من الفطيرة الباردة.

لذا أحضرت فطيرة كبيرة من المطبخ و وضعتها على المائدة وتناولت عشائى بشهية كبيرة لأننى كنت جائعًا كالصقر وقد كان السيد دانس يمدح كثيرًا، وأخيرًا غادرنا، قال الدكتور ليفزى:

– والآن يا تريلونى!

قال تريلونى فى نفس اللحظة:

– والآن يا دكتور ليفزى!

ضحك دكتور ليفزى قائلاً:

– لقد قلنا فى نفس واحد، أعتقد أنك سمعت عن فلنت.

قال الإقطاعى تريلونى صارخًا متعجبًا:

– أتقول أسمع عنه!! إنه القرصان الأكثر دموية، بلاك بيرد(*) بالنسبة له طفل صغير والأسبان يخافون منه بشكل مرعب وكبير، أنا فخور أن هذا القرصان رجل إنجليزى، ولقد رأيت سفنه بعينى، خارج ترينداند، هو أكثر جرأة من الخمر ورأيت ذلك أثناء عودتى إلى ساحل الأسبان.

قال الدكتور ليفزى:

– لقد سمعت ذلك بنفسى فى إنجلترا، لكن الأمر هل يمتلك نقودًا؟!

(**) بلاك بيرد: مجرم دموى وسفاح.

صرخ الإقطاعى العمدة تريلونى متعجبًا:

- ألم تسمع القصة، ما الذى أحضر هؤلاء الأشرار إلا المال ، ماذا سيهتمون به إلا المال؟ ولماذا سيغامرون بأجسادهم الوضيعة إلا من أجل المال؟

قال الدكتور ليفزى:

- سنعرف قريبًا كل شىء، أنت تثير الحيرة والعجب جدا لدرجة أننى لا أستطيع أن أقول شيئًا بعدك، ما أريد أن أقوله هو أفترض أننى معى فى هذه الصرة مفتاح كنز فلنت المدفون، هل هذا الكنز كبير جدا كى نغامر لأجله؟!

صرخ الإقطاعى العمدة تريلونى قائلاً:

- إنه يعنى الكثير جدا، لو معى المفتاح الذى نتحدث عنه سوف أجهز سفينة فى رصيف برستول كى تأخذنا أنا وأنت وجيم مباشرة إلى هناك وسوف أحضر هذا الكنز حتى ولو بحثت عنه لمدة عام.

قال الدكتور:

- حسنًا، الآن لو وافق جيم سوف نفتح الجيب.

ثم وضعها أمامه على المائدة، كانت الصرة مخيطة، أحضر الدكتور ليفزى شنطة أدوات وقطع الغرز بمقص طبى، كانت الصرة تحتوى على كتاب وورقة محكومة الغلق، أعطى الدكتور ملاحظة قائلاً:

- يجب أولاً أن نجرب الكتاب.

كنت والإقطاعى تريلونى نقف فوق رأسه حين فتح الكتاب، أمرنى الدكتور ليفزى أن أتحرك كى أكون حول المائدة التى كنت أتناول طعامى عليها كى أتمتع بلحظة فتح هذا الكتاب، ففى الصفحة الأولى وجدت بعض قصاصات من الكتابة، مثل رجل بقلم فى يده ربما مصنوعًا للكسل أو النشاط، كان يشبه وشمًا، وخيال بيلى بونز ومستر دبيلو بونز موجودين ولكن بلا مزيد من شراب الروم وبعيداً عن مفتاح الشجرة الذى حصل عليه، كانت توجد بعض نتف وبعض كلمات فردية غامضة، لم أستطع أن أندهش أو أفهم من يكون هذا الذى يملك كلمة "أحصل عليه" وما هو الشىء الذى يحصل عليه، أشعر أنه كخنجر مخفى وراء ظهره لا أراه، كانت الصفحات العشرة أو

الاثنتا عشرة مليئة بالعبارات الغريبة الأطوار ويوجد تاريخ فى نهاية كل سطر، وعند المبلغ الآخر للمال وكأن ذلك كشف حساب بنكى بدلاً من التفسير الكتابى والكتابة التفسيرية، نجد عدداً من التقاطعات المتنوعة بين كل اثنين.

على سبيل المثال، فى الثانى عشر من يونيو عام ١٧٤٥، مبلغ من المال يقدر بـ٧٠جنيهًا صاروا من حق شخص ما، ولا يوجد شىء فى الصفحة إلا ستة تقاطعات لكى تفسر الأمر وتوضحه، وفى بعض الأحوال لكى تكون متأكدًا يضاف اسم المكان مثل "أوف كاركاس" أو خط العرض والطول مثل: ٦٢، ١٧، ٢٠، ١٩، ٢، ٤٠ ظل الرقم ما يزيد عن ٢٠عامًا ومقدار العبارات المنفصلة يزداد اتساعًا كلما مر الزمن وفى النهاية رأينا مجموعًا كبيراً بعد خمس أو ست إضافات خاطئة ، كما أضافت تلك الكلمات "بونز وكومته".

قال الدكتور ليفزى متعجبًا:

- أنا لا أفهم شيئًا.

رد على تريلونى صارخًا:

- هذا واضح مثل الظهيرة، فكلب الصيد الأسود هذا يستطيع أن يقدر الحساب، فالتقاطعات تمثل السفن أو المدن التى غرقت أو نهبت، فالمبالغ هى أنصبة الوغد لأنه كان خائفًا فجعل الشىء غامضًا ثم وضع شيئًا جعله أكثر وضوحًا وهو "أوفى كاركاس" والآن كما تشاهدون يوجد هنا مركبة غير سعيدة تبحر خارج الساحل وليساعد الرب الأرواح المسكينة التى توجد عليها، فكم قابلوا الشعاب المرجانية من قبل.

قال الدكتور:

- حسنًا.. كم يتكلف المسافر كى يكون آمنًا، حسنًا فالمقدار يزيد كلما زاد فى مرتبته أو منزلته.

كان يوجد مقدار قليل وبعض الاحتمالات القليلة لبعض الأماكن الموضوعة بأوراق الشجر البيضاء فى اتجاه النهاية ومنضدة لتقليص قيمة الأموال الفرنسية والإنجليزية والإسبانية إلى قيمة عامة، صرخ الدكتور قائلاً:

- ياله من رجل مقتصد، لم يكن أحد يستطيع أن يغشه أو يخدعه!

قال الإقطاعى تريلونى:

- والآن.. ماذا بالنسبة للآخر؟!

كانت الورقة محكمة الغلق فى جوانب عديدة باستخدام الكشتبان عن طريق ختمها، احتمال أن يكون الكشتبان الموجود فى جيب الكابتن، فتح الدكتور ليفزى الأختام بعناية فائقة فسقطت خريطة الجزيرة مرسومًا عليها خطوط الطول والعرض والأعوام وأسماء التلال والخلجان وكل شيء يحتاج لإحضار سفينة إلى مرسى أمام شواطئها.

كانت الجزيرة حوالى تسعة أميال طولاً وخمسة أميال عرضًا وتبدو وكأنها تنين ضخم يقف وله ميناءان على قطعة من الأرض المغلقة وتل فى الوسط يسمى النظارة المكبرة، وتوجد بعض الإضافات لتاريخ لاحق، وفوق كل ذلك يوجد ثلاثة صلبان مرسومان بالحبر الأحمر، اثنان منهما فى الجزء الشمالى من الجزيرة والآخر فى الجهة الجنوبية الغربية وبجانب ذلك يبقى نفس الحبر الأحمر فى كف أنيقة صغيرة تختلف عن شخصيات الكابتن المائلة وهذا كله يعنى أن الكنز موجود هنا.

وعلى ظهر الخريطة، كتبت نفس اليد بعض المعلومات الإضافية، شجرة طويلة، كتف جبل النظارة المكبرة، اتجاه يشير إلى الشمال من شمال شمال شرق جزيرة الهيكل شرق جنوب شرق لعشرة أقدام، سبائك الفضة فى مخبأ الشمال، من الممكن أن تجد ذلك فى اتجاه شرق الرابية، وعشر قامات أى حوالى ٦٠ قدما جنوب الصخرة السوداء التى لها سطح. ستجد ألسنة البحر بسهولة فى التل الرملى و تشير إلى شمال نقطة رأس الخليج فى اتجاه الشرق وعند الممر شمالا.

وكان ذلك كل شيء، ولكنه كان باختصار كما يتضح، ولكنه كان بالنسبة لى غير مفهوم ولكنه ملأ العمدة تريلونى والدكتور ليفزى بالسعادة، قال الدكتور ليفزى للإقطاعى العمدة تريلونى:

- يجب أن نتوقف عن هذا العمل البائس الآن.

رد قائلاً:

- لذا سأتجه إلى برستول وخلال ثلاثة أسابيع، لا. بل خلال أسبوعين، لا عشرة أيام، سيكون عندى أحسن سفينة وأحسن طاقم بحار فى إنجلترا كلها وسيأتى معنا جيم كمساعد كابينه، ستكون أشهر ولد كابينه يا جيم وستكون يا ليفزى طبيب هذه السفينة وسأكون أنا الأدميرال.. أمير البحر وسآخذ معى خدمى ردروث وجويس وهنتر وستكون معنا الريح الطيبة، والممر السريع ولن نجد صعوبات كثيرة فى العثور على تلك الجزيرة وسيكون معنا المال للأكل والبحث واللعب.

قال الدكتور ليفزى:

- سأذهب معك يا تريلونى وسأتولى كفالة ذلك، ومسئولية جيم وكن واثقًا من هذا التعهد، ما أخاف منه رجل واحد فقط.

صرخ الإقطاعى تريلونى قائلاً:

- من هذا؟! اذكر لى اسم هذا الكلب يا سيدى.

أجاب الدكتور:

- أنت!! لأنك لا تستطيع أن تمسك لسانك، فنحن لسنا الذين يعرفون أسرار هذه الأوراق فقط، هؤلاء الذين هاجموا الحانة الليلة جماعة من الأوغاد المسلحين بأسلحة بائسة، إضافة للباقين الذين على ظهر السفينة وأكثر من ذلك لا تعرفهم، أقول لك جازمًا: إنهم ليسوا بعيدين عن هنا، جميعهم كبيرًا وصغيرًا جاءوا من أجل هذه النقود، ويجب ألا يكون أحد بمفرده حتى نصعد للسفينة، أنا وجيم سوف نلتصق ببعض وأنت يجب أن تأخذ معك جوسى وهنتر حين تذهب إلى برستول وقبل كل شىء وبعده يجب ألا يتنفس أحد بكلمة واحدة عما نعرفه وعما وجدناه.

قال الإقطاعى العمدة تريلونى:

- ليفزى.. أنت دائمًا صح، سأكون صامتًا مثل القبر.

الجزء الثانى

(طبـاخ البحـر)

٧- سأذهب إلى برستول

مر وقت طويل عما تخيله الإقطاعى تريلونى قبل أن نكون جاهزين لركوب البحر، لم يكن ذلك فى خططنا الأولية ولا حتى فى خطط الدكتور ليفزى أن أظل بجواره وأن ننفذ ما قد نوينا وأردنا، فقد ذهب الدكتور ليفزى إلى لندن لكى يكلف أحد الأطباء ليتولى مهام عمله أثناء غيابه، وعشت أنا فى الصالة تحت مسئولية "ردروث" حارس الطرائد الذى يمنع الغرباء من الصيد فى القرية أو التطفل، كنا تقريبًا كسجينين لكنه كان مملوءًا بأحلام البحر وكل التوقعات الساحرة للجزر الغريبة وللمغامرات القادمة.

لقد فكرت كثيرًا فى الساعة التى نكون فيها حول الخريطة ومعنا كل التفاصيل التى سوف أتذكرها جيدًا، لقد قربت تلك الجزيرة من خيالى من كل الجهات، حاولت أن أستكشف كل شبر من سطحها، تسلقت مئات المرات إلى التل الذى يدعونه النظارة المكبرة، تمتعت من فوق القمة بالمشاهد الطبيعية الرائعة والمتغيرة، أحيانًا تكون السفينة مكتظة بالوحوش الضارية الذين تقاتلهم وأحيانًا ملآنة بالحيوانات الخطيرة التى تصطادها، لكن على أى حال لم أتخيل شيئًا غريبًا أو مأسويا فى رحلتنا الفعلية.

ومرت الأيام حتى جاء خطاب فى أحد الأيام الطيبة مُعنونًا للسيد ليفزى وعليه ملاحظة.."يفتح فى حالة غيابه بواسطة "توم ردروث" أو بواسطة الصغير "جيم هوكنز"، وتنفيذًا لأوامره وجدنا أو قد وجدت بعض الأخبار التالية المهمة والجدير بالذكر أن الحارس ردروث لم يكن جيدًا فى القراءة.

(حانة انكر القديمة، برستول ١ مارس، ١٦)

- عزيزى الدكتور ليفزى:

"أنا لا أعرف إذا ما كنت موجوداً فى البهو أم مازلت فى لندن، لقد أرسلت الرسالة إلى كل من المكانين، لقد اشتريت السفينة وجهزتها وهى تقبع فى مرساها وجاهزة كى تبحر، لن نتخيل كم هى تكون مركبة شراعية جميلة، فالطفل يستطيع أن يقودها وتأخذ حمولة مائتى طن وتسمى "هيسبنيولا"، حصلت عليها عن طريق صديقى "بلاندى" الذى برهن أنه الإنسان المفضل والأكثر دهشة لى والزميل الأكثر إعجاباً من الجميع والأكثر اهتماماً منى وعن كل واحد فى برستول وبمجرد أن يكتشف الناس أمر السفينة فى الميناء سوف نبحر لأجل الكنز وأعنى ذلك تماماً."

توقفت عن القراءة وناديت على ردروث:

- ردروث!! لم يحب الدكتور ليفزى ذلك، فالإقطاعى تريلونى مازال يتحدث عن أمر الكنز بعد كل ذلك.

تذمر الحارس ردروث قائلاً:

- أيهما الأفضل والأصح، أرى أن مشكلة ما سوف تحدث إذ لم يتحدث الإقطاعى تريلونى مع الدكتور ليفزى، أعتقد ذلك.

توقفت بعد ذلك تماماً عن إعطاء أى تعليق وواصلت القراءة دون توقف...

- لقد وجد "بلاندى" نفسه المركبة هيسبنيولا، كما أوجد لها الطاقم الإدارى لتلك الرحلة البسيطة، توجد طبقة من الرجال فى بريستول يقفون ضد بلاندى، لقد تمادوا فى اتهامهم له أن هذا المخلوق يفعل أى شىء من أجل المال وأنه يمتلك السفينة وباعها بسعرٍ عالٍ وأعتقد أن ذلك تشويه كبير جدا لسمعة الرجل ولا أحد بالرغم من ذلك يجرؤ أن يقلل من سمات السفينة، وأكد أنه لن يكون هناك أى تطفل على السفينة ولن يوجد إلا الرجال والأجهزة اللازمة وقد تكون الرحلة بطيئة قليلاً لكن الزمن سوف يعالج أى أخطاء ولن يضايقنى إلا طاقم السفينة، وأتمنى أن أجد مجموعة محورية مخلصة من الرجال فى حالة وجود أى من القراصنة أو الفرنسى البغيض، لدى قلق من الاثنين تجعلنى أحاول أن أجد نصف دستة من هؤلاء الرجال المخلصين وأومن أن لدى الحظ الذى سوف يحضر لى الرجال الذين أطلبهم.

وأنا جالس على رصيف الميناء منتظراً لتلك الحادثة المهمة تحدثت مع رجل، اكتشفت أنه بحار عجوز له منزل عام ويعرف كل البحارة فى برستول وقد أضاع عمره على الشاطئ ويريد فقط مكانًا جيداً كطباخ لكى يرى البحر ثانية، وأنه يعرج وأكد لى أنه يتمنى أن يشم يود البحر.

لقد تأثرت كثيراً لحالته وأعتقد أنك ستتأثر كذلك، وبعيداً عن الشفقة اتفقت معه أن يعمل طباخًا للسفينة، اسمه لونج جون سيلفر وفقد إحدى قدميه حين كان يخدم الوطن تحت قيادة القائد الخالد هوك(*) وأرى أن ذلك تزكية له، ومنذ ذلك الوقت لا يمتلك معاشاً، هل تتخيل يا دكتور ليفزى هذا العجر الكريه الذى يعيش فيه.

حسنًا سيدى، كنت أعتقد أننى وجدت مجرد طباخ لكنى وجدت طاقمًا كاملاً، صار بينى وبين سيلفر صحبة فى أيام معدودة، ليس بالسهل أن تُخترق، فلها روح لا تقهر، فلسنا مجرد صاحبين عابرين، أعلنت أننا قد نحارب سفينة بحرية، واستطاع لونج جون أن يخلصنى من اثنين من ستة أو سبعة رجال كنت قد اتفقت معهم للعمل معنا، فقد كشف لى فى لحظة أنهما لا يصلحان لهذه المغامرة المهمة جدا.

أنا فى أحسن أحوالى الصحية وروحى المعنوية عالية جدا وآكل مثل ثور وأنام قرير العين مثل شجرة، ولكنى لن أستمتع بتلك اللحظة حتى أسمع وقع أقدام الملاحين حول رحوية(**) السفينة، ما أروع البحر حين نحصل على الكنز، إنه كبرياء البحر الذى غير رأسى تماماً، والآن يا صديقى دكتور ليفزى تعال بسرعة لا تضيع أى ساعة إذا كنت تقدرنى، دع الصغير جيم يذهب فى الحال لأمه كى يراها مع ردروث لحراسته ثم يأتيان بسرعة إلى برستول.

"جون تريلونى"

(*) أدميرال إدوارد هوك انتصر فى معظم المعارك ضد الفرنسيين والإسبان أثناء حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)

(**) أداة يديرها الملاحون لرفع الأثقال أو المراسى.

ملحوظة:

لم أخبرك أن بلاندى هو الذى يجب أن يرسل لنا سفينة مرافقة إذا لم نبدأ قبل نهاية أغسطس وقد وجد لنا زميلاً رائعًا لقيادة الإبحار، هو رجل صارم للأسف لكنه فى كل الأحوال يحترم الكنز، اكتشف لونج جون سيلفر لنا رجلاً كفئًا مؤهلاً للزمالة يسمى "أرو" لكن لدينا عريف الملاحين الذى يصدر الأوامر بصفارته، لذا أعتقد أن الأشياء كلها ستكون على نسق عسكرى فى السفينة الرائعة هيسبنيولا.

نسيت أن أقول لك: إن سيلفر رجل غنى، عرفّت بمعلوماتى الخاصة أنه يمتلك حسابًا فى البنك الذى لم يسحب منه شيئًا حتى الآن وأنه ترك زوجته تدير الحانة، وهى امرأة من الملونين، فزوج من غير المتزوجين مثلى ومثلك ربما يعذران إذا فهمنا أن تلك الزوجة القوية أرسلته كى يعاود التجوال والسفر مرة أخرى.

"جون تريلونى"

ملحوظة:

ربما يقضى جيم مع أمه ليلة واحدة.

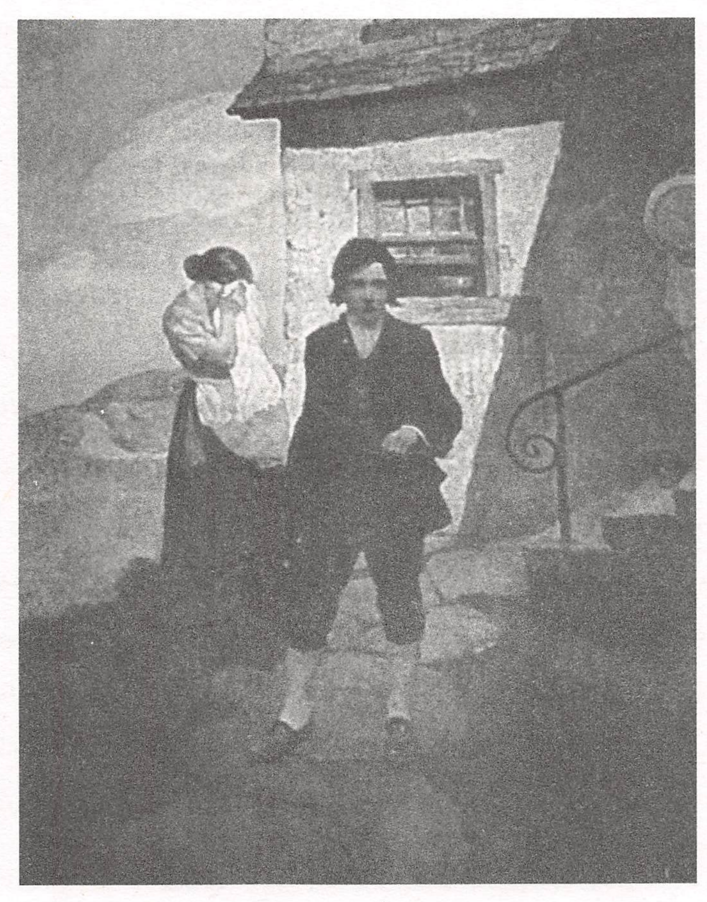
"جون تريلونى"

لا تستطيع أن تتخيل كم الإثارة التى وضعنى فيها هذا الخطاب، أصبحت سعيداً جدا رغم أننى أتضايق من الرجل العجوز "توم ردروث" الذى لا يفعل شيئًا إلا التذمر والندب، ولا يستطيع أى من الرجال الذين يحرسون الطرائد أن يغير الأماكن معه بسعادة وهذا لا يسعد الإقطاعى رغم أن سعادة الإقطاعى تريلونى مثل قانون بينهم، فلا أحد غير "ردروث" يجرؤ أن يتذمر.

فى الصباح التالى خرجنا سيرًا على الأقدام إلى فندق الأدميرال بنبو، وجدت أمى بصحة جيدة وروح معنوية عالية، فالكابتن الذى طالما سبب لنا المشاكل قد رحل إلى حيث التوقف النهائى عن المشاكل، فقد أصلح الإقطاعى تريلونى كل شىء وأعاد دهان الحجرات العامة واللافتة وأضاف بعض الأثاث، إضافة إلى كرسى جميل وثير لأمى على البار وأحضر لها غلام صغير يساعدها كى لا تحتاج أى مساعدة أثناء غيابى.

وعند رؤية هذا الغلام عرفت لأول مرة أهمية دورى وشعرت كم المغامرة التى سيكون عليها البيت وأنا غائب، حين شاهدت هذا الغلام غير المدرب، كيف سيأخذ مكانى بجوار أمى، كانت حقيقة مؤلمة، شعرت بدموعى تهاجمنى لأول مرة، أنا خائف أن أترك أمى فى حراسة هذا الولد الذى ما زال جديداً على العمل، كان لدى بعض الوقت كى أدربه وأتركه فى مكانى، كان لدى المقدرة لفعل ذلك.

مرت الليلة سريعاً وكذلك نهار اليوم الثانى وبعد العشاء خرجت مع رودروث إلى الطريق نمشى على أقدامنا بعد أن ودعت أمى والخليج الذى عشت بجواره منذ أن ولدت وفندق الأدميرال بنبو العجوز الذى لم أر أجمل منه خاصة بعد أن أعيد دهانه.



ودعت أمى والخليج

كانت آخر الأفكار التي راودتني عن الكابتن الذي كان يتمشى على الشاطئ يرتدي قبعته المردودة وسيفه وتلسكوبه القديم، وبعد لحظة استدرنا تاركين المكان واختفى البيت من أعيننا.

ركبنا عربة البريد عند الغسق من عند محطة جورج الملكية عند المستنقع جلست بين "ردروث" ورجل عجوز لطيف، وبالرغم من حركة العربة السريعة وهواء الليل البارد فإننى نعست لفترة منذ بداية الرحلة، نمت وكأننى سفينة تصعد تلا وتهبط لوادٍ فترة بعد أخرى، ثم استيقظت أخيراً على رفصة فى أضلاعى ففتحت عينى لنجد أنفسنا نقف قبل مبنى كبير فى شارع المدينة الكبير وظل هذا اليوم يحمل ذكرى حزن فى ذاكرتى لوقت طويل.

سألت: أين نحن.

قال توم: برستول، انزل.

تبوأ السيد تريلونى مقعده فى حانة ليست بعيدة عن أرصفة الميناء لكى يشرف على العمل فى السفينة، اضطررنا أن نذهب إلى هناك، كانت فرحتى كبيرة، وضعنا رحالنا على الأرصفة بجوار حشد كبير من السفن التى من كل الأحجام وبكل المعدات ومن كل الجنسيات، كان البحارة يغنون أثناء عملهم وفى أماكن أخرى حيث الكثير من الرجال فوق رؤوسنا يشدون الحبال التى تبدو أسمك من خيوط العنكبوت، وبالرغم من أننى كنت أعيش بجوار الشاطئ طوال عمرى فإننى شعرت أننى لم أعش بجوار البحر قط، حين شاهدت الميناء، كانت رائحة القار والملح جديدة فى أنفى، رأيت أعجب رؤوس على ظهر المحيط، رأيت بالإضافة لذلك بحارة يرتدون الحلقان فى آذانهم وسوالفهم المجعدة فى حلقات وضفائرهم تتهاوى وطريقتهم المتبجحة الخرقاء ولو أننى قد رأيت الكثير من الملوك والأساقفة لما كنت سعيداً جدا كما الآن.

ذهبت إلى البحر بنفسى كى أبحر مع بحار هادئ مسالم وبحارة بضفائر يغنون، يبحرون خصيصاً لجزيرة غير معروفة كى يبحثون عن الكنز المدفون، بينما كنت فى

حلمى السعيد وصلنا فجأة أمام حانة كبيرة، قابلنا الإقطاعى تريلونى، كان يرتدى مثل ربان البحر ملابس زرقاء قوية، خرج من الباب بابتسامة على وجهه وتقليد كبير لمشية البحار، وصاح:

- تفضلا.. برافو، لقد اكتملت صحبة السفينة.

صحت قائلاً:

- سيدى ومتى نبحر؟!

رد قائلاً:

- نبحر!! سوف نبحر غداً.

وجاء الدكتور ليفزى من لندن الليلة الماضية.

٨- عند علامة جبل النظارة المكبرة

حين أعددت طعام الفطور أعطانى الإقطاعى تريلونى ورقة كملحوظة موجهة إلى جون سيلفر - عند علامة جبل النظارة المكبرة - وأخبرنى أننى سأجد مكانه بسهولة إذا سرت فى اتجاه أرصفة الميناء وسأجد حانة صغيرة عليها تيليسكوب نحاسى كبير كعلامة، بدأت الرحلة سعيداً لأننى سأجد الفرصة لأرى كثيراً من السفن والبحارة وأخذت طريقى بين جمهور كبير من الناس وعربات الكارو وبالات الملابس القديمة وصار الرصيف الآن أكثر زحمة من ذى قبل حتى وجدت الحانة.

كانت الحانة مكاناً صغيراً وجميلاً للتسلية وأعيد دهان اللافتة حديثاً والشرفات أنيقة وعليها ستائر حمراء والأرضية كانت مفروشة بالرمال ويوجد شارع على كل جانب وباب مفتوح فى كلا الشارعين بحيث يجعل الحجرة الواسعة المنخفضة تُرى بوضوح بالرغم من دخان التبغ، كان الزبائن أغلبهم من البحارة ويتحدثون بصوتٍ عالٍ لدرجة أننى توقفت عند الباب خائفاً أن أدخل عليهم.

بينما كنت أنتظر، خرج رجل من حجرة جانبية وفى لمح البصر تأكدت أنه لونج جون سيلفر، فساقه اليسرى كانت مقطوعة من عند وركه وكان يستند على عكاز تحت كتفه الأيسر، يمكنه من التحرك ببراعة ويقفز مثل طائر، كان طويلاً وقويا وبوجه ضخم مثل الخنزير الشاحب، لكنه كان ذكيا ومبتسماً ويبدو فى أحسن حالاته المعنوية ويصفر حين يتحرك بين المقاعد ويقول كلمات مرحة ويطرق على كتف الأكثر محبة له من الضيوف.

والآن أقول لكم الحقيقة، فحين رأيت لونج جون سيلفر لأول وهلة فى خطاب تريلونى، صرت أخاف منه فى عقلى، فاحتمال أن يكون هو نفسه البحار صاحب القدم الواحدة الذى انتظرت قدومه طويلاً فى فندق الأدميرال بنبو القديم، لكن تكفى نظرة

واحدة للرجل للتأكد، فقد رأيت الكابتن والكلب الأسود والرجل الأعمى بو وأعتقد أننى أعرف ما يكون عليه القرصان، بالطبع هو مخلوق مختلف - طبقًا لى - عن الإقطاعى صاحب الأرض وصاحب المزاج العالى السعيد والمنمق.

استجمعت شجاعتى فى الحال وعبرت عتبة المحل وتوجهت مباشرة إلى الرجل حيث يقف مستندًا على عكازه ويتحدث إلى أحد الزبائن، سألته وأنا أمسك الرسالة:

- أنت مستر سيلفر يا سيدى؟!

قال لى:

- نعم أيها الفتى، هو اسمى بالتأكيد، ومن أنت إذن؟!

وشاهد خطاب الإقطاعى تريلونى وشعرت أنه يريد أن يفعل شيئًا وقال بصوت عالٍ قليلاً ومد يده:

- نعم.. أنت مساعد الكابتن الجديد، سعيد أن أراك.

وصافحنى بحماس وثبات بعد أن أخذ يدى فى يده، ثم وقف أحد الزبائن فجأة فى الجانب البعيد من الحانة واتجه ناحية الباب، اقترب من سيلفر ثم خرج للشارع فى لحظة، لكن سرعته قد جذبت اهتمامى، لقد تعرفت عليه فى لمح البصر، إنه الرجل صاحب الوجه المشحم الفاقد لإصبعين والذى جاء من قبل إلى فندق الأدميرال بنبو، صرخت:

- آه.. أوقفوه.. إنه الكلب الأسود!

صرخ سيلفر:

- إنه لم يدفع حسابه، من هذا، ضاعت الجنيهات، هارى، أسرع وراءه وأقبض عليه.

قفز أحد الزبائن الذى كان بجوار الباب مسرعًا وبدأ يطارده، صرخ سيلفر بعد أن ترك يدى قائلاً:

- لو كان الأدميرال هوك نفسه، سيدفع حسابه.

قلت:

- من يكون؟!

- الكلب الأسود يا سيدى، لم يقل لك السيد تريلونى عن القراصنة، إنه واحد منهم.

صرخ سيلفر قائلاً:

- لذلك.. هو فى حانتى!! بن، اجر وراءه وساعد هارى، أهو أحد الملاحين؟! هل شربت معه يا مورجان.. تعال هنا.

كان مورجان رجلاً عجوزاً، أشيب الشعر، بحاراً له وجه ماهوجنى(*)، جاء إليه بسرعة وخجل وكان يمضغ شيئًا، قال له بصرامة:

- والآن يا مورجان، لم تضع عينيك قط على هذا الأسود، الكلب الأسود من قبل، أليس ذلك؟!

قال مورجان بترحيب:

- لا يا سيدى.

سأله سيلفر:

- ألا تعرف اسمه؟!

قال مورجان:

- لا يا سيدى.

قال له سيلفر:

- اسمع يا مورجان، لو أنك اختلطت مع هذا الرجل بعد ذلك، لن نقدم لك طعاماً فى حانتنا بعد ذلك، يجب أن تلتزم بذلك وأن تقول لنا ماذا كان يقول لك وهذا أحسن لك.

(*) لون بنى ضارب إلى الحمرة.

قال مورجان:

- أنا لا أعرفه جيداً يا سيدى.

- كيف؟! ألا تحمل رأساً فوق كتفك تستطيع أن تميز بها، هل فقدت رؤيتك للناس يا مورجان.. ألا تعرفه فعلاً.. أمتأكد من ذلك؟! ربما لم تكن تعرف مع من تتحدث، ربما، تعال الآن، تُرى فيما كان يتحدث معك، عن رحلات السفن، قل عن ماذا يتحدث معك؟!

قال مورجان:

- كنا نتحدث عن عقاب سحل أحد الأشخاص تحت سطح السفينة.

- سحل رجل تحت سطح السفينة؟ وهل ذلك شيء مناسب؟! وهل اقتنعت بما يقول؟! هيا ارجع مكانك عند الملاح يا توم مورجان.

وبينما يعود مورجان ثانية إلى مقعده، أضاف لى سيلفر فى همس صامت أن مورجان شخص مجامل ومداهن جدا بينما أعتقد أنه شخص أمين لكنه غبى فقط، ثم استمر فى الصياح بصوت عال:

- دعونا نرى الكلب الأسود!!

لا، لا أعرف الاسم، ليس أنا، ومع ذلك أعتقد أننى رأيته، نعم، رأيت هذا الفظ، اعتاد أن يأتى هنا مع الشحاذ الأعمى، نعم اعتاد.

قلت له:

- هل يفعل ذلك، أأنت متأكد، أنا أعرف هذا الرجل الأعمى، اسمه "بو".

قال سيلفر ثائراً:

- إنه هو!! بو! هذا اسمه بالتأكيد، يبدو كالوحش، هو كذلك، فلو طاردنا هذا الكلب الأسود، أعتقد أننا سيكون لدينا معلومات للكابتن تريلونى، "بن" عداء جيد لعله يقبض عليه، وبعض البحارة أيضاً أفضل من "بن" يجب أن يطاردوه ويقبضوا عليه بالقوة، لقد تحدث عن السحل تحت السفينة وأنا سوف أجرجره تحتها.

وظل طوال الوقت ينخع بهذه الكلمات ويربك الحانة بعكازه ويضرب الموائد بيده ويقدم عرضًا من الإثارة لإقناعنا وكأنه القاضى العجوز بيلى(*) أو أعداء شارع بو، لقد ثارت شكوكى مرة أخرى حين وجدت الكلب الأسود عند الحانة، راقبت الطباخ عن قرب، لكنه كان أكثر حيطة وعمقًا وجاهزًا دائمًا ونشيطًا جيدا بالنسبة لى، وبعد فترة جاء رجلان مقطوعا النفس واعترفا أنهما فقدا أثره واختفى فى الزحام، فعنفهما سيلفر كاللصوص ولم أستطع إلا أن أصدق براءة سيلفر بشكل مؤقت.

قال سيلفر:

- أرأيت ما حدث يا جو؟! يوجد تعاطف كبير على رجل مثلى كان قبطانًا، تُرى ماذا سيقول ويعتقد تريلونى؟ فقد كان فى بيتى رجل هولندى لعين، يجلس يحتسى شراب الروم، لقد جئت وأخبرتنى بذلك بكل وضوح، سوف أطلب منه أن يسامحنا على تلك الهفوة قبل أن نصعد إلى السفينة، والآن يا هوكنز، ستكون معى عادلاً مع الكابتن، أنت غلام جيد فعلاً، أنت إنسان ذكى مثل الحياة، سأتذكر دائمًا أول مرة جئت فيها إلىّ هنا، والآن ماذا سأفعل بهذا الضلع الخشبى القديم من أضلاع المركب، إننى أعرج عليه، فعندما كنت ملاحًا فى البداية، كنت أقف بجوار الربان دائمًا وأمسك بيده وأقترب منه بسرعة جدا، كنت أفعل ذلك، أما الآن..

وبعد لحظة وفجأة توقف وتدلى فمه وكأنه يتذكر شيئًا ما وصاح بأعلى صوته:

- الحساب.

و دعا الثلاثة إلى شرب الروم فى الحانة، لماذا ترتعد أضلاعى حين أتذكر دفع الحساب؟!

ثم سقط على الطاولة، كان يضحك حتى تساقطت دموعه على خديه وضحكنا ثانية معًا وزاد الضحك أكثر حتى حذرنا من الحانة.

قال وهو يمسح دموعه:

- أنا لا أستطيع مقاومة الذهاب معكم.

(*) أحد أعضاء شرطة لندن التى أسست عام ١٧٥٠ ووجدت فى محكمة شارع بو.

وأضاف أخيراً:

- لماذا.. يالى من عجل بحر قديم قدير، أنا ذلك!!

ثم مسح خديه وأكمل:

- أنا وأنت سنكونان على حافة البئر يا جيم، وسوف آخذ معى صندوقى الذى ستضعوننى فيه حين أموت، سأكون فى منزلة غلام السفينة وأنا الذى كنت ربانًا، لكن تعال الآن وأجهز حتى نذهب، سأرتدى قبعتى وأذهب معك مباشرة للسيد تريلونى وسوف أكتب له تقريراً عن الحالة وتذكر أن الأمر جد خطير، أيها الصغير جيم هوكنز، فلا أنا ولا أنت سنبعد عن الموضوع حتى بما حاولنا أن نفعله من جرأة لكى نكسب الثقة، لا أنا ولا أنت سنقول شيئًا عن الموضوع، فلا أحد منا لديه المقدرة، لكن ثق بى وهذا أمر جيد بشأن رصيدى عنده.

وبدأ يضحك مرة ثانية من قلبه لدرجة أننى اعتقدت أنه قال نكتة لما أسمعها وبدأت أسايره فى مرحه وأثناء سيرنا عبر الأرصفة، جعل من نفسه زميلاً شيقًا ومسليا، حدثنى عن السفن المختلفة التى نمر بها وعن أشرعتها وحمولتها بالطن وجنسيتها وشرح لى العمل الذى يتطلع إليه، وكيف تفرغ السفينة حمولتها وتحميل أخرى بالبضائع وكيف تكون جاهزة بعد ذلك لرحلتها ومن وقت لآخر يحكى لى حكايات نادرة عن الفن والبحارة ويكرر عبارات متعلقة بالبحارة حتى تعلمتها بشكل رائع، بدأت أرى أنه سيكون واحداً من زملاء السفينة المحتملين.

وعندما وصلنا إلى الحانة، كان الإقطاعى تريلونى والدكتور ليفزى يجلسان معًا وقد انتهيا من ربع بيرة وبعض اللحم المقدد قبل الذهاب على المركب من أجل رحلة الأمل والبحث عن الكنز، وبدأ لونج جون سيلفر القصة من البداية حتى النهاية وبإحساس عال وحقيقة كاملة وكان دائمًا يقول من وقت لآخر:

- وذلك هو الذى حدث بالضبط، أليس كذلك يا جيم.

وكنت دائمًا أتحمله فيما يقول، وندم السيدان كثيراً لهروب الكلب الأسود بعيداً ولكننا جميعًا اتفقنا أنه لا داعى لأن يحدث ذلك وبعد أن جامل السيدان سيلفر، أخذ عكازه ورحل وصاح الإقطاعى تريلونى بعده:

- كل المساعدين سيرحلون للخارج قبل الرابعة ظهراً.

ثم صاح الطباخ وهو فى الممر قائلاً:

- نعم يا سيدى.

وقال الدكتور ليفزى:

- نعم، تريلونى، وإن كنت لا أضع أملاً كبيرًا على اكتشافك بصفة عامة لكن أقول لك: إن جون سيلفر يناسبنى.

وأعلن الإقطاعى تريلونى قائلاً:

- الرجل شخص مناسب!!

وأضاف الدكتور:

- والآن احتمال أن يأتى جيم معنا واحتمال لا.

قال تريلونى:

- سيأتى بالتأكيد، خذ قبعتك يا جيم وسوف نتفقد السفينة.

٩- الأسلحة والذخيرة

استقرت السفينة بعيداً إلى حد ما، ذهبنا إلى مقدمتها وحول مؤخرات بعض السفن، كانت كابلات تلك السفن تنتشر أحياناً تحت سفينتنا وأحياناً تتأرجح فوقنا، وأخيراً صرنا بجوار بعضنا وقابلنا أحد الزملاء وحيانا على ظهر السفينة، كان "أرو" وهو بحار عجوز غامق اللون يرتدى حلقًا فى أذنيه وبه بعض الحول، كان والإقطاعى تريلونى صديقين جدا ولكنى لاحظت أن تلك الصداقة لم تكن موجودة بين تريلونى والكابتن.

كان الأخير رجلاً حاد النظرة، يبدو غاضباً من كل شيء على ظهر السفينة وكثيراً ما يقول لماذا، خاصة حين ننزل بصعوبة إلى الكابينة ويتبعنا بحار، قال:

- الكابتن سموليت يا سيدى، قليلاً ما سيتحدث معك.

رد الإقطاعى تريلونى قائلاً:

- أنا دائمًا سأكون تحت أمر الكابتن فى أى شيء يريده.

دخل الكابتن سموليت الذى كان قريباً جداً من رسوله وأغلق الباب وراءه.

- حسنًا كابتن سموليت، ماذا تقول فيما أعددنا، كل شيء تمام، آمل ذلك، كل ما نحتاجه فى الرحلة..

قال الكابتن:

- حسنًا يا سيدى، الأحسن أن نتحدث بوضوح، حتى مع تلك المخاطرة بهذا الهجوم لا أحب تلك الرحلة البحرية ولا أفضل هؤلاء الرجال والضابط الأول للسفينة، إنه قصير ورخيم.

تساءل الإقطاعى تريلونى قائلاً:

– ربما لا تحب تلك السفينة يا سيدى كما أرى.

قال الكابتن:

– لا أستطيع أن أقول ذلك يا سيدى فلم أرها وهى تبحر، فهى تبدو مركبة ماهرة أكثر مما قلت.

قال تريلونى:

– وربما لا تحب صاحبها أيضًا يا سيدى.

وعند تلك النقطة تدخل الدكتور ليفزى قائلاً:

– انتظر لحظة، استخدام الأسئلة بتلك الطريقة يؤدى إلى مشاعر سيئة، الكابتن قال كلامًا كثيرًا أو قليلاً، أنا مضطر أن أسأل عن معنى بعض الكلمات، لقد قلت أنك لا تحب الرحلة.. لماذا؟

قال الكابتن:

– لقد كنت مشغولاً يا سيدى بما يسمى الأوامر الحاسمة لإبحار السفينة واكتشفت أن كل واحد فى السفينة يعرف عنها أكثر منى، لم أضع يدى على كل شىء فى السفينة، فهل هذا يعقل؟!

رد الدكتور ليفزى قائلاً:

– لا.. لم أفعل.

وأضاف الكابتن:

– وبعد ذلك عرفت أننا سنبحر وراء الكنز، سمعت عنه من بعض المعاونين لى، هل تصدق ذلك؟ وأرى أن البحث عن الكنز شىء حساس جدًا، أنا لا أحب رحلات البحث عن الكنز على أى حال وخاصة حين يكون الأمر سرًا وبالرغم من ذلك يعرف أمره الجميع، حتى الببغاوات تعرفه، أرجو أن تسامحنى يا سيد تريلونى.

سأله تريلونى:

– ببغاء سيلفر؟!

قال الكابتن:

– لا.. إنه تعبير يشير أن الجميع يعرفون الأمر، أعتقد أن لا أحد من الشباب يعرف إلى أى مكان نسير، لكنى سوف أخبركم طريقتى للوصول لذلك، إنها مسألة حياة أو موت.

أجاب الدكتور ليفزى:

– هذا واضح جدا، وأؤكد أنه حقيقى بشكل كاف وسوف نقوم بالمخاطرة ولكننا لا نجهل أنك لا تصدقنا وقد قلت أنك لا تريد طاقم السفينة، أليسوا بحارة جيدين؟!

استدار الكابتن سموليت وقال:

– أنا لا أريدهم يا سيدى وأعتقد أننى يجب أن أختار المساعدين لى لو أنتم قررتم الرحلة.

أجاب الدكتور ليفزى:

– أعتقد ذلك وربما يأخذك صديقى معه والمشكلة أن يكون هناك شىء غير مقصود، ألا تحب السيد أرو؟!

قال الكابتن سموليت:

– بل أحبه يا سيدى وأعتقد أنه بحار جيد، لكنه ضابط متساهل جدا مع طاقمه وزميلى فى المسئولية يجب أن يحفظ نفسه بعيداً عن مرؤوسيه ويجب ألا يشرب مع رجاله فى السفينة.

صرخ تريلونى قائلاً:

– هل تقصد أنه يشرب الخمر؟!

قال الكابتن سموليت:

– لا يا سيدى.. أقصد أنه مألوف جدا ومتساهل جدا.

سأل الدكتور:

- والآن نريد أن نعرف أصل الموضوع، ماذا تريد يا كابتن؟

قال الكابتن سموليت:

- حسنًا يا سادة.. هل قررتم أن تبحروا على هذه السفينة؟

أجاب تريلونى:

- بكل تأكيد.

قال الكابتن:

- رائع جدا، استمعتم لى بصبر وقد قلت أشياء لم أثبتها بعد، أرجو أن تسمعنى قليلاً، إنهم يضعون الأسلحة والبارود فى المخزن الأمامى للسفينة ولديك مكان جيد جدا تحت الكابينة ولماذا لم تضعهم هناك؟ وتلك هى النقطة الأولى، وأحضرت أربعة من ناسك معك وأخبرنى بعض منهم أنهم تم تسكينهم فى الأمام، لماذا لم تعطهم حجرات هنا بجوار الكابينة وتلك هى النقطة الثانية.

سأل السيد تريلونى:

- هل تريد إضافة المزيد؟

قال الكابتن:

- شىء آخر، توجد ثرثرة كبيرة جدا فعلاً.

أجاب الدكتور:

- كثيرة جدا.

استمر الدكتور سموليت قائلاً:

- سأقول لك ما سمعته بنفسى، أنت تمتلك خريطة للجزيرة، توجد بعض الصلبان على تلك الخريطة تشير إلى وجود الكنز وموقع الجزيرة، وحُدد أين تكون من خلال خطوط الطول والعرض.

صرخ تريلونى قائلاً:

- لم أقل ذلك لأى أحد.

استدار الكابتن سموليت قائلاً:

- أنت الذى قلت يا دكتور ليفزى أو جيم هوكنز.

أجاب الدكتور ليفزى قائلاً:

- لا يهم من يكون قد قال.

وأحسست أن لا هو ولا الكابتن أعطى أى اهتمام كبير لاعتراضات واحتجاجات تريلونى، وأنا لم أفعل ولم أخبر أحداً. أنا متأكد من ذلك، فالسيد تريلونى نفسه رجل منفلت اللسان وبالرغم من ذلك أعتقد أنه صح فعلاً وأن لا أحد قد أخبر شيئًا عن موقف الجزيرة، استمر الكابتن قائلاً:

- حسنًا يا سادة، أنا لا أعرف من يمتلك هذه الخريطة ولكنى أؤكد على هذه النقطة وهى يجب أن يكون الأمر سرا حتى عنى وعن أرو وإلا سأطلب منك أن أستقيل.

قال الدكتور:

- لقد فهمتك، أنت تريد أن تجعل الأمر سريا ولا يعرفه أحد، تريد أن تجعل حصنًا فى مؤخرة السفينة، مزود بالرجال من أصدقائنا المخلصين ومزود بالأسلحة والذخيرة على السفينة، باختصار أنت تخاف من تمرد البحارة.

قال الكابتن سموليت:

- سيدى.. لا توجد أى نية للإساءة، أنا أرفض أن تضع بعض الكلمات على لسانى، فالكابتن لن يبرئ من الإثم فى الذهاب إلى البحر على الإطلاق لو لم يكن لديه أرضية لقول ذلك، وبالنسبة للسيد أرو أعتقد أنه شخص أمين جداً وبعض الرجال مثله تمامًا وهذا ما أعرفه ولكنى مسئول عن أمان السفينة وحياة كل شخص عن ظهرها، أرى أن هناك بعض الأشياء تسير بشكل ليس على ما يرام وأسألك أن تأخذ بعض التحذيرات أو تدعنى أترك مكانى وهذا كل شىء.

بدأ الدكتور بابتسامة قائلاً:

– كابتن سموليت، هل سمعت عن خرافة الجبل والفأر؟ أرجو أن تسامحنى وأنا أقول لك ذلك، لكنك ستذكرنى بالخرافة، فعندما دخلت هنا راهنت بباروكتى، هل تقصد أكثر من ذلك.

قال الكابتن:

– دكتور.. أنت شخص ذكى، فعندما دخلت إلى هنا، قصدت أن أكون مبرئ الذمة وليس لدى فكرة أن السيد تريلونى سوف يسمع لى كلمة واحدة.

صرخ تريلونى قائلاً:

– ليس أكثر مما أريد وإذا لم يكن الدكتور ليفزى هنا، كنت سأراك غاضبًا ومتشاجراً، على أى حال، لقد سمعتك وسوف أحقق لك ما تريد.

قال الكابتن سموليت:

– كما تحب وتسمح به يا سيدى وسوف تجد أننى سأقوم بكل واجبى.

وعند ذلك انصرف الكابتن سموليت، قال الدكتور ليفزى معلقًا على ماحدث:

– تريلونى، هذا الرجل عكس كل تصوراتى، أعتقد أنك اجتهدت كى تجد رجلين أمينين على ظهر السفينة معك، هذا الرجل وجون سيلفر.

صرخ تريلونى قائلاً:

– سيلفر، كما كنت تريد وتحب، أما هذا الدجال غير المحتمل، أعلن وأعتقد أن طريقته فى التعامل غير إنسانية ولا علاقة لها بأصول البحر كما أن إنجليزيته منحطة.

قال الدكتور ليفزى:

– حسنًا.. سنرى يا تريلونى.

حين صعدنا على ظهر السفينة، بدأ الرجال فعلاً فى إخراج السلاح والذخيرة وانشغلوا فى أعمالهم بجد، بينما الكابتن والسيد أرو يراقبان ما يتم، كانت الترتيبات الجديدة ملائمة لما أحب، فقد تم فحص السفينة بعناية كبيرة وتم إعداد ست حجرات

فى مؤخرتها وبعيداً عن المخزن الأمامى الرئيسى وتم ربط هذه المجموعة من الكابئن بالمطبخ الرئيسى للسفينة والحصن الأمامى عن طريق ممر احتياطى مطل على جانب الميناء وخصص ذلك أساساً للكابتن والسيد أرو وهنتر وجويس والدكتور والإقطاعى تريلونى، وسكنوا الغرف الستة، حصل ردروث وأنا على اثنين منهم وكان السيد أرو والكابتن نائمين على دكة تحت غطاء السفينة الذى يتسع فى كل جانب وكأنه بيت دائرى حيث كان منخفضاً جداً ويكفى بالطبع لأرجحة أرجوحتين، رأيت زميلى سعيداً بتلك الترتيبات وإن كان مشكوكا فيه كما كنت أخمن- من طاقم السفينة كما سنسمع- ولم يعد يستفاد من رأيه أبداً، كنا جميعًا فى عمل شاق وجاد وقمنا بتغيير مكان البارود والحجرات، وحين انتهى آخر رجل أو رجلين وكان معهم لونج جون ورجل فى قارب شاطئ، صعد الطباخ إلى جانب السفينة مثل قرد يتقافز وبمجرد أن رأى ما حدث قال:

- ما هذا أيها الزملاء؟!

أجاب أحد الرجلين قائلاً:

- نحن نغير مكان الذخيرة يا جاك.

صرخ لونج جون قائلاً:

- لماذا؟ لو فعلنا ذلك سوف نفقد المد الصباحى.

قال الكابتن سموليت باختصار:

- أوامرى، يجب أن تذهب للمطبخ أيها الرجل، فالرجال فى حاجة للعشاء.

أجاب الطباخ قائلاً:

- حاضر يا سيدى.

ولمس مقدمة شعر رأسه، واختفى فى الحال تجاه مطبخه، قال الدكتور:

- هذا رجل جيد يا كابتن.

أجاب الكابتن سموليت قائلاً:

- فعلاً.. تعامل الرجال الحسن يفعل الكثير.

وانطلق إلى الرجال الذين كانوا ينقلون الذخيرة، وفجأة فحص آلة المرود الدوارة التى حملناها إلى وسط السفينة، صرخ قائلاً:

– هيا يا فتى السفينة، اخرج من هنا واذهب إلى المطبخ وساعد فى بعض الأعمال.

وأثناء هرولتى إلى هناك، سمعته يقول بصوت عال إلى حد ما إلى الدكتور:

– ليس لدى أحد مفضل على السفينة.

أؤكد لكم أننى كنت متأكداً من طريقة تفكير الإقطاعى تريلونى لكنى كرهت الكابتن بعمق.

١٠- الرحلة البحرية

طوال تلك الليلة كنا فى نشاط صاخب كبير للحصول على الأشياء المُخزنة فى أماكنها، وجاءت قوارب ممتلئة بأصدقاء تريلونى مثل السيد بلاندلى والمحبين له لكى يودعوه ويتمنوا له رحلة سعيدة وعودة آمنة، لم أر ليلة مثل تلك الليلة فى فندق الأدميرال بنبو حين كنت أقوم بأداء نصف العمل تقريبًا، كنت متعبًا جدا وظللنا نعمل حتى قبيل الفجر بقليل، أطلق الربان صفارته من نفيره وبدأ طاقم السفينة فى تزويد الونش بالرجال لرفع الهلب والأشرعة الثقيلة، كنت مرهقًا جدا، وبالرغم من ذلك لم أغادر سطح السفينة، كل شىء كان جديدًا ومدهشًا بالنسبة لى، الأوامر المختصرة، الصيحات من الصفارة، الرجال النشطاء الذين يذهبون إلى أماكنهم فى لمح البصر، صرخ أحد الأصوات:

- الآن، حفلة الشواء، جهزوا لنا الحطب.

صرخ آخر:

- الواحدة القديمة.

قال لونج جون الذى كان واقفًا على عكازه الذى كان تحت ذراعيه:

- نعم أيها الزملاء.

وفى الحال أشعل الهواء وبدأ فى غناء الأغنية التى كنت أسمعها:

- خمسة عشر رجلاً على التابوت.

وبدأ الطاقم كله يردد:

- يو، هو، هو وزجاجة من شراب الروم.

وقبل "هو" الثالثة قاد الفواصل الموسيقية قبلهم بإرادة وتصميم، وحملتنى تلك اللحظة المثيرة أن أعود بذاكرتى إلى فندق الأدميرال بنبو فى ثانية وتخيلت أننى أسمع الكابتن يرتفع صوته مع الكورس، وفى تلك اللحظة بدأت المرساة تسحب، وبدأ المجدافان الأماميان يتدليان وبدأت الأشرعة تفرد، وبدأت السفينة تتحرك ببطء على الجانب الآخر وتختفى الأرض وراءها، واستطعت فى تلك الظروف أن أخطف ساعة من النوم فى القيلولة قبل أن تبدأ السفينة هيسبنيولا رحلتها إلى جزيرة الكنز.

لن أروى لكم كل تفاصيل تلك الرحلة البحرية، لقد كانت رحلة مزدهرة وأثبتت السفينة أنها سفينة جيدة، وقد كان طاقم السفينة بحارة قادرين وقد كان الكابتن يفهم عمله جيداً، وقبل أن تظهر جزيرة الكنز، حدث شيئان أو ثلاثة أشياء تتطلب أن تُعرف.

فى البداية صار السيد أرو أسوأ مما كان يخشى الكابتن، فلم يعد له سيطرة بين الرجال ويفعلون به ما يريدون، وكان ذلك أسوأ ما فيه، فبعد يوم أو اثنين من إبحارنا بدأ يظهر على سطح السفينة زائغ العينين وأحمر الخدين ومتلعثم اللسان وعليه علامات السكر، ومع مرور الوقت بدأ يُؤمر فى خزى أن يكف عن ذلك، وكان أحياناً يسقط ويصيب نفسه وأحياناً كان يقضى النهار كله فى سريره الصغير فى أحد جوانب أدراج السفينة وأحياناً يصبح هادئاً و راضياً لمدة يوم أو يومين ويقوم بعمله كما يجب أن يكون.

وأثناء ذلك لم نكن نعرف من أين يحصل على الشراب وكان ذلك حكاية السفينة الأسطورية، كنا نراقبه كلما يسمح الأمر بذلك، لم نكن نفعل شيئاً لحل تلك المشكلة، وعندما نطلب منه أن يتوقف كان يضحك فقط إذا كان متناولاً للشراب وإذا كان هادئاً ورصيناً يفكر تماماً أنه لا يشرب إلا الماء.

لم يكن السيد أرو بلا فائدة فقط، وله تأثير سيئ وسط البحارة والرجال، ولكن من الواضح أنه سيقتل نفسه بشكل صريح، لذا لم يكن أحد مندهشاً ولم يكن حزيناً حين اختفى بشكل تام ولم يعد بعدها أبداً، قال الكابتن:

– حسناً أيها الرجال، رجل تائه وهذا أنقذنا من مشكلة حبسه.

وبالرغم من وجودنا هناك وبدون زميل كان من الضروري وبالطبع أن نقدم أحد الرجال، كان جون أندرسون الربان الكبير وأكثر الرجال محبة على ظهر السفينة بالرغم من احتفاظه بلقبه القديم للربان الكبير فإنه كان يخدم الكل وكأنه زميل للجميع ومساوٍ لهم، كان السيد تريلوني يتابع البحر و جعلته معرفته وعلمه مفيد جدا وكان عادة ما يختلي بنفسه ساعة الطقس الجيد، وكان الربان أسرائيل هانذر المسئول عن قارب السفينة وكان حريصًا جدا ومراوغا ولديه خبرة بحار عجوز موثوق فيه يمسك كل شيء في قبضة يده، كان عظيم الثقة في جون سيلفر، ولذا مجرد اسمه يقودني أن أتكلم عن طباخ سفينتنا "باربكيو" كما يحلو أن يسميه الرجال.

على متن السفينة، كان يحمل سلفر عكازه بواسطة حبل قصير حول رقبته لكي يجعل يده حرة قدر الإمكان، كان يدق بأقدام العكاز ضد الحاجز الذي يقسم السفينة إلى حجرات، يصعد بطبيخه وطعامه مثل شخص آمن على الشاطئ، كان شيئًا غريبًا جدا أن تراه في أقصى حالات الطقس وأثقلها وهو يعبر السفينة. كان لديه طريقة وجهازان يساعدونه للعبور إلى الأماكن الأوسع، كان يساعد نفسه بيده من مكان لآخر، والآن يستخدم العكاز ويجرجره بجانبه بواسطة الحبل، يتحرك بسرعة وكأنه رجل عادي يستطيع المشي، وبالرغم من أن بعض الرجال الذين أبحروا معه قبلاً عبروا عن شفقتهم لرؤيته فإنهم الآن صاروا أقل عن ذي قبل.

قال لي كبير الربان جون أندرسون: باربكيو "سيلفر" ليس رجلاً عاديا، وإنه تلقى تعليمًا جيدًا في بداية حياته لما كان شابًا ويتحدث في الكتاب المقدس حين يكون حاضر الذهن وشجاعًا مثل أسد لأحد بجواره، لقد رأيته يصارع ويدك رؤوسهم في بعض الأحيان ولم يكن مسلحًا.

يحترمه كل طاقم السفينة ويطيعونه ولديه طريقة للتعامل مع كل واحد ويفعل لكل واحد خدمة خاصة، كان بالنسبة لي طيبًا ويبدو سعيدًا حين يراني في المطبخ الذي يحافظ عليه نظيفًا وكأنه قطعة بروش جديدة حيث الأطباق المعلقة اللامعة جدا وببغاؤه الذي في قفصه في أحد الأركان:

كان يقول لى: تعال يا هوكنز، تعال وتجاذب الحديث مع ببغائى.، لا أجد أحدًا مُرحبًا به هنا إلا أنت يا بنى، اجلس واسمع إلى بعض الأخبار، هنا الكابتن فلنت، إنه اسم ببغائى، الكابتن فلنت على اسم القرصان الشهير، هنا الكابتن فلنت يتنبأ بنجاح رحلتنا، أليس كذلك يا كابتن؟



كان بالنسبة لى طيبًا جدا وسعيد دائمًا لرؤيتى فى الصالة

وكان الببغاء يكرر بسرعة كبيرة

- قطع الثمانى.. قطع الثمانى(*)!!

وكان يزيد فى تكراره بسرعة حتى تتساءل وتندهش أن ذلك ليس خارج الحجرة أو حتى يرمى له جون سيلفر منديله فوق القفص، قال سيلفر:

(*) قطع الثمانى: عملة معدنية هى قطع البيزوج القديمة التى تساوى ثمانية ريالات.

– ربما يبلغ هذا الطائر الآن ٢٠٠عامًا يا هوكنز، أحيانًا يعيش أكثر من ذلك ولو أن شخصًا ما رآه أنه أكثر خطرًا سيجده بالتأكيد الشيطان نفسه، فقد أبحر مع الكابتن إنجلند القرصان العظيم، أبحر من ميدجسكار ومن ملبار وسيرنام وبروفيدنس وبورتوبيلو، كان أثناء عملية الصيد على قوارب مسطحة محطمة وعلى متنها تعلم هذا الببغاء كلمة "قطع الثمانى" وتساؤل بسيط عن ثلاثة وخمسين ألفًا منها يا هوكنز(*) كان على متن سفينة لنائب الملك للهنود خارج مستعمرة جوا، كان صغيرًا وحين تنظر إليه سوف تعتقد أنه مولد صغير، لكنك تشم رائحة البارود.. ألا تشم تلك الرائحة يا كابتن؟!

صاح الببغاء مرددًا:

– استعدوا لكى نبدأ المسير.

قال الطباخ سيلفر:

– آه.. إنها سفينة جميلة، هى فعلاً كذلك.

ثم أعطى سيلفر الببغاء بعض السكر من جيبه وبدأ الطائر ينقر قطبان القفص الحديدى ويشم ويسب ويقسم ويعطى اعتقاداً بالخطر والشر، وأضاف الطباخ سيلفر قائلاً:

– أيها الفتى هوكنز، لن تستطيع أن تلمس القفص لأنه ملوث، إن هذا الببغاء طائر عجوز برىء يقسم بالنار الزرقاء، ولا أحد أكثر حكمة منه وربما تتفق مع ذلك أو ترفض، سوف يقسم بنفس طريقة الكلام قبل أن يتكلم القسيس الموجود فى السفينة.

بدأ جون يلمس مقدمة شعر رأسه بشكل رسمى جعلتنى أعتقد أنه بالفعل واحد من أحسن الرجال، وأثناء ذلك كان الإقطاعى تريلونى والكابتن سموليت ما زالا على نفس العلاقة السابقة من التحفظ مع بعضهما البعض، لم يصنع تريلونى أى شىء يُحسّن الأمر وما زال يحتقر الكابتن والكابتن ما زال على موقفه لا يتحدث إلا إذا تحدث معه

(*) جوا: مستعمرة برتغالية رئيسية وميناء فى جنوب غرب الهند.

وما زال حادا ومقتضبا فى حديثه وجافا ولم تخرج من فمه كلمة هباءً وحين يساق إلى إحدى أركان السفينة يرى أنه كان مخطئًا فى تصوره بشأن طاقم السفينة خاصة حين يجد بعضهم نشيطًا ومفعمًا بالحيوية كما يريد والجميع يتصرفون جيداً.

وبالنسبة للسفينة كانت كما كان يتخيل تقريبًا وتحقق خياله بالنسبة لها وسوف ترسو فى نقطة بالقرب من الاتجاه الذى يريده مثل رجل يتوقع تمامًا ما الذى سوف تفعله زوجته حين يأمرها أن تفعل شيئًا وأضاف قائلاً:

- كل ما أردت أن أقوله: إننا لسنا فى بيتنا مرة أخرى وإننى لا أحب تلك الرحلة.

وعند تلك النقطة استدار تريلونى وسار جيئة وذهابًا على سطح السفينة كى يشم بعض الهواء النقى وقال غاضبًا:

- لقد زادت تفاهة هذا الرجل وسوف أنفجر فيه.

لقد قابلنا بعض الطقس السيئ الذى كشف فعلاً الصفات الجيدة للسفينة هيسبنيولا، فكل رجل على ظهر السفينة يبدو جيد المستوى وكانوا فعلاً جادين فى أعمالهم لدرجة تسعد وإلا سيكون الأمر خطراً، وبالنسبة لوجهة نظرى، أرى أننى لم أر صحبة أو رفقة سفينة أسوأ وأنسب من تلك منذ أن وجدت سفينة نوح، فالمشروبات الروحية والخمور كانت تتواجد وتشرب دون أى عذر أو سبب، ولم يكن هناك أى عمل فى الأيام غير العادية وكان إذا سمع الإقطاعى تريلونى عن ميلاد أحد الرجال يأمر ببرميل من التفاح للرجال، ويكون مثقوبًا من الوسط ليتاح لأى واحد أن يأخذ منه ما يريد وما يتخيل، قال الكابتن للدكتور ليفزى:

- لا أرى خيراً يأتى من ذلك، وإفساد رجال مقدمة السفينة يأتى دائمًا بالشر ويصنع الشياطين، هذا ما أعتقده.

لكن الخير سيأتى من برميل التفاح كما ستسمعون بشرط ألا يكون كما قال، لم تكن هناك أى ملحوظة للتحذير من ذلك وربما يهلكون جميعًا بأيدى الخيانة وهذا سوف يأتى بعد ذلك.

أنجزنا كل الأعمال لكى نكون مستعدين لاستقبال الرياح التى ستأخذنا إلى الجزيرة بعد ذلك، لم يكن مسموحًا لى أن أكون أكثر ظهورًا وبدأنا فى المراقبة الليلية والنهارية الصارمة، كان اليوم الأخير لرحلتنا الظاهرية طبقًا لحسابتنا التقديرية الواسعة، مر بعض الوقت من هذا الليل، كان آخر وقت لرؤية القمر قبل شروق النهار، يجب أن نرى جزيرة الكنز، كنا نقود السفينة، والبحر كان هادئًا، والسفينة هيسبنيولا تتهاوى بثبات ويغطس دقلها "العمود" الذى فى مقدمة السفينة ولفحات من النسيم تداعبها.

كان الكل يهبط ويعلو وكل واحد كان فى أقصى درجات الشجاعة والمعنويات العالية لأننا كنا قريبين جدًا من نهاية الجزء الأول للرحلة.

بعد غروب الشمس كنت انتهيت من كل أعمالى وكنت فى طريقى إلى حجرتى، وحدث أننى أحببت أن آكل تفاحة، تحركت على ظهر السفينة، كانت المراقبة تتطلع فقط صوب الجزيرة، والرجل الذى كان على الدفة يراقب الإبحار فى اتجاه الريح الشراع ويصفر برفق لنفسه وكان ذلك الصوت الوحيد الموجود، باستثناء هسيس البحر فى مقابل المجدافين الأماميين وحول جوانب السفينة.

نزلت إلى برميل التفاح فلم أجد غير واحدة فقط متبقية، هبطت إلى أسفل البرميل فى الظلام الدامس، سمعت حولى صوت ماء البحر وحركة السفينة، لم أكد أسقط نائمًا حتى سمعت حركة لرجل ثقيل استند على البرميل محدثًا تصادمًا قريبًا عندما اتكأ بكتفه عليه، كنت على وشك القفز حين بدأ الرجل يتحدث، كان صوت سيلفر، وقبل أن أستمع إلى بعض الجمل قررت ألا يرانى أحد وأن أبقى فى مكانى وظللت فى مكانى أرتعش وأستمتع بفضول وأنا فى قمة خوفى، ومن خلال الكلام الذى سمعته تأكد لى أن حياة كل الرجال الأمناء على ظهر السفينة سوف تعتمد علىّ بمفردى.

١١- ما سمعته في برميل التفاح

قال سيلفر:

- لا.. لست أنا، فلنت كان هو الكابتن، كنت مجرد ضابط صغير على السفينة بساق خشبية وكما فقدت ساقي فقد العجوز "بو" مناور شرفات السفينة الخاصة به التي تجلب له الضوء، لقد كان جراحًا عظيمًا ورائدًا، فهو الذي بتر ساقي رغم أنه لم يكن جامعيا لكنه كان جيدًا وعلى قدر عال من الكفاءة، وبالرغم من ذلك فقد شنق مثل كلب واختفى مثل الباقين في قلعة كورسو، إنهم رجال روبرت الذين يغيرون أسماء سفنهم مثل الخاصية الملكية.

يا لها من سفينة تم تعميدها وتسميتها، فكانت تسمى كاسندرا وهي التي أحضرتنا بأمان إلى وطننا من مالبار بعذ أن تولى أنجليد نائب الملك، لذا كان مع سفينة "وليرس" العجوز سفينة فلنت، ولقد رأيت حالة سعار للقتال والدم من أجل أن يغرقوا في الذهب.

صرخ أحد البحارة الصغار في السفينة وكان مملوءًا بالإعجاب:

- آه.. لقد كان زهرة الرجال.. إنه فلنت!

قال سيلفر:

- لقد كان ديفيز رجلاً بمعنى الكلمة، لم أبحر أبدًا معه: كانت البداية مع أنجليد، ثم فلنت، تلك قصتي، والآن هنا على حسابي، لقد راهنت بتسع مئات من إنجلند وألفين بعد فلنت، هذا لم يكن يدفع لرجل قبل الإبحار وهنا ليس سيئًا لرجل قبل صاري السفينة، فالكل آمن في البنك، إنه لا يكسب الآن، إنه يوفر فعل ذلك، وربما نضع ذلك في البنك، أين رجال أنجلند الآن؟ أنا لا أعرف وأين أموال فلنت؟ لماذا معظم الرجال

هنا الآن؟ أنا سعيد أن أكون في عمل حقيقي، وقد كنا نتسول قبل ذلك بعضنا من بعض، كما فقد "بو" العجوز بصره ورؤيته وربما يُعيِّر ويفضح، كما أنه أنفق حوالى اثنتى عشرة مائة جنيه فى العام مثل سيد فى البرلمان، أين هو الآن؟ حسنًا، هو بالطبع ميت وتحت التراب قبل عامين من الآن، إن ذلك يرعش ساقى الخشبى، فالرجل مات من الجوع، وتسول وسرق وقُتل ومات من أجل ذلك.

قال البحار الشاب بقوة:

– ولم يعد يستخدم ذلك كثيراً.

صرخ سيلفر قائلاً:

– لم يعد يُستخدم ذلك للأغبياء فقط، من الممكن أن تراهن على ذلك، إما الكل أو لا شيء، لكن يجب أن تنظر هنا فمازلت شابا صغيراً لكنك ذكى وعرفت ذلك حين وضعت عينى عليك، لذا سأتحدث إليك كرجل.

ربما تتخيلون كيف أشعر حينما سمعت هذا الحديث القديم البغيض مرة أخرى بنفسى، كلمات النفاق كأنه استخدمها معى، أعتقد لو أستطيع، كنت قتلته من خلال البرميل وأثناء ذلك، استمر على افتراض أنه يستمع إليه.

وهذا بعض عن رجال الكنز، كانوا يعيشون حياة فظة ويخاطرون بأنفسهم بشكل شيطانى، لكنهم كانوا يأكلون ويشربون مثل الديوك المتصارعة، فحين بدأت الرحلة كان فى جيوبهم مئات الجنيهات بدلاً من مئات الأرباع من الجنيهات، ذهب الجميع الآن لأجل شراب الروم والملذات وليبحروا مرة أخرى مرتدين قمصان البحر، ولم تكن تلك الحالة التى حددتها فقط، فقد حددت كل شيء بعد ذلك، فالبعض كان هنا والبعض الآخر هناك، ولا شيء فى أى مكان آخر بسبب الشك، فقد كنت رقم ٥٠، وأحد الذين يعملون فى المؤخرة، بدأت أكون شخصية رجل رفيق، كان الوقت كافياً، نعم أقول ذلك لك، نعم، لكنى عشت بشكل سهل أثناء ذلك، لم أمنع نفسى من شيء يرغبه القلب، كنت أنام نومًا هادئًا وأتناول الطعام اللذيذ طوال أيامى، لكنى لا أعرف متى بدأ ذلك فى البحر، أو كيف بدأت؟ عند الشراع مثلك.

قال الآخر:

- حسنًا.. لكن كل النقود ذهبت الآن، أليس كذلك؟ ولن تستطيع أن ترى وجهًا في بريستول بعد ذلك.

قال سيلفر بسخرية:

- لماذا تفرض أن يكون حدث ذلك؟

أجاب الرفيق:

- في بريستول وفي البنوك وبعض الأماكن.

قال الطباخ سيلفر:

- نعم، كان ذلك عندما رفعنا المرساة لنبدأ الرحلة، لكن زوجتي العجوز امتلكت هذا كله قبل الآن، وتوقفت عن العمل واستأجرت منزلاً.

وزاد شعور الود لدى الآخرين وجهزت الملابس، وخرجت الفتاة العجوز لكي تقابلني، سأقول لك أين، فأنا أثق بك، لكن ذلك سيثير الغيرة بين الزملاء.

سأله الزميل الآخر:

- وهل تستطيع أن تثق بزوجتك؟!

عاود الطباخ قائلاً:

- أصحاب الثروة عادة ما يثقون قليلاً في أنفسهم ويكونون على صواب، وقد تتفق مع ذلك، ولكني لي طريقة ما أتعامل بها مع نفسي، وحين يأتي أي زميل بهفوة كما يعرفني البعض، لن يكون أبدًا في نفس العالم مع جون العجوز، كان يوجد بعض الزملاء الخائفين من بو، والبعض الآخر الخائفون من فلنت، لكن فلنت نفسه كان يخاف مني، وبالرغم من أنه كان خائفًا ومتكبرًا، كان أخشن وأعنف طاقم للسفينة، لقد كان فلنت الشيطان نفسه، وكان الشيطان يخشى أن يبحر معه في سفينة واحدة، والآن أقول لكم أنا لست رجلاً متكبرًا، وكما ترون كيف أتعامل بسهولة مع رفقتي، وحين كنت ضابطًا صغيرًا لم يكن الضعفاء والصغار يمثلون أهمية لقراصنة فلنت الكبار، كونوا متأكدين من أنفسكم في سفينة جون العجوز.

أجاب الفتى:

- سأخبرك الآن، أنا لم أعمل مساعد ضابط قبل هذه الوظيفة حتى تحدثت معك يا جون، لكنى عرفتها الآن وتعلمتها.

أجاب سيلفر ثم هز يديه بحميمية حتى شعرت بها داخل البرميل، وقال:

- وأصبحت شابا شجاعًا وذكيا أيضًا وعنصرا محترما لرجال الكنز لن تغفله عينى بعد ذلك.

بدأت أفهم معنى مصطلحاتهم، عرفت أنهم يقصدون برجل الثروة أو رجل الكنز إنه القرصان العام، والمشهد الصغير الذى استمتع إليه هو ببساطة الفصل الأخير لفساد أحد الرجال الأمناء، ربما يكون لآخر واحد تُرك كى يكون على ظهر السفينة، وعند هذه النقطة ارتحت، وبدأ سيلفر يصفر صفارات هادئة وخفيفة، وبدأ الرجل الثالث يتنزه ويجلس مع تلك الزمرة.

قال سيلفر:

- الشريف ديك.

عاد صوت كبير البحارة إسرائيل:

- نعم.. أعرف أن ديك شريف وأمين وليس غبيا.

وعاد لمضغ التبغ والمشاحنة قائلاً:

- لكن انظر هنا!!

واستمر قائلاً:

- هذا ما أردت أن أعرفه، عرفت المدة التى سوف نقضيها على ظهر هذه السفينة المباركة، أنا عرفت تقريبًا ما يكفى من الكابتن سموليت، هو سخر منى بدرجة كافية، والآن أريد الذهاب إلى هذه الكابينة، سأفعل، أريد بعض المخللات والخمور.

قال سيلفر:

- إسرائيل.. لا تشغل بالك الآن، لكنك قادر أن تسمع وأعتقد أنك تمتلك أذنين كبيرتين، والآن أقول لك:

- سوف تجد مضجعك فى الأمام وسوف ترتاح بجد وسوف تتحدث برقة وسوف تبقى هادئًا ومتزنًا حتى أقول لك ما أريد واحتمال أن تفعل ذلك يا بنى.

دمدم الربان إسرائيل قائلاً:

- حسنًا، أنا لم أقل لا، أليس كذلك؟ ما قلته متى، وهذا ما قلته.

صرخ سيلفر:

- متى!! بواسطة الرجال، حسنًا، والآن إذا أردت أن تعرف، سأقول لك متى، حين أستطيع أن أحدد تلك اللحظة، وهذا هو الموعد، وهنا يوجد البحار الأول المسئول عن الرحلة، إنه كابتن سموليت، الذى يقود هذه السفينة المباركة لأجلنا ومعه الإقطاعى تريلونى والدكتور ليفزى ومعهم الخريطة، التى لا أعرف أين تكون، أليس كذلك؟ ولن تفعل أكثر من ذلك وأقصد أنهم سيفعلون لنا كل شىء، سوف يجدون لنا كل الأمتعة والمؤن ويساعدوننا أن نحصل عليه على ظهر السفينة بواسطة الرجال، وساعتها سوف نرى ولو كنت متأكدًا منكم جميعًا، أبناء الهولنديين، سأجعل الكابتن سموليت يبحر بنا نصف طريق العودة قبل أن أهاجم.

قال ديك:

- لماذا؟! نحن جميعًا بحارة على ظهر السفينة هنا، أعتقد ذلك.

قال سيلفر بشكل حاد:

- نحن جميعًا رجال مقدمة السفينة، هل تقصد ذلك؟ نحن نستطيع أن ندير الدفة، لكن من الذى يفعل ذلك؟ هذا ما سيجعلكم أيها السادة تختلفون عليه فى البداية والنهاية، لو الأمر بيدى لجعلت الكابتن سموليت يعود بنا ونقوم نحن بالأعمال الأخرى وساعتها لن تكون هناك أى حسابات خاطئة تجعلنا لا نجد غير ملء ملعقة من الماء يوميا، لكنى أعرف من تكونون ومن أى نوع أنتم؟ سأنهى معهم الأمر على الجزيرة حين ينتهى عملنا البليد الكليل علىَ السفينة، أعرف أنكم لن تكونوا سعداء حتى تشربوا الخمر، أراكم تشتتون اتجاهاتى، أشعر بقلب محزون أننى أبحر مع أمثالكم.

صرخ إسرائيل قائلاً:

- كل شيء سيكون سهلاً يا جون، ومن يقدر أن يتجاوزك؟

قال سيلفر:

- لماذا؟ فكر كم من السفن الكبيرة الضخمة التى أراها الآن مستعدة، وكم من الشباب النشطاء الذين يرقدون فى الشمس وعلى استعداد للشنق من أجل الكنز والكل يتصارع نحو ذلك، هل فهمتنى، لقد رأيت شيئًا أو اثنين فى البحر، أنا رأيت ذلك، فلو أنك وضعت طريقتك وأسلوبك وحددت مهب الريح، سوف تقود سفينتك حتمًا، وسوف تفعل ذلك، لكنك لست أنت الذى يفعل، أنا أعرفك، سوف تملأ فمك غدًا بشراب الروم وتذهب كى تعتصم.

قال إسرائيل:

- نعرف أنك رجل كنائسى وتأملى يا جون، ولكن يوجد آخرون يستطيعون أن يساعدوا ويقودوا دفة السفينة مثلك ويحبون القليل من المتعة وإن لم يكونوا على درجة عالية، ولكنهم يحبون دائمًا حياة الملذات والانغماس فيها مثل الرفقاء المرحين.

قال سيلفر:

- حسنًا.. أين هم الآن؟ "بو" كان من هذا النوع، ومات مثل رجل شحاذ، وفلنت كان كذلك ومات من كثرة شراب الروم، لقد كانوا طاقمًا جيدًا، لكن أين هم الآن؟!

سأل ديك:

- ماذا تفعل بهم حين نصل إلى الجزيرة؟!

قال الطباخ بإعجاب:

- هذا هو دورى وله رجاله، ولكن ما رأيكم، وماذا تفكرون بشأنهم؟ نتركهم على الشاطئ ونبحر بدونهم وتلك هى طريقة أنجلند، أو نقطع دابرهم ونقتلهم وتلك طريقة فلنت أو بيلى بونز.

قال إسرائيل:

- بيلى هو صاحب هذا المبدأ، كان يقول دائمًا: إن الرجال الأموات لا يعضون، حسنًا، هو نفسه ميت الآن وكان يعرف كل كبيرة وصغيرة على السفينة ولو جاء أى شىء فظ إلى الميناء سيكون بالطبع بيلى.

قال سيلفر:

- كلامك صحيح، كان خشنًا وفظا، لكنه كان دائمًا مستعدا وأنا رجل سهل وجنتلمان لحد كبير كما قلت، لكن الوقت جد خطير ولا يصح إلا الصحيح يا أيها الزملاء، أنا أعطى صوتى للموت، حين أكون فى حالة اختيار لقيادة مركبتى لا أريد أحداً من محاميى البحر فى كابينة العودة للوطن، لا أبحث عنهم مثل الشيطان فى الصلوات، أنتظر ما سأقوله، وحين يأتى الوقت، لماذا نتركها منهكة تماماً.

صرخ الريان قائلاً:

- أنت رجل يا جون.

قال سيلفر:

- ستقول ذلك يا إسرائيل حين ترى ذلك، شىء واحد سوف أعلنه وأطالب به وسأطالب به تريلونى، سوف أقوم بنزع رأس فتاة الغر عن جسده بيدى هاتين يا ديك، وسوف تتفاخر ساعتها مثل فتى سعيد وجميل وستحضر لى التفاح لترطب غليونى.

ربما تتخيلون الرعب الذى أنا فيه، سوف أقفز خارج برميل وأجرى حين أجد القوة لذلك لكن أطرافى وقلبى لا يطيعوننى أبداً، سمعت ديك ينهض، ويبدو أن شخصاً ما قد أوقفه وبعض أصوات للرجال المندهشين تعلو قائلة:

- خبئ ذلك ولا ترتشف من هذا الماء الآسن يا جون، دعنا نذهب إلى شراب الروم.

قال سيلفر:

- ديك، أنا واثق بك، معى مقياس للبرميل الصغير، تذكر، يوجد مفتاح وسوف تجد كوبًا معدنيا صغيراً أحضره.

كنت مرعوبًا جدا، لم أستطع أن أقاوم التفكير، كيف يحصل السيد أرو على هذه الخمر القوى الذى ربما يدمره، ذهب ديك وبعد برهة وأثناء غيابه تحدث إسرائيل مباشرة فى أذن الطباخ، كانت كلمة أو اثنتين استطعت أن أسمعهما، ومع ذلك جمعت عدة أخبار مهمة، وبعض القصاصات التى تصب فى نفس الموضوع، فالجملة كانت مسموعة بالنسبة لى وعرفت أن لا أحد من الرجال سوف ينضم إليهم ومن ثم عرفت أن على السفينة بعض الرجال المخلصين.

حين عاد "ديك" ثانية، بدأ واحد بعد الآخر من الثلاثى يشرب الروم ويقول:

– فى صحتك!!

ويقول الآخر:

– فى صحة فلنت العجوز.

وقال سيلفر بطريقة غنائية:

– فى صحتنا، هيا أبحروا نحو الريح، حيث الجوائز الوفيرة ومزيد من الحلوى.

وبعد ذلك، غطانى شعاع لامع وأنا فى البرميل فنظرت لأعلى فوجدت القمر قد أشرق، وملأ الأفق بضوء فضى، وشعاع أبيض على الشراع الأمامى للإبحار وسمعت صوتًا يصيح قائلاً:

– الشاطئ.. الأرض.. الأرض!!

١٢- مجلس الحرب

حدث اندفاع كبير من الأقدام على سطح السفينة، سمعت البحارة يتوافدون من كبائنهم من مقدمة السفينة وينسلون فى انتظام بجوار البرميل الذى كنت بداخله، غصت أكثر خلف الشراع الأمامى وانسللت تجاه مؤخرة السفينة، ثم خرجت بعد ذلك للسطح المفتوح فى الوقت المناسب كى ألحق بهنتر والدكتور ليفزى فى اندفاعهما تجاه مجداف الريح الأمامى.

احتشد بعد ذلك كل الرجال على ظهر السفينة، كان هناك حزام من الضباب بدأ ينقشع بالتدريج لحظة ظهور القمر، شاهدنا الطريق إلى الجنوب الغربى على مرمى جبلين منخفضين وتقريبًا على بعد ميلين، تلا ذلك شروق الشمس خلف أحدهما وكان جبلاً عاليًا ظلت قمته مدفونة فى الضباب، كان الثلاثة حادى الشكل واتخذوا شكلاً مخروطيًا.

كثيرًا ما رأيت ذلك، لكن فى أحلامى فقط، لم أتخلص من خوفى الكبير قبل دقيقة أو دقيقتين حتى سمعت صوت الكابتن سموليت يصدر أوامره، صارت السفينة هيسبنيولا على بعد نقطتين فى اتجاه الريح وأبحرت فى طريقها للجزيرة التى صارت أكثر وضوحًا فى اتجاه الشرق، قال الكابتن:

- والآن أيها الرجال.. حين كانت تعود السفينة للوطن، هل رأى أحد منكم هذه الأرض؟

قال سيلفر:

- أنا رأيتها يا سيدى، وارتويت من هناك مع أحد التجار الذى كنت معه كطباخ.

قال الكابتن:

- أتخيل أن رسو السفينة سيكون فى الجنوب خلف الجزيرة.. أليس كذلك؟

قال سيلفر:

- نعم يا سيدى، هذه هى جزيرة الهيكل العظمى كما يسمونها، إنها المكان الرئيسى للقراصنة وكل رجل على ظهر تلك السفينة يعرف كل الأسماء لها، هذا الجبل الشمالى يسمونه جبل الشراع الأمامى، يوجد ثلاثة جبال فى صف واحد فى الجنوب، ويوجد فى الجزء الأساسى الأمامى هذا الجبل الضخم الذى تحيط به السحب ويسمونه النظارة المكبرة، وبسبب تلك الرؤية يظلون فى حالة نظافة للسفينة حين يرسون هناك، معذرة يا سيدى.

قال الكابتن سيموليت:

- معى خريطة، انظر إذا كان هذا هو المكان.

اخترقت عينا لونج جون حين أخذ الخريطة، ولكن من خلال نظرة جديدة لورق الخريطة عرفت أنه قد أحبط، لأنها لم تكن الخريطة التى وجدتها على تابوت بيلى بونز، لكنها نسخة دقيقة مقلدة ومكتمل عليها كل الأشياء، الأسماء والمرتفعات ومواقع الأنهار والبحار باستثناء الصلبان الحمراء والملاحظات المكتوبة، سببت الخريطة حالة من الضيق لسيلفر لكنه استطاع أن يخفى ذلك لم لديه من قوة عقلية، قال الكابتن سموليت:

- نعم يا سيدى، تلك هى البقعة، تأكد من ذلك فهى مرسومة ومحددة بشكل جيد جداً، أتساءل من فعل ذلك، فالقراصنة كانوا جهلة أيضاً، أعتقد أنه مرسى الكابتن كيد(*) وهذا الاسم يطلقه عليه زملائى البحارة، كما يوجد مجرى مائى يتدفق إلى الجنوب ثم يصل حتى الساحل الغربى.

وأضاف قائلاً:

- كنت على حق يا سيدى، ولكى تغير اتجاه الريح وتحافظ على طقس الجزيرة، لا توجد أفضل من تلك البقعة فى المياه إذا كان عندك نية للدخول أو توجه السفينة إليها.

(*) كابتن "Kidd" ولد فى أسكتلندا ١٦٤٥ وشُنق فى إنجلترا عام ١٧٠١ لاتهامه بالقرصنة والكابتن وليام كيد مشهور بالكنوز الخيالية.

قال الكابتن سموليت:

– شكرًا لكم رجالى الأعزاء، سأطلب منكم فيما بعد أن تساعدونى، تستطيعون الذهاب الآن.

كنت مندهشًا جدًا لبرودة جون سيلفر واعترافه أنه يعرف جزيرة الكنز، عن نفسى كنت مرعوبًا حين رأيته يقترب منى، لم يكن يعرف – أتأكد من ذلك – أننى استرقت السمع لمجلس الحرب الذى عقده حين كنت فى برميل التفاح، ومع ذلك كنت مرعوبًا قبل ذلك من قسوته ونفاقه، ولكنى استطعت بصعوبة أن أخفى رعبى حين وضع يده على ذراعى، قال متنهدًا:

– توجد هنا بقعة حلوة، هذه الجزيرة جيدة للشباب لكى تتجول على شواطئها وسوف تستحم وتتسلق الأشجار وتصطاد الماعز، سوف تصعد عاليًا على الجبال مثل عنزة، سوف يجعلنى ذلك شابًا مرة أخرى وسوف أنسى ساقى الخشبية، يا له من شىء رائع أن تكون شابًا وتمتلك عشرة أصابع فى قدميك وحين تود أن تقوم برحلة استكشافية قصيرة، عليك أن تسأل جون العجوز وسوف يخبرك ويزودك بوجبة خفيفة كى تأخذها معك.

وبعد أن ضربنى جون ضربة خفيفة على كتفى، عرج للأمام وذهب إلى أسفل السفينة، كان الكابتن سموليت وتريلونى والدكتور ليفزى يتحدثون معًا على ظهر السفينة وكانوا شغوفين لأننى سأحكى لهم قصتى، لم أشأ أن أقتحم حوارهم مباشرة، لكنى ظللت أفكر وأعصف ذهنى حتى أجد سببًا لذلك، دعانى الدكتور ليفزى إلى جواره، وضع البايب فى الأسفل ولأنه كان مدمنًا، أمرنى أن أذهب وأحضره مرة أخرى، وبمجرد أن اقتربت منه وكنت بدرجة تجعلنى أتحدث ولا أسترق السمع بدأت الحديث مباشرة:

– دكتور ليفزى.. دعنى أتحدث، ادع الكابتن سموليت وتريلونى للنزول إلى الكابينة واجعل سببًا لوجودى عندكم كى ترسل لى، فلدى بعض الأخبار المقلقة جدًا.

تغيرت ملامح الدكتور ليفزى قليلاً، لكنه استطاع أن يسيطر على نفسه بعد ذلك، قال الدكتور ليفزى بصوت عالٍ إلى حد ما وكأنه يسألنى سؤالاً:

– شكرًا يا جيم.. أريد أن أعرف كل شىء.

ورغم أنه حاورنى فإنه عاد للتحاور مع الكابتن سموليت وعاود سيرته الأولى مرة أخرى، تحدثوا مع بعضهم قليلاً واعتقد أن أحداً منهم لم يبدأ ولم يرفع صوته، كان بسيطاً وواضحاً بدرجة كافية جعلت دكتور ليفزى يواصل ويعرض طلبى، والشىء الآخر الذى سمعته أن الكابتن أعطى أوامره.

"لجوب أندرسون" وللرجال أن يكونوا يقظين، قال الكابتن سموليت:

- أيها الشباب، لدى كلمة أريد أن أقولها لكم، هذه الأرض التى حددناها هى المكان الذى أبحرنا من أجل الوصول إليها، وكما تعرفون أن السيد تريلونى رجل كريم جداً وطلب منى حالاً أن أقول له فى كلمة أو كلمتين أحوال السفينة، أستطيع أن أقول له أن كل رجل فى السفينة قد قام بواجبه تماماً ولأجل ذلك لن أطلب منكم أن أرى أفضل من ذلك، ولأجل هذا سوف أذهب أنا والدكتور ليفزى إلى الكابينة كى نشرب فى صحتكم، وسوف نقدم لكم الخمر كى تشربوا فى صحتنا أيضاً، سأخبركم فيما أفكر فيه، أعتقد أن ذلك شىء رائع ولو أنكم اعتقدتم مثلما أعتقد سوف تهتفون هتاف البحر للسيد الذى أمر بذلك.

وتتابع هتاف الرجال منتظماً وقوياً وزاد حتى أصبح ودوداً وحماسياً لدرجة أننى اعتقدت أن هؤلاء الرجال يتآمرون على دمنا من شدة انتظامهم وتآلفهم كفريق واحد، صرخ لونج جون حين هدأ الرجل الأول قائلاً:

- هتاف آخر للكابتن سموليت.

فقاموا بالهتاف مرة أخرى بإرادة ورغبة قوية وبعد ذلك ذهب الرجال الثلاثة إلى الكابينة أسفل السفينة ولم يمض وقت طويل حتى أرسل لجيم أنه مطلوب فى الكابينة، وجدت الرجال الثلاثة متحلقين حول المائدة ويوجد عليها خمر إسبانى وبعض الزبيب أمامهم والدكتور ليفزى يدخن بعيداً وباروكته موجودة على ركبته وأعرف أن ذلك إشارة أن الكابتن مثار لسماع شىء، كان الشباك الخلفى للسفينة مفتوحاً، كانت ليلة دافئة، ومن الممكن أن ترى القمر يشرق خلف السفينة، قال تريلونى:

- والآن يا جيم هوكنز، كان لديك شىء تريد أن تقوله، هيا تحدث.

عرضت وباختصار قدر المستطاع كل تفاصيل محادثة سيلفر، لم يقاطعنى أحد حتى انتهيت من كلامى لم يحرك أى من الرجال ساكنًا أثناء ذلك، لكنهم ظلوا يصبون عيونهم على وجهى من البداية حتى النهاية، قال الدكتور ليفزى:

- جيم.. أجلس.

وجعلونى أجلس بجوارهم على المائدة وسكبوا لى كأسًا من الخمر وملأوا يدى بالزبيب، وظل الرجال الثلاثة يشربون الخمر فى صحتى ويقدمون لى خدماتهم والزبيب والشراب من أجل حظى الكبير وشجاعتى، قال الإقطاعى تريلونى:

- والآن يا كابتن سموليت، لقد كنت على حق وكنت مخطئًا، أنا نفسى جحش صغير وأنتظر أوامرك.

استدار الكابتن له قائلاً:

- لست جحشًا أكثر منى، لم أسمع عن طاقم سفينة يريد أن يتمرد، ولكن ما ظهر قبلاً علامات لا يمكن أن تخفى على أى رجل لديه عين فى رأسه، سيُعرف الخطأ وسوف يتخذ خطوات لمقاومة ذلك.

وأضاف قائلاً:

- لكن هذا الطاقم قد خدعنا وهزمنا.

قال الدكتور:

- كابتن، لو سمحت لى، إنه سيلفر، الرجل الجدير بالملاحظة ورأس هذا الطاقم.

وعاد الكابتن للحديث قائلاً:

- إنه سيلفر بالفعل، وهو جدير بالملاحظة والمراقبة وهو واضح جداً من على بعد ذراع واحد، وأرى أن ذلك مجرد كلام ولن يؤدى إلى شىء وأرى ثلاث نقاط أو أربع، وليسمح لى السيد تريلونى أن أحددهم.

قال السيد تريلونى بشكل رائع:

- أنت يا سيدى الكابتن والكلام لك الآن.

قال الكابتن سموليت:

- النقطة الأولى، يجب أن نستمر لأننا لا نستطيع العودة مرة ثانية، ولو أننى أعطيت أوامرى بالعودة سوف يثورون فى الحال، والنقطة الثانية أننا نمتلك وقتًا على الأقل حتى يُكتشف الكنز، والنقطة الثالثة أنه يوجد بعض الرجال المخلصين، والآن يا سيدى سوف نواجه المشاكل، أما ما اقترحه أن نأخذ وقتًا لكى نحل تلك المشاكل ونواجه تلك العواصف فى يوم مناسب لا يتوقعونه ونستطيع أن نحدد من معنا، وأعتقد أن خدمك معنا يا سيد تريلونى.

أعلن الإقطاعى تريلونى قائلاً:

- أثق فيهم مثل نفسى.

قال الكابتن مؤكدًا:

- الثلاثة.. إذن نحن الآن سبعة مع الشاب هوكنز وهو معنا، والآن ماذا عن الرجال الأمناء؟!

قال الدكتور:

- معظم رجال تريلونى رجالنا، وقد التقطهم وأحضرهم بنفسه قبل أن يأتى بسيلفر.

أجاب تريلونى:

- نعم.. هم جميعا رجالى.

أضاف الكابتن:

- أعتقد أننى أثق فى هؤلاء الرجال.

وأضاف تريلونى قائلاً:

- أعتقد أن هؤلاء جميعًا إنجليز وأرى أن نبدأ رحلتنا.

قال الكابتن:

- حسنًا أيها الرجال، ما أقوله ليس كثيرًا، يجب أن نبدأ رحلتنا لو سمحتوا وأن نظل نراقب الوضع جيدًا، أرى أن الرهان على الإنسان، على الرجال وسيكون الأمر سعيدًا حين نصل لحل تلك العواصف والأزمات، ولكن لن تكون هناك أى مساعدة حتى نصل إلى رجالنا المخلصين، علينا أن نبدأ وننتظر الريح حتى تكون معنا، تلك هى رؤيتى.

قال الدكتور:

- جيم معنا، يجب أن يساعدنا أكثر من أى أحد لأن الرجال لا يخجلون ولا يأخذون حذرهم منه، إضافة إلى أنه شاب قوى الملاحظة.

أضاف الإقطاعى تريلونى:

- هوكنز.. أنا أضع ثقتى الكبيرة فيك.

بدأت أشعر بيأس كبير لأجل ذلك، لقد شعرت بعدم القدرة على ذلك، وبالرغم من الظروف الغريبة فإننى أشعر أن الأمان سوف يحدث وأثناء ذلك كنا نتحدث كما نريد، يوجد فقط سبعة من ٢٦ سوف نعتمد عليهم وأحد هؤلاء السبعة طفل والبالغون من الرجال فى جانبنا ستة فقط مقابل تسعة عشر رجلاً فى المعسكر المضاد.

الجزء الثالث

(مغامرتي على الشاطئ)

١٣- كيف بدأت مغامرتى الشاطئية

حين صعدت على ظهر السفينة فى الصباح التالى كان منظر الجزيرة مختلفًا تمامًا، ورغم أن نسيم البحر توقف فإننا أخذنا طريقنا للجزيرة ليلاً، وبعد أن استقرت السفينة، رسونا هادئين الآن على بعد نصف ميل من الجنوب الشرقى للساحل الشرقى.

كانت الأشجار رمادية اللون وتغطى مساحة كبيرة من السطح، وكان اللون السائد عبارة عن خطوط مكسرة ومتدرجة للون الأصفر الرملى فى الأراضى المنخفضة، كانت أشجار كثيرة من عائلة الصنوبر الطويلة تتصدر بقية الأشجار الأخرى، بعضها فرادى وبعضها فى مجموعات، كان اللون العام والسائد موحداً وحزينًا والتلال تتجلى بوضوح فوق تلك الخضرة التى على قمم الصخور المرئية بالعين المجردة.

كان جبل النظارة المكبرة هو الأطول، فقد كان حوالى ثلاثة أقدام أو أربعة ارتفاعًا، صارت الجزيرة الآن الأغرب فى تكوينها واستمر الهتاف من كل جانب وفجأة توقف عند القمة التى كانت مثل قاعدة سنضع عليها التمثال.

كانت السفينة هيسبنيولا تدير محركاتها الموجودة فى جانب السفينة تحت موجات المحيط وهديرها القوى يمزق الصخور والموجة تضرب بعنف جيئة وذهابًا، كانت هيسبنيولا تحدث صريراً وأنينًا مثل مصنع يعمل، اضطررت أن ألتصق وأتماسك جيداً فى السنادة الخلفية للسفينة، ورأيت العالم كله يدور أمام عينى بالرغم من أننى كنت بحاراً جيداً إلى حد ما حتى وجدت الطريق أمامى، ظل التحمل قائمًا، لم أكن قط مثل زجاجة تتدحرج، فقد تعلمت أن أتحمل كل المتاعب بلا اشمئزاز وكنت مع ذلك جائعًا وبمعدة خاوية منذ الصباح.

ربما كانت تلك الجزيرة، ربما كان ذلك المنظر العام لها بغاباتها السوداء الكئيبة السوداء، ويكتل الصخر البرية والموجات المتلاحقة التى نستطيع أن نراها ونسمع أزيزها ورعدها على الشاطئ المنحدر، ورغم أن الشمس أشرقت لامعة وحارة، كانت طيور الشاطئ تصطاد وتصرخ حولنا، سوف تعتقد أن أى أحد سوف يكون سعيداً حين يصل إلى هذه الأرض بعد رحلة طويلة له فى البحر، أحسست أن قلبى غرق فى حذائى كما يقال من أول نظرة لتلك الجزيرة وكرهت جداً فكرة جزيرة الكنز.

قضينا صباحًا مملاً وكئيبًا من العمل، لم يكن هناك أى إشارة لوجود الريح، اضطرت المراكب أن تسحب يدويًا بواسطة جرها بحبال السفينة لمسافة تقدر بثلاثة أميال أو أربعة حول ركن الجزيرة وأعلى الممر الضيق إلى المرفأ خلف جزيرة الهيكل العظمى، تبرعت للعمل مع إحدى هذه المراكب حيث لم يكن لدى عمل بالطبع، كانت الحرارة تجعلنا نتصبب عرقًا والرجال يتذمرون بقوة من أعمالهم، كان أندرسون فى طليعة ورئاسة قاربى وبدلاً من أن يحافظ على نظام الطاقم تذمر بصوت عال قدر استطاعته وبشكل سيئ، قال بشكل حاسم حالفًا ومقسمًا:

- حسنًا.. هذا الأمر لن يدوم!!

أعتقد أن ذلك إشارة سيئة، ويمرور الوقت من هذا اليوم أصبح الرجال أكثر خفة ورغبة بما يخص أعمالهم وصارت رؤية الجزيرة تجعلهم أكثر راحة للنظام.

أثناء الطريق كان يقف لونج جون بجوار قائد دفة السفينة الذى يعرف الطريق كما يعرف راحة يده ويعتقد أن الرجل الموجود فى الأغلال يتحرك فى كل مكان أكثر من الماء الموجود فى تلك الخريطة، فلم يتردد جون مرة واحدة، قال جون:

- يوجد مكان قوى نظيف به الماء الجارى مع وجود الجزر وهذا الممر حُفر بمجراف.

وصلنا إلى المكان الذى تم تحديده على الخريطة كى نرسو فيه، كان على بعد ثلث ميل من كل شاطئ، كان المكان الرئيسى على أحد الجوانب ويقابل جزيرة الهيكل العظمى على الجانب الأخر، كان القاع من الرمال النظيفة وأفزعت سقطة الغاطس سحب من الطيور كانت تحلق حول الغابات وتصرخ عاليًا، لكن فى أقل من دقيقة هدأوا مرة أخرى وصار الكل أكثر صمتًا مثل السابق.

كان المكان كله أرضًا مغلقة ومدفونة فى الغابات وتصل كثافة الأشجار حتى بداية الماء، كانت الشواطئ مسطحة تمامًا وقمم التلال تحيط بشكل دائرى على مسافة كبيرة وكأنها مدرج، واحد هنا وواحد هناك، كما يوجد أيضًا نهران صغيران ومستنقعان يفيضان إلى بركة من الماء إذا أردت أن تدعوها كذلك، كانت أوراق الشجر التى تحيط بجزء من الشاطئ تمتلك نوعًا من الإشراق السام، لم نستطع أن نرى من السفينة أى منزل أو حظيرة، كانوا جميعًا مدفونين بين الأشجار ولو لم تكن بين أيدينا خريطة عن تلك الجزيرة لربما قلنا أننا أول من ألقى بهلبه على ظهر تلك الجزيرة منذ أن ظهرت لنا من بين البحار.

لم يكن هناك نفس يتحرك ولا أى صوت ما عدا صوت الأمواج التى تزأر على بعد نصف ميل من الشواطئ وتضرب الصخور التى فى الخارج، كانت الرائحة الآسنة الراكدة تنتشر فى المرسى وترتفع رائحة الأوراق المبللة وجذوع الشجرة العفنة، لاحظت أن الدكتور ليفزى يعطس ويعطس مثل شخص تذوق بيضة فاسدة، قال:

- أنا لا أعرف شيئًا عن الكنز ولكنى سوف أراهن بباروكتى هناك لأن العمل والنشاط يبدأ من هنا.

ولو ظل سلوك الرجال مزعجًا فى السفينة سيصبح الأمر مهددًا عندما يأتون وسيظلون يتشاجرون على ظهرها ويتجادلون فى حواراتهم.

استقبل الأمر بنظرة سوداء وعلى مضض كاد بإهمال أن يطاع، حين يصاب الرجال والبحارة الأمناء بتلك العدوة فلن يوجد شخص واحد على السفينة يريد أن يصلح الآخر، كان التمرد واضحًا وسيخيم علينا مثل سحابة رعدية.

لم نكن نحن فقط - مجموعة الكابينة - الذين يتوقعون الخطر القادم، كان لونج جون سيلفر جادًا جدًا فى عمله ويذهب من مجموعة إلى أخرى منفقًا وقته ومعطيًا نفسه ويبذل النصيحة الجيدة للجميع، وعلى سبيل المثال لم يستطع أحد أن يعرض نفسه بشكل جيد، فقد كان متفوقًا على نفسه فى إرادته وفى أدبه وكياسته، كان دائمًا ما يوزع ابتسامته لكل شخص، فلو أعطى أى أمر يكون جون على عكازه فى لحظة هاتفًا

صائحًا (أنا هنا يا سيدى) وكأنه الأكثر ابتهاجًا فى العالم، وحين لم يكن لديه شىء يفعله يظل يغنى أغنية بعد الأخرى كما لو كان يريد أن يخفى أو يكتم سخطه على الأشياء الباقية.

وكانت من تلك الصور الكئيبة لهذه الظهيرة الكئيبة هذا القلق الواضح على مجموعة لونج جون الذى ظهر فى شكله الأسوأ، وقد عقدنا مجلسًا فى الكبينة، قال الكابتن سموليت:

– سيدى لو خاطرت بإصدار أمر آخر سوف يأتى كل رجال السفينة هنا بسرعة ويعترضون بشدة، وكما رأيت يا سيدى أننى تلقيت ردًا خشنًا ولو عاودت الأمر سوف نجد تلك الثورة لا محالة وإذا لم أفعل سوف يعتقد سيلفر أن هناك شيئًا ما وراء ذلك وسيزيد الشك، والآن لدينا شخص واحد من الممكن الاعتماد عليه.

قال الإقطاعى تريلونى:

– من هو إذن؟!

قال الكابتن:

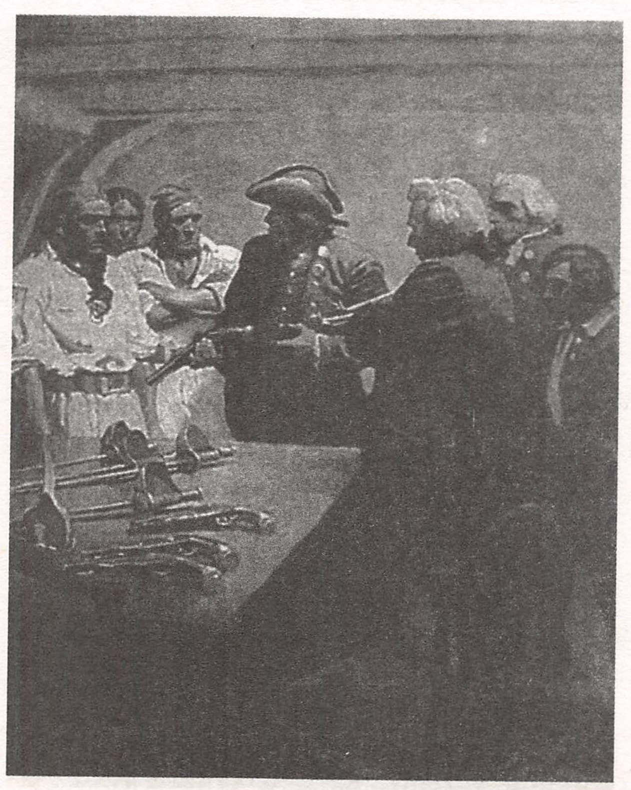
– سيلفر يا سيدى، فهو قلق مثلك وأنا أريد أن أكبح غضب الأشياء، تلك هى المشكلة والشجار الحادث، فهو يستطيع أن يتحدث معهم لو عنده الفرصة وما أعرضه هو أن نعطيه الفرصة ودعونا نسمح للرجال برحلة شاطئية هذه الظهيرة، فليذهبوا جميعًا حتى لا تحدث أى قلاقل، فلو لم يذهب أحد منهم سيكون الأمر حسنًا ساعتها، سنظل فى الكبينة وسوف يدافع الله عن الحق، وإذا ذهب البعض ستتذكرون كلماتى يا سيدى وأن سيلفر سوف يحضرهم للسفينة مرة أخرى أكثر اعتدالاً مثل الحملان.

واتخذ قرارًا أن تحشى المسدسات بالبارود وتعطى لرجالنا المخلصين والمتأكين منهم مثل هنتر وجويس وردروث الذين أعطوا كل ثقتنا وتلقوا الأخبار بدهشة أقل وروح عالية أكثر مما كنا نبحث عنه، ثم استمر الكابتن فى وجوده على ظهر السفينة وأخبر الطاقم قائلاً:

– يا شباب، نحن نعانى من يوم حار، وجميعنا متعب وخارج الحالة المزاجية الجيدة، فجولة على الشاطئ لن تؤذى أحدًا، فالقوارب ما زالت فى الماء ومن الممكن أن تأخذوا منها ما تريدون وأى عدد مسموح له الذهاب للشاطئ طوال الظهيرة وسوف أطلق النار قبل الغروب بنصف ساعة لتعودون.

أعتقد أن هؤلاء الزملاء السخفاء يعتقدون أنهم سوف يكسرون سيقانهم من أجل الكنز حين يهبطون عليه وسوف يخرجون جميعًا من حالة الاستياء فى لحظة وسوف يطلقون صيحاتهم وسيبدأ صدى الصوت يتردد من بعيد فى التل وسيجعل الطيور تزيد من طيرانها وصراخها حول المرسى.

كان الكابتن أكثر وضوحًا فى الطريق، لقد خطف البصر فى لحظة وترك سيلفر يعد للحفلة، أعتقد أن ذلك كما فعل تمامًا ولو كان على الجزيرة لما ادعى أنه لم يفهم الموقف، كان الأمر واضحًا كالنهار، وكان سيلفر الكابتن يمتلك أمر طاقم البحارة المتمرد ويسيطر عليه تمامًا، كنت والبحارة الأمناء نستوعب ذلك، يا لهم من زملاء أغبياء جدًا أو إلى حد ما، أعتقد أن تلك هى الحقيقة وأن كل الرجال لم يتأثروا بنموذج زعماء العصابة، فالبعض مع ذلك والبعض ضده.



أُعطيت كل المسدسات المحشوة بالبارود لكل الرجال الموثوق فيهم

تأثر البعض ولم يتأثر البعض الآخر، فقليل منهم أصدقاء جيدون على أى حال، ولا يمكن أن يغادروا أو يساقوا بأى حال من الأحوال، شىء واحد فقط يجعلك كسولاً ومتراجعًا وهو أن تأخذ سفينة وتقتل رجلاً أو أحدًا من الأبرياء.

أخيرا ومع أن الرحلة أعدت فإن ستة من الرجال اضطروا للبقاء على ظهر السفينة والثلاثة عشر الباقين بما فيهم سيلفر بدأوا فى الشروع فى ركوب المراكب الصغيرة.

جاء إلى ذهنى بداية الأفكار المجنونة التي ساهمت كثيراً فى إنقاذ حياتنا، فلو أن ستة رجال تركوا بواسطة سيلفر، سيكون واضحًا أن حزبنا أو مجموعتنا لن تستطيع أن تقاتل ومنذ تلك اللحظة تبقى فقط ستة من حزبنا، لذا كان واضحًا أن مجموعة الكابينة ليست فى حاجة لوجودى معهم، لذا قررت فى الحال أن أذهب إلى الشاطئ مع مجموعة سيلفر وفى لمح البصر انزلقت إلى أقرب قارب والذى انطلق فى نفس اللحظة، لم يلحظ وجودى إلا صاحب المجداف الأمامى، قال:

– أأنت يا جيم معنا؟ اختفى عن العيون!

لكن سيلفر نظر إلى من القارب الآخر بحدة ونادى عليهم لكى يعرف إذا كنت أنا أم لا ومنذ تلك اللحظة بدأت أندم على ما فعلت.

سارعت الأطقم إلى الشاطئ، لكن القارب الذى كنت به بدأ التحرك وكان فى الحال أكثر خفة والأحسن تزوداً بالرجال، وانطلق للأمام إلى جانب السفينة الأخرى، بدأ القارب يضرب بمجدافه بين الأشجار الجانبية الشاطئية، أمسكت بأحد فروع الأشجار وأرجحت نفسى إلى أقرب تجمع شجرى كثيف بينما كان السيد سيلفر والباقون ما زالوا على بعد مئات الأمتار خلفنا، سمعته يصرخ:

– جيم.. جيم!!

لكنى لم أعط لصرخاته أى اهتمام وواصلت القفز والعوم واختراق الشاطئ وجريت مباشرة قبل أن لا أستطيع أن أفعل ذلك.

١٤- أول عاصفة

شعرت بالسعادة أن أترك لونج جون توفيراً للنفقات وبدأت استمتع بما حولى باهتمام كبير على تلك الأرض الغريبة التى أنا عليها، عبرت قطعة أرض سبخية مملوءة بالصفصاف وأعشاب البرك والأشجار المستنقعية الغريبة والشاذة، وصلت بعدها لضواحى قطعة أرض رملية متموجة مفتوحة على بعد ميل، منقطة بقليل من شجر الصنوبر وعدد كبير من الأشجار الملتوية، ليست مثل شجر البلوط فى نموها لكنها صفراء فى نموها الخضرى مثل الصفصاف، على الجانب البعيد للمكان المفتوح تقف مجموعة من التلال بقمتين غريبتين تشرقان بوضوح فى الشمس.

شعرت لأول وهلة بمتعة الاكتشاف، فالجزيرة لم تكن مأهولة بالسكان، فقد تركت زملاء السفينة ورائى ولا شىء من الأحياء أمامى سوى بعض الطيور والوحوش الخرساء.

تجولت هنا وهناك بين الأشجار، فالنباتات المزهرة فى كل مكان، والتى لم أكن أعرف الكثير منها، رأيت الثعابين فى كل مكان، أحدها أطل من قمة صخرة وهس بصوته مصدراً ضوضاء مثل آلة غزل، فعل ذلك بشكل قليل جعلنى أعتقد أنه فعلاً عدو مميت وأن تلك الضوضاء مثل حشرجة الموت المعروفة.

ثم ذهبت إلى دغل من الأشجار دائمة الخضرة، عرفت بعد ذلك إنه شجر البلوط الذى ينمو منخفضاً عبر الرمال مثل الأشواك والأغصان الملفوفة والمتشابكة وأوراق الشجر المندمجة مثل القش، كان الدغل يمتد من قمة إحدى الهضاب الرملية وينتشر وينمو طولياً بشكل طبيعى حتى يصل لحافة المستنقع الواسع ويخترقه حتى النهر الصغير فيغرق فيه حتى المرسى، كان المستنقع يتبخر بفعل حرارة الشمس القوية، وعلى المدى كان جبل النظارة المكبرة يرتعش خلال هذا الضباب.

كل شيء هناك بدأ يقدم نوعًا من الصخب حولنا بين نبات البردى والعشب المائى، طار بط برى عاليًا وبدأ يبطبط، تبعه آخر، وبعد لحظة امتلأ سطح المستنقع بسحابة كبيرة من الطيور الصارخة والمحدثة زعيقًا ودائرة فى الهواء، شعرت فى قرارات نفسى ساعتها أن بعضًا من زملاء السفينة يزحفون الآن إلى حافة المستنقع، لم أكد أقرر ذلك حتى سمعت نغمات منخفضة لبشر ظلت تتواصل إلى أذنى بثبات وتعلو شيئًا فشيئًا وتقترب أكثر، جعلنى ذلك خائفًا جدًا، بدأت أزحف تحت غطاء من شجر البلوط القصير السمين هناك الذى يبدو مصغيًا تمامًا وساكنًا كالفأر.

سمعت صوتًا آخر ثم تلاه الصوت الأول الذى بدأت أتعرف عليه، كان صوت سيلفر، لحظة أخرى وبدأت الحكاية تتضح واستمر لحظة أخرى وكان يُقاطع بين لحظة وأخرى من خلال الصوت، كانوا يتحدثون بجدية وعنف إلى حد ما، لكنى لم أستطع أن أميز أى من الكلمات التى سمعتها.

أخيرًا يبدو أن المتحدثين توقفا مؤقتًا، وربما جلسا لكنى تأكدت أنهما لم يتوقفا عن الكلام ولكنهما اقتربا من بعضهما فظهر حديثهما واضحًا، لأن الطيور أنفسها صارت أكثر هدوءًا واستقرارًا وعادت إلى مكانها فى المستنقع مرة أخرى.

والآن بدأت أشعر أننى أنسى وأتجاهل شأنى الخاص وما خرجت لأجله، ومنذ تلك اللحظة صرت حريصًا أن أحضر للشاطئ مع هؤلاء الخارجين على القانون، كان آخر ما أستطيع أن أفعله أن أسترق السمع لهم فى مجالسهم وتلك كانت مهمتى الواضحة والبسيطة كى أقترب منهم قدر ما أستطيع تحت مكمن محبب لى بين الأشجار المتشابكة.

استطعت أن أحدد اتجاه المتحدثين بوضوح جدًا، ليس فقط من خلال أصواتهم، لكن من خلال سلوك بعض الطيور التى ما زالت فوق رؤوس هؤلاء المتطفلين المزعجين.

زحفت على يدى وقدمى، فعلت ذلك بثبات وبطء فى اتجاههم حتى استطعت أخيرًا أن أرفع رأسى من خلال كوة بين أوراق الأشجار، استطعت أن أرى بوضوح واديًا أخضر صغيرًا بجانب المستنقع ويحاط به الأشجار حيث يوجد لونج جون سيلفر وشخص آخر من طاقم السفينة يتحدثان وجهًا لوجه.

غطتهما الشمس، رمى سيلفر قبعته بجواره على الأرض وصار وجهه الأشقر أكثر إشراقًا مع حرارة الشمس ورفع وجهه للرجل الآخر كنوع من المناشدة قائلاً:

- زميلى!! يكون هذا لأنى أعتقد أنك شخص جيد وبك أصول ذهبية، ومن الممكن أن تركن لذلك، وإذا لم أكن أتخذتك كزميل حميم، أكنت تعتقد أننى هنا لكى أحذرك، كل شيء انتهى، ولم تكن تستطيع أن تفعل شيئًا، كان هذا من أجل إنقاذ حياتك، فلو أن أحدًا من هؤلاء عرف ذلك وأين كنت فلك أن تخبرنى الآن يا توم أين سأكون ساعتها؟

قال الرجل الآخر:

- سيلفر.

- لقد لاحظت أنه لا يخجل ولكنه يتحدث بصوت خشن وفظ مثل الغراب وصوته كان مشدودًا أيضًا مثل وتر.

وأضاف الرجل:

- أنت رجل عجوز وأمين وتمتلك الأمر ومعك نقود أيضًا لا يمتلكها الكثير من البحارة الفقراء وأنت كذلك شجاع، هل أنا مخطئ؟ ومن المؤسف أن تقول لى إنك جعلت نفسك تحت أمر وقيادة هؤلاء التافهين على السفينة، لست أنت هذا الرجل أنا متأكد من الأمر كما أراك الآن وسأفقد يدى لو تحولت ثانية يا زميلى العزيز.

وكانت المفاجأة أنه تم مقاطعته بواسطة ضوضاء، لقد وجدت واحدًا من البحارة الأمناء.

حسنًا هنا وفى نفس اللحظة جاءت أخبار أخرى، فبعيدًا عن المستنقع كانت هناك عاصفة، كانت صرخة غضب تلتها واحدة أخرى، ثم تلتها ثالثة أكثر بشاعة وأخيرًا صرخة مدوية عميقة، سمع الصوت مرات ومرات، فقد حلقت ثانية كل جماعات طيور المستنقع واسودت السماء وصار الطنين متلازمًا، وما زال الدق فى رأسى بعد هذه الصرخة المميتة، خيم الصمت على كل شيء، ولم يعد يسمع إلا صوت حفيف الطيور الهابطة وهدير الإعصار البارد الذى أزعج كسل الصباح.

قفز توم عند سماعه لهذا الصوت مثل حصان يستعد للانطلاق لكن سيلفر لم يرمش له جفن، وقف حيث كان بثبات، مستندًا بخفة على عكازه، يراقب زميله مثل ثعبان يستعد للانقضاض، قال البحار مادًا يده:

- سيلفر!

صرخ سيلفر انتهى دور العمال ثم قفز باردة للخلف بسرعة وأمان مثل رياضى مدرب، قال البحار:

- انتهى دور العمال لو أردت يا سيلفر، يا له من ضمير أسود، ذلك الذى يجعلك تخاف منى، أستحلفك بأن تقول لى ما هذا الذى يحدث؟

استدرك سيلفر قائلاً:

- هذا!

ثم ابتسم لكنه كان حذرًا عن ذى قبل، كانت عيناه هى المكان المميز فى وجهه الكبير، لكنها كانت مشرقة مثل كسرة الزجاج، قال سيلفر:

- أعتقد أن ذلك سيكون" آلان".

انفجر توم غاضبًا عند هذه اللحظة مثل بطل وصرخ:

- آلان الذى أبقى روحه لأجل البحار الحقيقى ولأجلك يا جون سيلفر، وكنت أعتقد أنك زميلى لكنك مثل كلب الآن، سأموت مرتاحًا، لقد قتلت آلان، أليس كذلك؟ اقتلنى أيضًا لو استطعت لكنى سأقاومك.

استدار توم بشجاعة وأعطى ظهره لسيلفر ومشى نحو الشاطئ؛ لكنه لم يحدد إلى أين يذهب، وبصرخة قبض جون على فرع شجرة وتأبط عكازه وأطلق هذا الفرع كقذيفة صاروخية فأصاب توم المسكين، كانت ضربة عنيفة صاعقة أصابته بين الكتفين، تقريبًا فى منتصف ظهره، رفع توم يديه لأعلى متألمًا وشهق شهقة ثم سقط على الأرض.

لا أحد يستطيع أن يحدد إذا كان قد جرح بشكل كبير أو قليل، لكن صرخته حكمت أن ظهره قد كسر فى المنطقة التى أصابتها القذيفة، ولم يعطه سيلفر أى وقت كى يرتاح قليلاً، فقد أجهز عليه مثل قرد يتقافز برشاقة دون ساق أو عكاز، ثم كان فوقه فى اللحظة التالية وغرس الخنجر مرتين حتى آخره فى جسده الذى لا يقاوم، سمعت صرخته العالية من مكمنى وكأنه آثار العواصف.

لم أستطع تحديد ما حدث بالضبط حتى أغمى على، كل ما استطعت أن أعرفه فى اللحظة التالية أن العالم يغرق بعيداً فى ضباب يدور حولى، فسيلفر والطيور وأعالى الجبال يدورون حولى وصار كل شىء رأساً على عقب أمام عينى وصارت كل الأجراس تدق والأصوات المستمرة تصرخ فى أذنى.

حين أفقت وعدت لنفسى كان الوحش سيلفر قد سحب نفسه وعكازه تحت إبطه وقبعته فوق رأسه ومسح سكينته الملوثة بالدماء فى حزمة من الحشائش تاركاً توم يرقد بلا حراك فوق خنجره وكأنه لا يعنيه مثقال ذرة.

كل شىء لم يتغير، فالشمس تشرق بقسوة على المستنقع والجبال الشاهقة، أقنعت نفسى بصعوبة أن القاتل قد ارتكب جريمته وأن حياة الإنسان قد انتهت بقسوة فى لحظة قصيرة أمام عينى.

وضع جون يده فى جيبه وأخرج صفارته وصفر بها عدة مرات متتالية، كانت ترن عبر الهواء الساخن، لم أستطع بالطبع أن أقول شيئاً عما رأيت أو أعطى أى إشارة له، لكن ذلك أيقظ مخاوفى، فكثير من الرجال سوف يأتون، ربما أكتشف، لقد ذبح اثنان من الرجال الأمناء توم وآلان وربما أكون بعدهما.

بدأت أستخلص نفسى وأنسحب فى هدوء عائداً مرة أخرى بسرعة، كنت صامتاً قدر استطاعتى حتى خرجت إلى مكان مفتوح فى الغابة، وحين فعلت ذلك سمعت هتافات قادمة ومتبادلة بين القرصان العجوز وزملائه أعطانى هذا الصوت الخطير جناحين للهرب، فبمجرد أن اتضح الأمر لى جريت كما لم أجر من قبل متذكراً الطريق الذى جئت منه لهذه الرحلة، أحسست أنه طويل كى أبعد عن هؤلاء القتلة، جريت أكثر رغم أن خوفى يتزايد أكثر وأكثر حتى صار نوعاً من الجنون.

حقًا، هل يستطيع أحد أن يضيع الآن أكثر منى؟! فحين يطلق النار للعودة إلى المركبة كيف سأجرؤ أن أعود للقوارب كى أكون وسط هؤلاء الشياطين الذين ما زالوا يدخنون من أثر جريمتهم، وهل لن يرانى أول واحد منهم وأنا ألوى رقبتى مثل طائر الشنقب حين أعود؟ وألا يكون غيابى نفسه دليلاً لهم كى يحذروا منى؟ وفوق كل ذلك ما لدى من معلومات مميتة، كل شىء انتهى، أعتقد ذلك، وداعًا للسفينة هسبنيولا وداعًا للسيد تريلونى ووادعًا للدكتور ووداعًا للكابتن، لم يعد لدى شىء متبقيًا إلا الموت، فإما الموت جوعًا أو الموت بأيدى هؤلاء البحارة المتمردين.

كنت أقول ذلك لنفسى وأنا أجرى دون أن ألاحظ شيئًا، تسللت حتى وصلت إلى سفح الجبل الصغير ذى القمتين ووصلت إلى جزء من الجزيرة حيث نبات البلوط ينمو باتساع كبير فى هذا الجزء ويشبه أشجار الغابة فى تحملها وحجمها مختلطًا بقليل من أشجار الصنوبر المخططة والتى تقرب الخمسين أو السبعين والتى تتميز بارتفاعها، كان الهواء أكثر طزاجة عن ذى قبل بجوار المستنقع، وهنا كان تحذير جديد أعادنى إلى الموقف المتجمد بقلب متضخم مملوء بالهم.

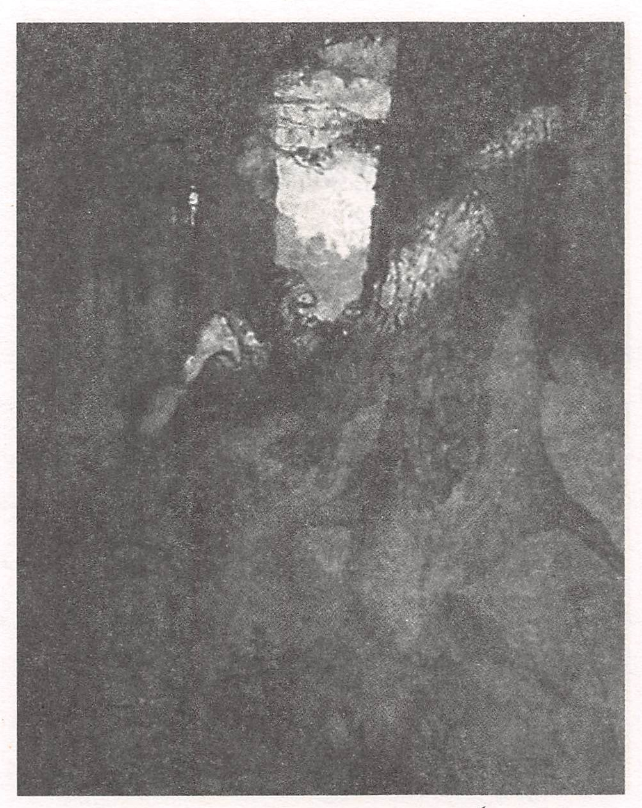
١٥- رجل الجزيرة

فى جانب التل الذى كان منحدراً وصخرياً، نافورة من الحصى أزيحت وسقطت بشكل صاخب وأحاطت بالأشجار، تحولت عيناى بصورة فطرية إلى هذا الاتجاه، رأيت شبحاً يتقافز بسرعة فائقة خلف جذع شجرة بلوط، تُرى ما هذا؟ أدب أرى أم رجل أم قرد؟ لم أعرف ما هو بشكل حاسم، يبدو غامقاً وأشعث عما أعرف، لكن الرعب من هذا الشبح جعلنى أتصلب فى مكانى.

كنت مقسماً بين الخوفين، فخلفى القتلة وأمامى الآن هذا الشبح الذى لا يوصف، بدأت فى الحال أفضل الأخطار التى أعرفها عن تلك التى لا أعرفها، سيلفر نفسه يبدو أقل خطراً بالمقارنة إلى هذا المخلوق القادم من الغابة، عدت أدراجى ثانية ونظرت بحدة خلفى من فوق كتفى، وبدأت أقتفى آثار خطواتى فى اتجاه القوارب.

ظهر الشكل وطاف حولى فى شكل دائرى ثم وقف أمامى، كنت متعباً على أى حال، لكنى كنت منتعشاً كما لو كنت متيقظاً، استطعت أن أراه، كان بالنسبة لى كمن يحارب بسرعة وكأنه عدو، كان يتحرك من جذع شجرة لأخرى وكأنه دب لكنه يجرى على قدمين كإنسان، لكنه لم يكن كأى إنسان رأيته من قبل، كان يجرى منحنياً ولكنه كان رجلا على أى حال، لم أعد فى شك من هذا الأمر.

بدأت أستدعى ما سمعته عن أكلى لحوم البشر، كنت فى حاجة ماسة لأى مساعدة أو نجدة، لكن تبقى حقيقة مجردة إنه إنسان رغم أنه يبدو همجى، وهذا ما طمأننى على أى حال، بدأ خوفى من سيلفر يرتفع نسبته مرة أخرى، ما زلت واقفاً، وعلاوة على ذلك أطرح بعض الوسائل للهرب وبينما كنت أفكر عادت إلى ذهنى فكرة استعادة مسدسى مرة أخرى، وبمجرد أن تذكرت ذلك لم أكن بلا دفاع، توهجت شجاعتى مرة أخرى فى قلبى ونظرت لرجل الجزيرة هذا بحزم وإصرار وذهبت بشجاعة إليه.



رأيت شبحاً يتقافز بسرعة كبيرة خلف جذع شجرة بلوط

كان مختفياً قبل هذا الوقت خلف جذع شجرة أخرى، لكنه كان يراقبنى عن قرب، فبمجرد أن بدأت أتحرك فى اتجاهه عاود الظهور ثانية وأخذ خطوة كى يقابلنى، ثم تردد وتراجع مرة أخرى وتقدم مرة ثانية، وأخيراً ولدهشتى ولخبطتى رمى نفسه على ركبته وشبك يديه فى توسل وعندئذ توقفت وسألته:

– من أنت؟!

أجاب بصوت أجش وصعب :

– بن جن، أنا بن جن المسكين، أنا لم أتحدث إلى أى إنسان منذ ثلاث سنوات.

لقد رأيته الآن بوضوح، كان إنساناً أبيض مثلى وكانت سماته طيبة وبشوشة، لكن جلده كان معرضاً للشمس التى حرقته وكانت شفاهه سوداء وعيناه الطيبة بدتا

مذهلتين فى هذا الوجه الأسود، كان بالنسبة لكل الشاحذين الذين تخيلتهم أعظمهم فى ملابسه الرثة، فقد كان مرتديًا حزقة قماش من شراع قديم وملابس بحر قديمة بالية، وكانت هذه الرقع الغريبة مجمعة معًا فى نظام أكثر غرابة بأربطة غير متناسبة تمامًا وبأزرار نحاسية وقطع من العصا وعروات من جلد الحصان القطرانى، عند وسطه تقريبًا يرتدى حزام جلدى بأبزيم نحاس وكان الشىء الوحيد الصلب فى كل الأشياء التى يرتديها، صرخت:

– ثلاث سنوات، أكنت ممن دمرت سفينتهم؟!

أجاب:

– لا يا زميلى، بل تركونى وحيدا على الجزيرة. ماروند!!

لقد سمعت الكلمة وأعرف أنها تعنى نوعًا فظيعًا من العقاب شائعًا بين القراصنة وهى أن يترك المذنب على الشاطئ بقليل من المؤن ويترك وحيدًا على تلك الجزيرة المعزولة البعيدة، واستمر قائلاً:

– تركت وحيدًا هنا لمدة ثلاث سنوات مرت وكنت أعيش على الماعز منذ تلك اللحظة، وعلى الثمار والمحار، وحيث يكون الإنسان أكون أنا، فالرجل يستطيع أن يفعل شيئًا بنفسه، لكن يا زميلى قلبى ما زال يشتاق لوجبة الكنيسة، ما زلت أشتاق إلى قطعة جبن وتوست، فكم حلمت ليالى طوالاً بطعم الجبن واستيقظت من نومى وأنا أفكر فيها هنا حين أكون.

قلت له:

– لو عدت مرة أخرى، سوف تتناول مقدارًا كبيرًا من الجبن.

كان طوال الوقت يشعر بقيمة جاكيتى ويلمس يدىّ وينظر إلى حذائى الطويل، ويعبر عن مشاعره الطفولية فى حضور كائن بشرى زميل وكان ذلك بصفة عامة بين فواصل الكلمات، وعند كلماتى الأخيرة رفع معنوياته إلى درجة كبيرة ومدهشة، وكرر ثانية:

– لو تستطيع العودة مرة أخرى، لقد قلت ذلك، ولم لا؟! الآن من يستطيع أن يعوقك أو يمنعك.

– ليس أنت، أنا أعرف.

كانت تلك إجابتى.

صرخ:

- حسنًا، أنت ستساعدنى الآن، ما اسمك؟

أخبرته:

- جيم.

أجاب بوضوح وسعادة لحد ما.

- حسنًا، والآن يا جيم، لقد عشت حياة خشنة لدرجة أنك قد تخجل لسماعها، فأنت لن تصدق على سبيل المثال أن لى أمًا كانت ورعة وتقية حين تنظر إلى.

أجبت:

- ولم لا؟

قال:

- نعم، حسنًا ولكنى كنت أمتلك تدين جدير بالملاحظة، وكنت ولدًا متحضرًا ومتدينًا وأستطيع أن أجلجل وأفخر بتعليمى الشفاهى بسرعة لدرجة أنك لا تستطيع أن تميز كلمة عن الأخرى، وهنا وجدت ما تعلمته، كنت أبدأ بلعبة " التوس " على أحجار المقابر المقدسة وهذا ما كنت أبدأ به كى أسلى نفسى، ولكنى كنت أذهب لأبعد من ذلك، كنت أتذكر ما كانت تخبرنى به أمى وكانت تتوقعه بصفة عامة، وكانت تفعله، يالها من امرأة تقية وورعة! لقد كانت العناية الإلهية التى قذفت بى هنا، اعتقدت أن وجودى على هذه الجزيرة المنعزلة سيعود بى ثانية إلى التقوى، لم تكن تستطيع أن تضبطنى أتذوق خمر الروم كثيرًا إلا من كأس واحد كى يجلب لى الحظ، وبالطبع تلك أول فرصة أقابلها وأنا ملتزم جدًا أن أكون إنسانًا جيدًا وأشعر أننى فى طريقى إلى هذا الخير يا جيم.

نظر بن جن حوله وأخفض من صوته لدرجة الهمس وقال:

- أنا غنى.

تأكدت الآن أن الزميل المسكين صار مجنونًا فى عزلته، اعتقدت أننى عبرت عن تلك المشاعر بوجهى وخاصة حين كرر كلمته بحماس، قلت له:

- غنى.. غنى!! سأقول لك ما هذا، وسأكون صديقك يا جيم وسوف نشكر الله، ستفعل، فأنت أول واحد وجدنى.

وفى تلك اللحظة غطى وجهه فجأة وشدد من إمساكه ليدى بقوة ورفع سبابته مهددًا أمام عينى، سألنى:

- الآن يا جيم، هل تخبرنى الحقيقة، أهذه سفنية فلنت؟!

شعرت بالسعادة فى تلك اللحظة وبدأت أعتقد أننى وجدت حليفًا، لذا أجبته فى الحال:

- هذه ليست سفينته، لأن فلنت قد مات، ولكنى سأخبرك الحقيقة كما سألتنى، يوجد بعض حلفاء وأيادى فلنت على ظهر السفينة، وكان ذلك حظًا سيئًا لباقى الموجودين على السفينة.

شهق قائلاً:

- ألا يوجد رجل بقدم واحدة؟

أجبته:

- سيلفر.

قال:

- نعم سيلفر، هذا هو اسمه، إنه الطباخ وزعيم العصابة أيضًا.

كان ما زال يمسكنى من معصم يدى وحين سمع ما قلت هز يدى بقوة، وقال:

- لو كنت أرسلت بواسطة لونج جون، فأنا ضعيف وفريسة وأنا أعرف هذا، وثق أنت من هذا.

فى لحظة حاولت أن أفكر جيداً وقبل أن أقول له أى إجابة أخبرته بحكاية رحلتنا البحرية كلها والمأزق الذى وجدنا فيه أنفسنا، وسمعنى بحماس كبير واهتمام، وحين انتهيت من سرد الحكاية ربت على رأسى وقال:

- أنت شاب جيد يا جيم، جميعكم فى عقدة وحزمة واحدة، أليس كذلك؟ حسنا، ومن الممكن أن تضعوا ثقتكم فى بن جن، بن جن هو الرجل الذى سيفعل ذلك، هل تعتقد أن العمدة الإقطاعى سيكون رجلاً متحرراً وليبراليًا فى حالة أن أساعده، هو معكم فى نفس المجموعة كما حددت من قبل.

أخبرته أن الإقطاعى تريلونى هو الأكثر تحرراً وليبرالية فى الرجال، استدرك بن جن قائلاً:

- نعم.. لكنك فهمت، أنا لا أقصد أن تعطينى مكانًا أبقى فيه، أو بدلة من ملابس الحياة، أو مثل ذلك، هذا لا أقصده ولا أبغيه يا جيم، ما أقصده هو هل من الممكن أن يأتى ويشاركنا وينزل معنا إلى الغابة، وقل له أن ألف جنيه إنجليزى سيكون جيداً لأى إنسان فعلاً.

قلت:

- أنا متأكد أنه سوف يفعل، كما أن كل العمال والبحارة على وشك أن تشارك.

وأضاف بن جن بنظرة ذكية فطنة:

- وحق السفر على متن السفينة؟

صرخت:

- لماذا؟ الإقطاعى تريلونى رجل لطيف ومهذب ولن يقبل ذلك، بالإضافة لذلك لو تخلصنا من هؤلاء الأشرار سنكون فى حاجة ماسة أن تساعدنا فى السفينة.

قال:

- هل ستفعل؟

وبدا أكثر ارتياحًا وسكينة عن ذى قبل، واستمر قائلاً:

– الآن سوف أخبرك ما الأمر، سأقول لك أشياء كثيرة، وليست قليلة، لقد كنت فى سفينة فلنت عندما دفن الكنز ومعه ستة رجال أقوياء، ظلوا على الشاطئ لمدة أسبوع تقريبًا، وكنا واقفين بعيداً على ظهر السفينة "حصان البحر القديمة" ولرس"، وفى أحد الأيام الجميلة جاء هنا فلنت فى قارب صغير وكان رأسه ملفوفًا بإشارب أزرق ويرتدى ملابسه البيضاء البائدة ويقف فى المقدمة حين كانت الشمس تشرق هنا، أتذكر موت الرجال الستة جميعًا، ماتوا ودفنوا، كيف فعل هذا؟ لم يستطع رجل أن يرى ذلك، كانت معركة، وقتل وموت مفاجئ، وعلى أقل تقدير كان واحداً مقابل ستة، كان بيلى بونز زميله، ولونج جون ضابط المناورة سألوه أين يكون الكنز، قال:

تستطيعون أن تذهبوا إلى الشاطئ لو أحببتم وتظلوا هناك، أما بالنسبة للسفينة سوف تهزم وتدمر كثيراً بواسطة العاصفة، وهذا ما قاله.

كنت فى سفينة أخرى منذ ثلاث سنوات وشاهدنا الجزيرة، قلت:

– يا أولاد.. يوجد هنا كنز فلنت، دعونا نرسو ونبحث.

كان الكابتن غير سعيد بذلك، لكن زملائى كانوا قد اقتنعوا تمامًا بالأمر ورسوا إلى الجزيرة، بحثوا عنه لمدة اثنى عشر يومًا وكانوا كل يوم يحملون شيئًا تجاهى حتى يوم تركونى جميعًا وذهبوا إلى السفينة وقالوا لى:

– بالنسبة لك يا بنجامين جن، هذه بندقية قديمة وجاروف وبلطة وتستطيع أن تبقى هنا وتجد كنز فلنت لنفسك.

ومرت ثلاث سنوات ولم أذق كسرة من طعام الكنيسة من ساعتها وحتى تلك اللحظة، لكن الآن أنت هنا وتنظر إلى، هل أشبه ربان السفينة؟ أنت تقول لا، وأنا أقول إننى لن أكون كذلك، وعند ذلك غمز لى بعينيه وقرصنى بشدة واستمر قائلاً:

– فقط أذكر تلك الكلمات للإقطاعى تريلونى صاحب السفينة يا جيم.

لم يكن بالطبع ربان السفينة، هى الحقيقة، فمنذ ثلاث سنوات وهو رجل الجزيرة الوحيد ليلاً ونهارًا أثناء المطر وفى اعتدال الطقس، كان يفكر فى الصلاة وأحيانًا كان يفكر فى أمه العجوز، أمى على قيد الحياة – ربما تقول ذلك – لكن الجزء الأكبر من

وقت بن جن - هذا ما ستقوله - الجزء الأكبر من وقته كان ينهمك فى أمر آخر وسوف تقرصه كى توقظه مثلما أفعل.

ثم قرصنى مرة أخرى بأسلوب حميمى خاص، سوف تقول إن بن جن رجل طيب، وأنه وضع صورة جيدة له وأنه رجل لطيف وغنى ولديه ثروة، قلت:

- حسنا، لم أفهم كلمة واحدة مما قلته، لا من هنا ولا من هناك، لكن قولى كيف سأصل إلى السفينة بعد أن تركت القاربين وهربت.

قال بن جن:

- نعم، تلك هى العقبة، ولكن يوجد قاربى الذى صنعته بيدى هاتين، لقد خبأته تحت صخرة بيضاء، ومع أسوأ الظروف سنستخدمه بعد الظلام.

صرخت قائلاً:

- هيه.. هيه!!

وبعد فترة بسيطة وبالرغم من أن الشمس لم تغرب وبيقى لها ساعة أو اثنتان حتى تهرب فإن صدى أصوات الجزيرة بدأت تعلو وتعلو وتجأر كأنها عاصفة بصوت مدفع، صرخت:

- بدأوا يتقاتلون، اتبعنى.

وبدأت أجرى تجاه المرسى، نسيت كل خوفى وكان بن جن بالقرب منى يدوس الأرض بخفة ورشاقة، قال لى:

- يساراً.. يساراً، ناحية اليسار يا زميلى جيم، تحت هذه الأشجار، قد قتلت أول عنزة، لن يأتوا إلى هنا الآن، جميعهم على قمة الصارى مثبتين هناك خشية من بينجامين، نعم، أرأيت هذه التلال، كنت أحضر هنا وأصلى من وقت لآخر عندما كنت أعتقد أن اليوم كان الأحد، لم تكن كنيسة ولكنها كانت تشبهها، وستقول أن بن جن قصير اليد وليس مصلياً وليس مؤمناً بالإنجيل وشخصاً كسولاً.

وواصل بن جن الكلام أثناء الجرى دون توقف أو انتظار أى إجابة، سمعنا طلقة من المدفع بعد وابل من طلقات الرصاص للأسلحة الخفيفة، حدث توقف مؤقت وعلى مسافة لا تزيد على ربع ميل شاهدت سفينة اتحاد جاك ترفرف بعلمها فى الهواء فوق الغابة.

الجزء الرابع

(الحصن)

١٦- الدكتور يروى الحكاية
كيف هُجرت السفينة؟

كانت الساعة الواحدة والنصف تقريباً، بدأت ثلاثة أجراس تدق فى البحر، قاربان ذهبا للشاطئ من السفينة هيسبنيولا، تحدثت أنا والكابتن والعمدة تريلونى عن الأموال فى الكابينة، لو أننا وجدنا أى ريح سوف نتخلص من الستة متمردين الذين تركناهم على ظهر السفينة معنا، أنزلنا المرسى وكنا على استعداد للرحيل لكن الريح كان لها رأى آخر وأكملت عدم مساعدتنا، جاء إلينا "هنتر" بأخبار أن جيم هوكنز انزلق إلى أحد القوارب وذهب إلى الشاطئ مع الباقى.

لم يحدث أننا قد شككنا فى جيم هوكنز، لكن انزعجنا لأجل حياته وأمانه، فقد كان مع رجال أشرار ويبدو أن رؤيته مرة أخرى شىء صعب، جرينا إلى ظهر السفينة، كان اهتزاز السفينة شديداً خاصة فى الوصلات، والرائحة النتنة فى المكان قد أمرضتنى، لو شمها إنسان سوف يصاب بالحمى والإسهال، لقد كان المرسى بغيضاً وكريهاً، كان الأشرار الستة من المتمردين يجلسون ويتذمرون تحت أحد الأشرعة فى مقدمة السفينة، كنا نرى من على الشاطئ القوارب تسرع، ويجلس على كل قارب منها رجل، كان يصفر كل واحد منهم نغمة موسيقية لرقص أيرلندى يسمى "ليليبوليرو"(*).

كان الانتظار سيئاً، واتخذت قرارا أن أذهب وهنتر إلى الشاطئ بواسطة قارب القراصنة كى ننقب عن المعلومات، اتخذ القاربان اتجاه اليمين لكنى وهنتر ذهبنا للأمام فى اتجاه القلعة التى على الخريطة، كان الاثنان اللذان تركا يحرسان القاربين

(*) نغمة رقصة أيرلندية شعبية نشرت عام ١٦٨٩ بواسطة الموسيقار الإنجليزى هنرى بيرسل.

فى نشاط صاخب فى لحظة ظهورنا ويغنون ويرقصون "ليليبوليرو"، فتوقفا وشاهدت الاثنين يتناقشان ماذا سيفعلان، هل سيذهبان لإبلاغ سيلفر، لو حدث سوف يتغير كل شيء، لكنهما كانا يمتلكان وجهة نظر، أعتقد أنهما قررا البقاء هادئين حيث يكونان وأن يعودا لرقصة "ليليبوليرو".

كان هناك انحناءة بسيطة فى الساحل، أدرت دفة القارب لكى أضعه بيننا، حتى قبل أن نهبط كان لدينا الرؤية المفقودة للقاربين، قفزت من القارب خارجة وجريت بالقرب منه بما أوتيت من جسارة وشجاعة، كنت أرتدى منديلاً حريريًا تحت القبعة من أجل أن أبرد رأسى وأحمل حمالة لمسدسين جاهزين لإطلاق النار على مفتاح الأمان، لم نكد نذهب أكثر من مائة ياردة حتى وصلنا الحصن.

وهذا ما كان عليه الحصن، توجد عين ماء رائقة تتدفق تقريبًا على قمة تل، حسنًا، و نظم هذا الحصن على أنه لوجات (أبراج) قوية تتلائم لكى تستوعب اثنين من المحاربين على قاعدة وفتحة للرمى واستخدام البنادق على الجانب الآخر، يوجد فى كل دائرة فراغ واسع وهذا الشيء مكتمل ومحاط بسور على ارتفاع ستة أقدام بدون باب أو فتحة، كان قويًا جدًا لدرجة أنك لا تستطيع أن تفتحه دون وقت كاف ومجهود كبير وكان مفتوحًا وواسعًا لكى يأوى المحاصرين.

كان الناس فى اللوج (البرج) يسيطرون على المكان كله، كانوا يقفون بهدوء فى مأواهم ويطلقون النار على الآخرين، مثل طيور الحجل، كل ما يريدونه مراقبة جيدة وطعام من أجل دهشة كاملة لوقت قصير، كانوا يستطيعون تسخير المكان والاستفادة منه ضد الحشود التى تهاجمهم.

وما أخذ خيالى بصفة خاصة كان نبع الماء، وبالرغم من ذلك كان لدينا مكان كاف بدرجة جيدة له فى كابينة السفينة هيسبينيولا، وبه وفرة من الأسلحة والذخيرة والأشياء التى نأكلها والخمر الممتاز، ويبدو شيء واحد حقيقى هو أننا لا نمتلك ماء، وحين كنت أفكر فى هذا الأمر سمعنا صرخة رجل يشارف على الموت، لم أكن جديدًا على الموت العنيف، لقد خدمت فى البحرية الملكية وجُرحت فى (فنتنوى) ولكنى أعرف نبضى حين يضطرب وأفكر لأول وهلة فى شخص أحبه، طرأ لخيالى لأول مرة أن جيم هوكنز قد مات.

إنه شيء يحدث لك لأنك محارب قديم ولأنى أيضًا طبيب ولا وقت لدينا لكى يضيع، وبدأت أفكر بجد ودون أن أضيع أى وقت عدت إلى الشاطئ، وقفزت إلى القارب ولحسن الحظ سحب هنتر مجدافًا جيدًا وأبحرنا بسرعة وابتعد القارب عن الشاطئ.

وجدتهم جميعًا مكسورين وكان ذلك أمرًا طبيعيًا، كان يجلس العمدة تريلونى، يبدو أبيض كصفحة بيضاء، يفكر فى كم الأذى الذى من الممكن أن يتسبب فيه لنا، إنها الروح الطيبة، كان أحد البحارة الستة فى مقدمة السفينة أحسن حالاً، قال الكابتن سموليت وهو يومئ:

- يوجد رجل أيضًا جديد على هذا العمل، جاء كالمغمى عليه يا دكتور، حين سمع الصرخة، لمسة أخرى من دفة القيادة وسوف يلحق بنا.

قلت خطتى للكابتن، واستقر كل منا على التفاصيل لإنجاز ذلك وكان الأمر بينى وبينه، جعلنا رودروث فى الردهة بين الكابينة والمقدمة ومعه ثلاث أو أربع بنادق معمرة بالذخيرة ودروع للحماية، أحضر هنتر القارب حولنا تحت مقدمة السفينة وبدأ جويس وأنا شحنها بالذخيرة والبنادق والمعلبات وشنط من البسكويت وبراميل لحم الخنزيل وبرميل من الكونياك وصندوق من الدواء البسيط.

وأثناء ذلك كان العمدة تريلونى والكابتن يجلسان على سطح السفينة ونادى الكابتن على الربان الذى كان مسئولا عن الإبحار وقال:

- يا سيد هاندز سيبقى هنا اثنان من رجالنا مع بندقية لكل واحد، لو أى واحد منكم أحدث أى إشارة لوصف شيء، سيموت هذا الرجل.

تراجعوا مباشرة للوراء تنفيذًا للأمر، وبعد تشاور بسيط بينهما، استجابوا لأحد زملائهم معتقدين أنه لا شك أنهم سيأخذوننا فى مؤخرة السفينة، ولكنهم حين شاهدوا رود روث بنظرتهم فى ردهة الصارى ذهب إلى السفينة فى الحال وعيونهم تجحظ مرة أخرى على السطح، صرخ الكابتن:

- تحت أيها الكلاب.

واشرأبت الرؤوس، وجحظت العيون ولم نسمع نفسًا لهم فى هذا الوقت للستة بحارة المنكسرين القلب، وقبل هذا الوقت كنا نسقط الأشياء فى القارب حين يؤتى بها وأخذنا

القارب وشحناه بالأشياء على قدر استطاعتنا، وبدأت أنا وجويس التوجه نحو الجزء الجنوبى وأبحرنا إلى الشاطئ بسرعة قدر ما استطاعت أن تساعدنا المجاديف.

كانت تلك هى الرحلة الثانية التى أثارت المراقبين على الشاطئ، فجأة ارتفعت نغمة "ليليبوليرو" مرة أخرى وقبل أن نفقد رؤيتهم على تلك البقعة الصغيرة، انعطف أحدهم برشاقة على الشاطئ واختفى، كنت مستعداً تماماً لتغيير خطتى وتدمير قواربهم، لكنى شعرت بالخوف أن يكون سيلفر والآخرون قريبين منا وربما نفقدهم تماماً لو حاولنا أكثر.

وصلنا إلى أرض الجزيرة فى نفس المكان الذى كنا فيه من قبل حيث نستطيع أن نجد الأمن، قام الثلاثة بأول رحلة، كان الحمل ثقيلاً، فقذفنا بأحمالنا فوق الشاطئ الصخرى ثم تركنا جويس لكى يحرس ذلك، رجل واحد ولكى نكون متأكدين كان معه نصف دستة من البنادق، رجعت أنا وهنتر إلى القارب مرة أخرى، وحملنا أنفسنا بأشياء كثيرة مرة أخرى، لذلك واصلنا العمل دون توقف لالتقاط الأنفاس حتى نقلنا كل الحمولة التى كانت على القارب، وحين أخذ الخادمان موقعهما فى الحصن، أبحرت أنا والبارود والذخيرة مرة أخرى إلى السفينة "هيسبنيولا".

كانت تلك مخاطرة كبيرة أن نعود مرة أخرى لكى نعاود شحن القارب بالأشياء، ولكنه كان ضرورياً، فقد كان معهم العداد وكان معنا ميزة السلام. لا أحد من الرجال على الشاطئ معه سلاح وقبل أن يستطيعوا أن يأخذوا أى فرصة لإطلاق النار علينا اقتنعنا وطمئنا أنفسنا أننا نستطيع أن نعطى درساً قاسياً لنصف دستة الرجال الذين على الشاطئ على الأقل.

كان العمدة الإقطاعى تريلونى ينتظرنى عند مقدمة السفينة وقد اختفى كل تعبه تماماً وأحضر حبلاً لربط الأشياء بسرعة ونزلنا لكى نملأ المركب بما نحتاجه من أجل حياتنا، أحضرنا لحم الخنزير وحملاً من البسكويت وبندقية وسيفاً مقوساً للعمدة تريلونى ولرودروث وللكابتن وألقينا بباقى الأسلحة والذخيرة من جانب السفينة على عمق اثنين قامة ونصف لدرجة أننا استطعنا رؤية الإسيتل اللامع المشرق فى ضوء الشمس أسفلنا فى القاع الرملى النظيف.

بدأ البحر يتحول من حالة المد إلى حالة الجزر قبل ذلك، وبدأت السفينة تتأرجح حول مرساها، بدأت أصوات ترتفع فى اتجاه المركبين، اعتقدنا أن ذلك تأكيد لنا من جانب جويس وهنتر اللذين كانا فى اتجاه الشرق أن ننجز الأمر وأن ذلك تحذير لمجموعتنا أن ننتهى بسرعة.

تراجع رودروث من مكانه فى الردهة وقفز إلى المركب الذى أحضرناه إلى مؤخرة السفينة لكى يكون المساعد للكابتن سموليت الذى تحدث قائلاً:

– الآن يا رجال هل تسمعون؟

لم تكن هناك أى إجابة من أعلى مقدمة السفينة.

– كما تحب يا إبراهام جيرى، كما تريد، أنا أتحدث.

لم نسمع أى رد قادم، استأنف الكابتن سموليت نداءه بصوت أقل:

– جيرى، سأغادر السفينة وأنا آمرك أن تتبع الكابتن، أعرف أنك رجل جيد فى قاع السفينة، وأقول إنه لا أحد من المجموع سيئ مثلما برهن وأثبت، ساعتى معى وسوف أعطيك ثلاثين ثانية لكى تلتحق بى.

كان هناك توقف مؤقت واستمر الكابتن قائلاً:

– تعال يا صديقى العزيز، لم أستطع أن أبقى طويلاً، إننى أغامر بحياتى وحياة هؤلاء الرجال الجيدين كل ثانية.

حدث شجار مفاجئ وأصوات واندفع إبراهام جيرى ومعه سكين أصابه على جانب خده وجاء مندفعًا إلى الكابتن مثل كلب جاء إلى صفارة وقال:

– سأكون معك يا سيدى.

وفى اللحظة التالية قفز ومعه الكابتن إلى المركبة التى نحن فيها والتى شقت طريقها بعيداً، بدأنا نتحرك بعيداً عن السفينة ولم يعد فى ذهننا الشاطئ حين كنا فى الحصن.

١٧- الدكتور يروى الحكاية

الرحلة الأخيرة لقارب القراصنة "جولى"

كانت الرحلة الخامسة تختلف إلى حد ما عن باقى الرحلات، فكان الزورق الصغير للمركبة محملاً بشكل خطير، يوجد عليه رجال كبار، ثلاثة منهم كانوا تريلونى وردروث والكابتن، وأكثر من ستة أقدام ارتفاع كانت أكثر مما ينبغى أن تحمله، أضف إلى ذلك البارود ولحم الخنزير وأجولة الخبز، وصلت الأشياء حتى الحافة العليا للمركب، فكم من مرة أبحرنا فى الماء الضحل فوجدت أن بنطالى وأطراف معطفى تبللت فى النهاية قبل أن نصل بحوالى مائة ياردة، طلب الكابتن أن نوازن ما على المركبة، جعلناها أفضل مما كانت إلى حد ما، فكنا خائفين أن نتنفس، الأمر الثانى أن الجزر قد بدأ وتحرك تيار ماء عتيق فى اتجاه الغرب فى البحر، ثم تحرك جنوبياً حتى وصل الممرات المائية والمضايق حتى ساعدنا ذلك أن نصل فى الصباح حتى الموجات كانت خطرة على زورقنا الممتلئ بالأشياء، لكن الأسوأ أننا كنا لا نبحر فى طريقنا المعروف وكنا بعيدين عن مكان الرسو المعتاد، فكنا خلفه، فلو تركنا تيار الماء يأخذنا كما يشاء سوف نجد أنفسنا على الشاطئ بجوار الزورقين حيث يظهر القراصنة فى أى لحظة وكانت تلك هى المشكلة، قلت للكابتن:

- لن أستطيع جعلها تسير للأمام إلى الحصن يا سيدى.

كنت أقود دفة المركبة بينما كان الكابتن وردروث واثنان من الرجال على المجاديف، قلت له:

- المد يضرب أسفل المركب، هل من الممكن أن تسحبها قليلاً بقوة.

قال:

- لا يمكن دون غمر القارب، لو سمحت تحمل حتى تحقق الانتصار.

وجدت بالخبرة أن المد جعلنا نتحرك فى اتجاه الغرب، حاولت حتى استطعت أن أجعل مقدمة المركب فى اتجاه الشرق، وأن تكون الزوايا فى اتجاه اليمين حتى نتحرك إلى الطريق الذى نود الوصول إليه، قلت له:

- لن نستطيع أن نصل للشاطئ بهذا المعدل.

قال الكابتن:

- لو كان هذا هو الطريق الوحيد الذى يجب أن نسلكه يا سيدى، فيجب علينا أن نسلكه.

واستمر قائلاً:

- يجب أن نسير ضد التيار كما ترى يا سيدى، لأننا لو أخذنا التيار باتجاه الريح لمكان الهبوط على الشاطئ، سيكون من الصعب أن نحدد المكان الذى سنرسو عليه، بالإضافة إلى أن فرصة أن نكون بجوار القاربين الخاصين بالقراصنة متاحة، لذا يجب أن يكون التيار الذى يأخذنا منخفض السرعة فى هذا الحالة وساعتها قد نستطيع أن نراوغ ونتفادى أى شىء على الشاطئ.

قال جراى الذى كان يجلس فى المقدمة:

- التيار أقل استعداداً يا سيدى ومن الممكن أن نقلل السرعة قليلاً.

شكرته كواحد منا، كأن شيئًا لم يحدث من قبل وكنا نحاول أن نعامله معاملة طيبة كأحد منا، فجأة تحدث الكابتن بصوت عال، فاعتقدت أن صوته تغير قليلاً، قال:

- المدفع!!

قلت:

- لقد فكرت فى هذا.

كنت متأكداً أنه كان يفكر أنه يتم قصفنا بوابل من القنابل من الحصن، لن يستطيعوا أن يجعلوا المدفع على الشاطئ ولو فعلوا لن يستطيعوا أن يجرجروه إلى الغابة.

لقد نسينا تمامًا التسعة المزودين بالذخيرة بسبب رعبنا، كنا الخمسة أكثر قلقًا وانشغالاً بشأن الزورق، فأنزلنا غطاءها وطلبنا البيرة (الجعة) وهى تسير ونحن تحتها، ليس ذلك فقط، ولكن قفز إلى ذهننا فى نفس اللحظة الطلقات وذخيرة المدفع التى تركناها خلفنا، فضربة واحدة بالفأس لصندوق الذخيرة ستجعلها جاهزة فى أيد الأشرار الذين يتوافدون على المركبة، قال:

– كان جراى مدفعجى فلنت.

خاطرنا حتى جعلنا وجهة القارب مباشرة للمكان الذى سنرسو عليه، قبل هذا الوقت أصبحنا بعيدين عن مجرى التيار حتى حافظنا على وجهتنا وطريقنا وبمعدل لطيف ومعتدل من التجديف، استطعت أن أحافظ على معدل ثابت للهدف، لكن الأسوأ من ذلك الطريق أننا أصبحنا هدفًا للسفينة "هيسبنيولا" وخاصة مؤخرتنا.

أستطيع أن أسمع كما أرى تمامًا أن النذل صاحب الوجه الأحمر كالبراندى سوف يبدأ بحشو المدفع بتلك الذخيرة على السفينة، سأل الكابتن:

– من أفضل رام فينا؟

قلت:

– السيد تريلونى:

قال الكابتن:

– سيد تريلونى، هل من الممكن أن تصيب أحد هؤلاء الرجال؟

كان السيد تريلونى باردًا مثل الصلب، ونظر إلى فتيلة المدفع، صرخ الكابتن:

– تعامل مع المدفع يا سيدى وإلا سوف تغرق القارب فى المستنقع.

كان الرجال جاهزين حين صوب بندقيته، رفع العمدة تريلونى بندقيته، توقف التجديف تمامًا واتكأنا على الجانب الآخر من المركب لكى نضبط التوازن له، كان مبدعًا بدرجة كبيرة لدرجة أننا لم نهبط بالمركب.

أعدوا المدفع قبل هذا الوقت واستداروا فى اتجاه دائرى، وكان الرجل الذى بجوار الفوهة والذى بيده الضرب فى مرمى النيران الأكثر تعرضًا لبندقية تريلونى، ومع ذلك لم نكن محظوظين بدرجة كبيرة، وبمجرد أن أطلق النار سقط على الأرض، وكان هذا الرجل واحداً من الأربعة.

ترددت صدى الصرخة التى أطلقها الرجل ولم يسمعها فقط زملاؤه، ولكن سمعتها كل الأصوات التى كانت على الشاطئ، وحين نظر لهذا الاتجاه، شاهدنا القراصنة يخرجون من بين الأشجار ويأخذون أماكنهم على القوارب، قلت:

- وهنا جاء القاربان يا سيدى.

صرخ الكابتن:

- يجب أن نواصل طريقنا حالاً، يجب ألا نفكر فى شىء إلا الذهاب من هنا فوراً، إذا لم نستطع الذهاب إلى الشاطئ، سوف ينتهى كل شىء.

أضفت:

- فقط أحد القوارب قد زود بالرجال، والطاقم الآخر سوف يلتف حولنا كى يطوقنا.

قال الكابتن:

- سوف يبذلون كل طاقتهم كى يلحقوا بنا، هم على الشاطئ كما تعرف وأنا لا أفكر فيهم، ولكنى أفكر فى طلقات المدفع التى ستمطرنا، وبالتأكيد لن تخطئنا كل الطلقات، أخبرنا يا تريلونى حين تبدأ المعركة.

وأثناء ذلك كنا نصنع تقدمًا بشكل جيد، رغم أن القارب كان مشحونًا جداً بالأشياء ونقود القارب رغم الماء القليل اللازم لتلك العملية، كنا جميعًا قريبين من بعض، فقط ثلاثون مجدافًا أو أربعون وسوف نصل للشاطئ، فقد كشف الجزر حزامًا ضيقًا من الرمل أسفل الأشجار المتشابكة، لم تعد المركبة التى تقل القراصنة مخيفة

لنا، فالنقطة البسيطة للحواف صارت الآن مختفية عن أعيننا، والمد الذى كان قاسيًا أبعدنا عنهم، صار الآن تعويضًا لنا وعونًا وباعدنا عن المهاجمين لنا، بقى المدفع الذى يعتبر المصدر الوحيد للخطر، قال الكابتن:

- لو أنا مثلك لتوقفت وأصبحت رجلاً آخر.

كان واضحًا أنهم قرروا أن شيئًا لن يوقفهم عن قصفنا بالمدفع، فلم يعطوا حتى اهتمامهم لزميلهم الذى سقط من قبل بالرغم من أنه لم يمت ورأيته يحاول جاهدًا أن يزحف بعيدًا، صرخ العمدة تريلونى:

- جاهز.

صرخ الكابتن بسرعة كدوى صوت:

- اضبط.

وتراجع للوراء هو مع ردروث بجهد كبير جعل مؤخرتها تحت الماء، وسقطت القذيفة فى نفس الوقت، وكانت أول مرة يسمع فيها جيم، لم تصله صوت رصاصة العمدة تريلونى، حين مرت الرصاصة ولم يعرف أى منا بدقة، لكنى تخيلت أنها بالتأكيد مرت من فوق رؤوسنا وربما ساهمت رياحها فى كارثتنا.

على أى حال، فقد غرقت مؤخرة القارب بهدوء إلى حد ما فى ثلاثة أقدام من الماء وأخذ الثلاثة الباقون غطسات كاملة وصعدوا مرة أخرى مبللين ومبقبقين، لم تكن هناك خسائر كبيرة، فلم نفقد أحدا منا وخُضنا إلى الشاطئ فى أمان، لكن استقر أغلب ما أحضرناه من خزين فى القاع، وفسدت أشياء كثيرة، فقط بندقيتان من خمسة ظلت فى حالة جيدة للعمل وأفسد الباقى، خطفتهما من تحت ركبتى ووضعتهما فوق رأسى بشكل فطرى وغريزى، أما بالنسبة للكابتن فقد حمل ذلك فوق كتفه بواسطة حزام مثل رجل حكيم وضاعت البندقيات الثلاث الأخريات مع القارب.

وإضافة إلى اهتمامنا، فقد سمعنا أصوات تقترب منا فى الغابة على طول الشاطئ، لم يكن لدينا خوف فقط فى كوننا خارج الحصن فى حالة تقترب من نصف

مشلولين، لكن الخوف كان قبلنا من حيث إذا كان قد تمت مهاجمة كل من هنتر وجويس بواسطة النصف دستة من القراصنة، فقد كان لديهما الإحساس والتصرف أن يظلا ثابتين.

عرفنا أن هنتر كان ثابتًا أما جويس كان فى حالة شك، كان رجلاً سعيداً ومؤدباً ككونه خادمًا يغسل الملابس وليس كامل اللياقة كرجل حرب، كان كل ذلك فى أذهاننا ومع ذلك فقد خضنا الماء إلى الشاطئ بسرعة على قدر المستطاع، تاركين وراءنا القارب البسيط "جولى" ونصف ما كان معنا من ذخيرة صالحة ونصف المؤن التى كنا نمتلكها.

١٨- الدكتور يروى الحكاية

نهاية قتال اليوم الأول

زدنا من سرعتنا عبر قطاع الأشجار الذى يفصلنا الآن عن الحصن، مع كل خطوة كنا نسمع أصوات القراصنة قريبة منا، كنا نستمع لوقع أقدامهم، كلما كانوا يجرون وتكسير أفرع الأشجار حين يتقدمون عبر منطقة قريبة من الأدغال.

بدأت أرى أنه يجب علينا أن نخوض معهم معركة لكى ننتصر ونظرت إلى سلاحى، قلت:

- كابتن، تريلونى صاحب تصويب قاتل، أعطه بندقيتك، فإن بندقيته بلا فائدة.

تبادلا البنادق، كان تريلونى صامتًا وباردًا كما كان من قبل حين بدأنا هذا النشاط الصاخب، انتظر لحظة حتى يرى أننا جميعًا ملائمين وجاهزين لخدمته حتى يبدأ إطلاق النار، لاحظنا فى نفس الوقت أن جراى بلا سلاح، فأعطيته سيفى، أسعد قلبى حين رأيته يبصق فى يديه ويشبك حاجبيه استعدادًا، وجعل شفرة سلاحه تصفر فى الهواء، كان واضحًا من كل تعبيرات جسده أن صديقنا الجديد جراى يستحق كل خير وأنه على ما يرام.

خطونا حوالى أربعين خطوة حتى وصلنا إلى حافة الغابة وشاهدنا الحصن أمامنا، وضربنا طوقًا فى منتصف الجانب الجنوبى، فى نفس الوقت كان سبعة من المتمردين وجوب أندرسون وضابط السفينة أمامهم، ظهروا جميعًا فى صرخة كاملة فى الركن الجنوبى الغربى.

توقفوا كما لو كانوا عادوا للوراء، وقبل أن يعاودوا كان العمدة تريلونى وأنا وهنتر وجويس أخذنا مواقعنا من الحصن واستعدينا لإطلاق النار، جاءت الطلقات الأربعة

منا كوابل من الرصاص وكطلقة واحدة اندفعت، ولكنهم فعلوا أيضًا نفس الشيء وسقط أحد أعدائنا صريعًا، فغطس الباقى دون تردد فى الأشجار، بعد إعادة حشو بنادقنا بالبارود، مشينا حتى وصلنا إلى جرف الشاطئ الصخرى لكى نرى عدونا الذى سقط، كان ميتًا متصلبًا وأصابته الطلقة فى قلبه.

حين بدأنا نفرح بنجاحنا الجيد، سمعنا فى تلك اللحظة خروشة وتكسير لفروع الأشجار، ومرت بجوار أذنى رصاصة تصفر، وتعثر توم ردروث الطيب وسقط على الأرض، رددت والعمدة الطلقة مرة ثانية لكننا لم نجد شيئًا كهدف واضح، لقد أضعنا الذخيرة هباءً، عاودنا تعمير السلاح وحشو الذخيرة وأعطينا اهتمامنا لتوم المسكين، كان الكابتن وجراى يفحصانه جيدًا، كنت أراه بنصف عين وأعتقد أن الأمر انتهى وأنه قد مات.

أعتقد أن استعدادنا لرد دفعة من الطلقات جعل الأمر ينتشر ويتناثر بين المتمردين أكثر من مرة، لأجل ذلك عانينا دون إزعاج كبير لدرجة جعلت حارسنا العجوز المسكين يرفع الراية على الحصن رغم الأنين والدم المسفوك فى الحصن.

لم ينطق زميلنا العجوز المسكين الخائف والمستسلم من بداية المشاكل وحتى الآن، وعندما أرقدناه فى الحصن لكى يموت، رقد مثل تروجين على فراشه فى الردهة، كان يستقبل كل أمر بصمت وطاعة وبراحة، لقد كان أكبرنا جميعًا بعدة أعوام والآن يرقد حزينًا، مكتئبًا، عجوزًا، خادمًا، وكان على وشك الموت، سقط العمدة بجواره على ركبتيه، وقبّل يده وصرخ مثل طفل، سأل قائلاً:

- هل سأعود يا دكتور؟

قلت:

- توم، سوف تعود للوطن.

قال توم:

- أتمنى أن آراه بسرعة ومعى بندقيتى أولاً.

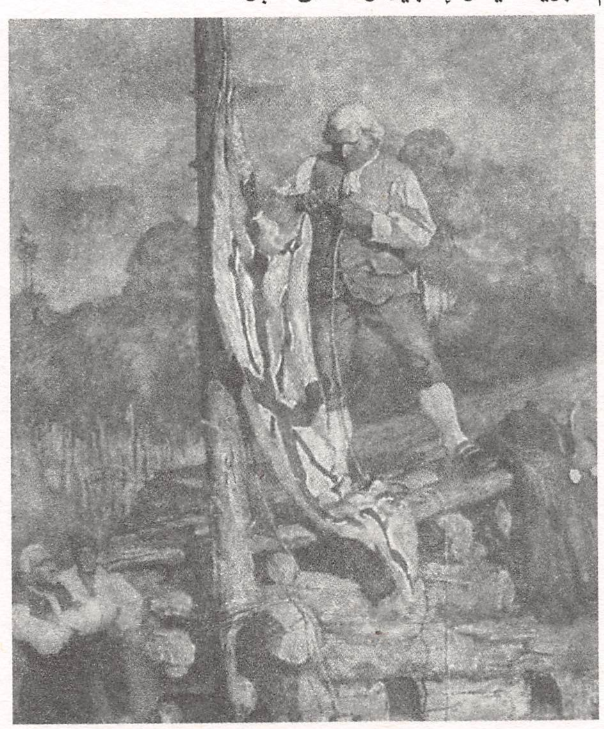
قال العمدة تريلونى:

- توم، قل إنك ستسامحنى، أليس كذلك؟

أجاب توم:

– ألا يكون كل الاحترام منى لك يا سيدى العمدة؟ مهما كان، سيكون لك كل احترامى.

بعد قليل من الصمت، قال إنه يجب أن يصلى عليه أحد، "إنها عادة يا سيدى" وأضاف ذلك معتذراً، وبعد وقت قليل ودون كلمة واحدة، رحل فى هدوء، أثناء ذلك لاحظت أن الكابتن صار متورماً ومنتفخاً صدره وجيوبه، أحضر أشياء متنوعة عظيمة وأحضر الأعلام البريطانية والإنجيل ولفة من حبل.



تسلق إلى سطح الحصن، وصل إليه بيد قادرة على الاحتمال ثم رفع الراية

وقلم حبر وسجل السفينة وأرطال من الدخان، ووجد شجرة التنوب الطويلة راقدة على الأرض مقلمة أغصانها وبمساعدة هنتر أوقفها فى أحد أركان المنزل حيث تقاطعت جذوع الأشجار وصنعت زاوية فتسلق حتى وصل للسطح ووصل إليه بيد قادرة على الاحتمال ورفع الراية.

يبدو أن هذا أراحه بشدة، وعاود دخول الحصن مرة أخرى وبدأ يعد المؤن الموجودة كما لم يكن شىء موجوداً من قبل، وألقى نظرة على حالة توم، مع كل هذا، وبمجرد أن انتهى جاء براية أخرى وفردها باحترام بالغ على جسد توم، قال وهو يهز يد العمدة تريلونى:

- ألم تعتقد هذا يا سيدى؟ كل شىء تمام بالنسبة له، فلا خوف على يد حاربت وقاتلت فى خدمة الكابتن وصاحب السفينة، ربما لا نحب قدر الله لكنه الحقيقة.

ثم سحبنى جانباً وقال:

- دكتور ليفزى، كم عدد الأسابيع تتوقع فيها حضور السفينة المرافقة والشريكة لك أنت والعمدة؟

أخبرته أنها ليست مسألة أسابيع ولكن شهور إذا لم نعد قبل نهاية أغسطس "بلاندى" سيرسل بالتأكيد لكى يبحث عنا، ومن الممكن أن تحسب ذلك بنفسك، عاود الكابتن الحديث وهو يهرش رأسه:

- لماذا؟ نعم!! سوف نقدم تسامحاً كبيراً يا سيدى من أجل هدايا العناية الآلهية، أستطيع أن أقول إننا منجذبين لبعض جداً.

سألته:

- ماذا تقصد؟

أجاب الكابتن:

- يا للشفقة والحسرة يا سيدى، لقد فقدنا الحمل الثانى، وهذا ما أقصده، بالنسبة للذخيرة والطلقات قد نستطيع إيجادها لكن المؤمن والطعام قليل جداً جداً، ربما لا نستطيع أن نجد طعاماً فى المستقبل وربما يكون من الأفضل ألا تكون بفم إضافى.

وأشار إلى الجسد الممدد تحت العلم، وحينئذ مرت طلقة لها زئير وصفير فوق سطح الحصن وسقطت بعيداً خلفنا فى الغابة، قال الكابتن:

- نعم، اضرب بعيداً، فما معى قليل من البارود يا غلامى، فى المرة الثانية كان الهدف واضحًا ونزلت القذيفة داخل الحصن وانتشرت سحب من الرمال لكنها لم تصنع خسارة كبيرة.

قال العمدة تريلونى:

- كابتن، المنزل ليس مرئيًا من السفينة ولكنهم يصوبون هدفهم على الراية وليس من الحكمة أن نترك الراية على المنزل.

صرخ الكابتن قائلاً:

- يغيرون رايتى!! لا يا سيدى، ليس أنا من ينزل رايته.

بمجرد أن قال تلك الكلمات، أعتقد أننا اتفقنا معه ليس لأن ذلك مجرد شجاعة ومشاعر جيدة، ولكن كان ذلك نوعًا من السياسة الجيدة بجانب أن ذلك يظهر لعدونا أننا نحتقر هجومه المدفعى.

استمروا طوال المساء فى إمطارنا بوابل من القذائف التى تطير فوقنا أو تسقط قريبة منا أو تثير الرمال فى سياج المنطقة، واضطروا أن يطلقوا قذائفهم عاليًا لدرجة أن تلك القذائف كانت بلا قيمة وكانت تدفن نفسها فى الرمال الناعمة، لم نكن نجد أى شظايا تثير رعبنا بالرغم من أن واحدة سقطت على السطح وأخرى سقطت فى أرضية المنزل لدرجة أننا قد تعودنا على تلك اللعبة وصارت لدينا مثل لعبة الكريكت والكرة والمضرب، أعطى الكابتن ملاحظة قائلاً:

- يوجد شىء واحد جيد بشأن ما يحدث، وهو أن الغابة أمامنا تبدو واضحة وأن الجذر قد بدأ لفترة جيدة، لكن مؤننا لن تغطينا وتكفينا، يجب على المتطوعين أن يذهبوا ويحضروا لحم الخنزير.

كان جراى وهنتر أول من تقدم، تسلحوا جيداً وخرجا من الحصن، لكن المأمورية لم تكن موفقة، كان المتمردون أكثر وقاحة وشراسة لكى نواجههم وقد وضعوا ثقتهم الكبيرة فى مدفعية إسرائيل، أربعة رجال أو خمسة منهم كانوا مشغولين بنقل مؤننا وخوضوا بها إلى أحد القوارب التى كانت بجوارهم، سحبوا المجداف لكى يجعلوه ثابتًا

ضد التيار، كان سيلفر عند الأشرعة الخلفية فى القيادة، وكل واحد منهم كان مزوداً ببندقية من مخزن خاص بهم للسلاح كانوا يعرفونه، جلس الكابتن على كرسيه وكان ذلك بداية تسجيل من معه:

- إلكسندر سموليت، الرئيس ديفيد ليفزى، طبيب السفينة، إبراهام جراى زميل نجار، جون تريلونى صاحب السفينة، جون هنتر وريتشارد جويس خادمان لصاحب السفينة، جميعهم كانوا مخلصين فى صحبة السفينة وتركوا معًا ومعهم مخزنًا يكفى فقد لمدة عشرة أيام وعانوا رغم الحصص القليلة جدًا لكل واحد منهم، جاءوا على الشاطئ هذا اليوم ورفعوا العلم البريطانى على حصن فى جزيرة الكنز، توماس ردروث خادم صاحب السفينة تريلونى قتل بواسطة المتمردين، جيمى هوكنز غلام القيادة والسفينة.

كنت فى نفس الوقت أسأل عن مصير جيم هوكنز المسكين، قال هنتر الذى كان فى الحراسة:

- شخص ما ينادى علينا.

جاءت صراخات متولية:

- دكتور، عمدة، كابتن، أهلاً هنتر، أنت هو يا هنتر؟!

جريت بسرعة إلى الباب فرأيت جيم هوكنز فى أمان ومعافى وجاء يتسلق إلى الحصن.

١٩- جيم هوكنز يستأنف الحكاية

الحامية فى الحصن

حيث رأى بن جن العلم أراد أن يستريح وأوقفنى بالقوة وجلس وقال:

- يوجد هنا أصدقاؤك الآن، أنا متأكد.

أجبت:

- لا يمكن، إنهم المتمردون!!

صرخ:

- إنهم هم، لماذا؟ لأن لا أحد سيدخل هذا المكان إلا الذين يريدون الكنز، وسيلفر سوف يطير إلى جولى روجر، لا نشك فى هذا أبداً، لا، إنهم أصدقاؤك، وتوجد عواصف أيضًا، ولذا أظن أن أصحابك احتموا فيها، وهم هنا على الشاطئ فى هذا الحصن القديم كما كان الأمر من سنوات واستخدمه فلنت، كان الرجل الذى يمتلك خوذة ويعشق شراب الروم، لم يكن له مثيل فلا يخاف من أحد أبدا ولا حتى سيلفر الذى كان لطيفًا وأنيقًا.

قلت:

- حسنًا، ربما يكونون أصدقائى، على أى حال يجب أن أسرع وألتحق بهم.

رد بن جن:

- لكنهم ليسوا زملاء لى، فأنا لست أنت، الآن بن جن طائرًا، فشراب الروم لن يحضرنى هناك حيث ستذهب، لن يفعل شراب الروم فعله حتى أرى سيدك ويعطينى

كلمة شرف ولا تنس كلماتى "شىء نفيس" هذا ما تقوله، الشىء النفيس أكثر ثقة وقل له وشدد عليه وأكد ذلك.

وقرصنى للمرة الثالثة بنفس الحماس والنشاط وقال:

- حين تريد بن جن، أنت تعرف أين يكون يا جيم، فقط ستجده فى المكان الذى وجدته فيه ومن يأتى معك يجب أن يكون ماسكًا شيئًا أبيض فى يده وأن يأتى بمفرده، وقل لهم بن جن لديه تفسيراته وأسبابه الخاصة.

قلت له:

- حسنًا، أعتقد أننى فهمت، لديك شىء ما تريد أن تقوله، أنت تتمنى أن ترى العمدة تريلونى أو الدكتور، أنت توجد حيث وجدت من قبل، أليس ذلك؟ قل ما تريد؟

وأضاف بن جن قائلاً:

- ولو سألتنى متى، أقول لك من الظهيرة وحتى أجراس السادسة.

قلت:

- حسنًا، والآن هل من الممكن أن أذهب؟

استفسر بن جن بشغف قائلاً:

- يجب ألا تنسى "شىء نفيس" ولديه أسبابه، تلك هى العماد الأساسى بين الإنسان والإنسان، حسنًا جيم اذكرنى دائمًا، أعتقد أنك من الممكن أن تذهب وإذا رأيت سيلفر أرجو ألا تبيع بن جن له، فالخيول البرية لن تستطيع أن تجره، قل إنك لن تفعل يا جيم، ولو جاء القراصنة وعسكروا على الشاطئ يا جيم، ماذا ستقول إلا أن الخراب سوف يحل فى الصباح؟

وفى هذه اللحظة قطع حديثهما صوت مدو، كان طلقة مدفع مرت بجوارهما عبر الأشجار واستقرت فى الرمال على بعد عشرين ياردة تقريبًا حيث كانا يتحدثان، ثم مضى كل واحد منا بعد ذلك إلى اتجاه مختلف عن الآخر.

ولمدة ساعة ظلت الانفجارات المدوية تهز الجزيرة، استمرت القذائف التى تخترق الأشجار، كنت أتحرك من مكان لآخر حتى أختبئ، كنت أتحرك من مخبأ لآخر ساعياً لذلك قدر طاقتى، فقد كانت القذائف المرعبة تطاردنى .

وفى نهاية القذف لم أغامر فى اتجاه الحصن لأن القذائف كانت تسقط بالقرب منى، بدأت أشجع نفسى وأقوى قلبى حتى أصل، وبعد انعطاف طويل إلى الشرفة زحفت بين أشجار الشاطئ الجانبية.

غربت الشمس وبدأ حفيف نسيم البحر، وتعثرى فى الأشجار وإزعاج السطح الرمادى للشاطئ وكان المد أيضًا بعيداً، صار طريق الرمال العظيم واضحًا جعلنى للهواء بعد يوم حار ارتجف رغم الجاكيت.

مازالت تقبع السفينة هيسبنيولا حيث رست، لكن المتأكد منه أن هناك جول روجر - العلم الأسود للقراصنة - يرفرف على قمتها وحين نظرت فى اتجاهها رأيت فلاشاً من الضوء الأحمر وانفجاراً حوّل صدى صوته المكان إلى جلبة وضوضاء وصفرت قذيفة دائرية أخرى فى الهواء، كانت تلك آخر قذائف المدفعية.

رقدت لبعض الوقت أراقب الصخب الذى نجح فى الهجوم، كان الرجال يهدمون شيئًا ما بالفؤوس على الشاطئ بالقرب من الحصن، واكتشفت بعد ذلك القارب جولى المسكين البسيط بعيداً بالقرب من مصب النهر، نار عظيمة هبت عاليًا وسط الأشجار وبين تلك النقطة والسفينة وأحد من القاربين ظل يروح ويجىء، كان الرجال الذين رأيتهم مكتئبين ويصيحون على المجاديف مثل الأطفال.

لكن أحد هذه الأصوات كان يقترح ويطلب شراب الروم، اعتقدت بعد مدة أننى سوف أعود ثانية فى اتجاه الحصن، كنت بعيداً إلى حد ما على قطعة من الأرض الرملية المنخفضة التى تحوى المرسى (الهلب) إلى الشرق وموجودة فى ماء ضحل لجزيرة هيكلية، والآن كلما وقعت قدمى شاهدت من مسافة بعيدة تلك الأرض التى ترتفع بين الشجيرات جزيرة منعزلة عالية إلى حد ما، بيضاء إلى حد ما، ظهر لى أن تلك هى الصخرة البيضاء التى تحدث عنها بن جن، وفى يوم آخر سأجد قارباً وسأعرف أين أبحث عن هذا القارب.

وصرت أطوف بين الأشجار حتى توصلت للجزء الخلفى للحصن، ورُحب بى بحرارة من الجماعة المخلصة، أخبرتهم قصتى وبدأت أنظر وأتفحص وأنظر حولى، كان المنزل مصنوعا من كتل غير متساوية ومربعة من خشب الصنوبر وكذلك السقف والجدران والأرضية والشيء الثانى أنه يقف فى أماكن متعددة كثيراة مثل قدم أو قدم ونصف دون مستوى سطح الرمل، توجد شرفة على الباب وتحت تلك الشرفة توجد عين ماء لبئر حُفرت وموصلة بحوض صناعى من نوع غريب، لا تكون أكثر من غلاية جديدة للسفينة، سقطت واصطدمت بالقاع وشتت اتجاهاتها وسط الرمل كما قال الكابتن.

توجد أشياء قليلة بجوار إطار الحصن، لكن يوجد فى أحد الأركان بلاطة صخرية موضوعة بجوار الموقد وسلة حديدية صدئة كى تحتوى على النار، كانت منحدرات وسلالم الحصن وداخله مصنوعة من الخشب لبناء المنزل، استطعنا أن نفهم أن ذلك تم بواسطة جذوع الأشجار، ياله من بستان جيد وفارع الطول قد دُمر.

أغلب التربة انجرفت بعيداً أو دفنت بعد إزالة الأشجار. فقط حيث يجرى التعمير الصغير من خلال ثقب دائرى حيث توجد طبقة سميكة من الطحلب والنباتات وبعض الشجيرات القليلة التى تزحف وما زالت خضراء وسط الرمال، وهذا القرب من الحصن جعلها قريبة أيضًا من أجل الدفاع، قال الزملاء إن الأشجار ما زالت عالية وكثيفة وكل خشب التنوب على الجانب ولكنه مواجه للبحر بخليط كثير من أشجار البلوط.

كان نسيم الماء البارد حين أتحدث يصفر خلال شق هذا البيت السيئ ويرش الأرض بمطر مستمر من الرمال الناعمة، كانت الرمال فى أعيننا وفى أسناننا وفى طعامنا، رمل يرقص فى قاع الغلاية، كان بالنسبة للعالم مثل عصيدة بدأت فى الغلى، كانت مدخنتنا حفرة مروعة موجودة فى السقف، جزء قليل من دخانها يجد سبيله للخروج والباقى يدور بشكل عكسى ويجعلنا نستمر فى السعال وفرك أعيننا.

إضافة إلى هذا، كان جراى الرجل الجديد يربط وجهه بضمادة نتيجة للجرح الذى حدث له من الصراع مع الأشرار وكان توم رودروث الغلبان العجوز ما زال لم يدفن وراقداً على الحائط وممدداً وصلباً.

لو سمح لنا أن نكون كسالى لسقطنا فى البحر، لكن الكابتن سموليت لم يكن الرجل الذى يسمح بذلك، وكان كل الرجال تستدعى قبله، ويُقسمنا إلى مراقبين، كان الدكتور وجراى وأنا مجموعة والعمدة تريلونى وهنتر وجويس مجموعة أخرى، ورغم أننا نكون متعبين فإن اثنين منا يُرسلان للخارج من أجل إحضار الحطب لأجل المدفأة، واثنان آخران أعدا قبرًا لرودروث كما أن الدكتور كان يمارس مهام الطباخ، ووضعت على حراسة الباب، وكان الكابتن نفسه يذهب ويمر على الجميع ويرفع روحنا المعنوية ويساعدنا حيث يكون الأمر يحتاج ذلك.

كان الدكتور يأتى من وقت لآخر إلى الباب كى يشم بعض الهواء ويريح عينيه اللتين كانتا على وشك أن تخرجا من رأسه، وحين كان يفعل ذلك كان يتحدث معى ويقول:

– هذا الرجل سموليت أفضل منى، حين أقول ذلك أعنى أنه له قدر كبير يا جيم.

وأحيانًا كان يأتى إلىّ ويكون صامتًا للحظة ويضع رأسه على جانب وينظر إلىّ ويسألنى:

– هل بن جن إنسان؟

فأقول له:

– لا أعرف يا سيدى، أنا لست متأكدًا إن كان عاقلاً أم لا.

ويكرر الدكتور:

– هل هناك شك بكونه كذلك؟ فالرجل الذى أمضى ثلاث سنوات يحفر بأظافره فى جزيرة رملية لا نتوقع له أن يكون عاقلاً مثلك ومثلى! لم تكن تلك حالة إنسانية طبيعية، أليس الجبن هو أهم أحلامه وخياله؟

أجبت عليه:

– نعم يا سيدى، إنه يحلم بالجبن فعلاً.

قال:

– حسنًا يا جيم، فقط انظر للحالة الجيدة التى تأتى لكونك مبسوطًا من طعامك، لقد رأيت صندوقًا عطسى، أليس كذلك؟ لم ترنى مرة أعطس والسبب موجود فى هذا

الصندوق الذى بداخله قطعة من جبن بيرميزان الحريف وهو جبن صنع فى إيطاليا، لذيذ جداً ومغذ، حسنًا، هذا الجبن سيكون لبن جن!!

وقبل تناول العشاء دفنا توم العجوز فى الرمال وتحلقنا حوله للحظة عارى الرءوس فى النسيم البارد، كان الحطب المعد للمدفأة معقولاً فى المدفأة، لكنه لم يكن كافيًا لخيال الكابتن وقال لنا بعد أن اهتزت رأسه وأخبرنا أننا يجب أن نعود غدًا ونحن أكثر قوة، ثم تناولنا لحم الخنزير وشرب كل واحد منا شراب البراندى الرومى واجتمع الثلاث رؤساء معًا فى ركن وبدأوا مناقشة آمالنا وطموحاتنا.

كان من الواضح أنهم يفكرون ماذا سيفعلون وما معنا من خزين صار قليلاً لدرجة أننا من الممكن أن نتعرض للجوع فى حصارنا الطويل قبل أن يأتى المدد، وبالرغم من ذلك كان أهم آمالنا كما قررنا أن نقاتل هؤلاء القراصنة حتى ينسحبوا أو يهربوا بالسفينة هيسبنيولا، فقد أصبحوا خمسة عشر رجلاً بعد أن كانوا ثمانية عشر وجرح اثنان آخران وواحد آخر الذى كان يطلق المدفع جرح بشكل بالغ جداً إذا لم يكن قد مات، ففى كل مرة يكون فيها هجوم أو ضربة قوية عليهم، اعتدنا أن ننقذ أرواحنا ونحافظ عليها بعناية كبيرة وإضافة لذلك كان لدينا حليفان قادران على مساعدتنا وهما شراب الروم والطقس.

ورغم أننا كنا على بعد نصف ميل بعيداً عنهم فإننا كنا نستطيع أن نستمع إلى زئيرهم وغنائهم حتى وقت متأخر من الليل وراهن الدكتور بباروكته وأنه سيعسكر حيث كانوا فى المستنقع وغير مزود بأى أدوية وأن نصفهم على الأقل سيعاود الحضور مرة أخرى قبل أسبوع على الأقل.

وأضاف الدكتور قائلاً:

- إذا لم نطلق النار عليهم أولاً سيكونون سعداء أن يسافروا فى المركب، إنها دائمًا السفينة التى يستخدمونها فى القرصنة.

قال الكابتن سموليت:

- إنها أول سفينة افتقدها.

كنت متعبًا جدًا كما ترى، وحين ذهبت إلى النوم الذى لم أكن قد حصلت عليه إلا بعد قرعة كبيرة من شراب الروم، نمت مثل كلب الغابة.

ظل الباقون متيقظين طويلاً وتناولوا طعام الإفطار ورأيتهم زادوا كومة من الحطب الموجود فى المدفأة حتى نصفها مرة أخرى حين استيقظت بواسطة الضجيج وأصواتهم، وسمعت شخصًا يقول:

– اطلب الهدنة.

سمعت صرخة مملوءة بالدهشة:

– إنه سيلفر نفسه.

وعند تلك اللحظة قفزت وفركت عينيى وجريت إلى كوة فى الجدار كى أرى.

٢٠- دبلوماسية سيلفر

تأكدنا بدرجة كافية أن هناك اثنين يقفان خارج القلعة، يلوح أحدهما بقطعة قماش بيضاء والآخر يقف بهدوء وسكينة، لم يكن أى إنسان آخر غير سيلفر نفسه.

كان الوقت ما زال مبكرًا والصباح باردًا لدرجة أننى اعتقدت أننى فى الخارج، نفذت قشعريرة إلى داخل عظامى، كانت السماء لامعة والدفء بدأ يعم وقمم الأشجار تلمع فى الشمس، لكن سيلفر وزميله ما زالا يقفان فى الظل ويخوضان حتى ركبتيهما فى الضباب الأبيض المنخفض الذى زحف أثناء الليل من المستنقع، حكت القشعريرة والضباب حكاية بسيطة عن الجزيرة، حيث كانت جزيرة كئيبة تتفشى فيها الحمى وتعتبر بقعة غير صالحة، قال الكابتن لنا:

- كونوا فى داخل الحصن أيها الرجال، فعشرة رجال مقابل واحد خدعة لا محالة.

ثم نادى على القرصان:

- من يتحرك هناك، قف وإلا أطلقت النار.

صرخ سيلفر:

- أطلب الأمان والهدنة.

كان الكابتن فى الشرفة يحافظ على نفسه جيداً من أى طلقة غادرة فيجب أن يكون حريصًا، واستدار لنا وقال:

- يراقب الدكتور المخارج، لو سمحت يا دكتور ليفزى راقب الناحية الشمالية وأنت يا جيم راقب الشرق وأنت يا جراى راقب الغرب، المراقبة للأسفل، كل الزملاء يجب أن يعمروا البنادق بالذخيرة، احترس يا دكتور ليفزى، احترسوا أيها الرجال.

واستدار مرة أخرى للمتمردين وصرخ قائلاً:

- وماذا تريد من تلك الراية، راية الهدنة؟!

رد الرجل الآخر فى هذا الوقت قائلاً:

- يدعوك الكابتن سيلفر للحضور على السفينة وعمل الشروط اللازمة لذلك.

صرخ الكابتن قائلاً:

- الكابتن سيلفر، ألا تعرفه، من هو؟

واستمعنا إليه يدافع عن نفسه قائلاً:

- إنه الكابتن الذى تم ترقيته.

أجاب لونج جون لنفسه قائلاً:

- أنا يا سيدى، هؤلاء الفتيان اختارونى ككابتن بعد هجرانك للسفينة وتركك لها، وأتكأ على كلمة هجرانك ونحن على استعداد للطاعة والخضوع لك إذا توصلنا إلى شروط لا مشاكل فيها، كل ما أطلبه كلمتك يا كابتن سموليت، لكى تتركنى فى أمان وأكون خارج هذا الحصن فى خلال دقيقة واحدة كى ألحق إطلاق النار قبل أن يبدأ.

قال الكابتن سموليت:

- أيها الرجل، ليس لدى الرغبة أن أتحدث إليك إذا أردت أن تتحدث إلىّ، من الممكن أن تأتى وتدخل، أما إذا كان هناك أى خيانة من جانبنا ستكون لصالحك وسوف يساعدك الرب إذا خدعناك

صرخ لونج جون قائلاً بفرح:

- هذا يكفى يا كابتن، كلمة واحدة كافية، أنا أعرفك، رجل بمعنى الكلمة ومن الممكن أن تلتزم بذلك.

رأينا الرجل الذى يحمل الراية يحاول أن يجعل سيلفر يتراجع، لم يكن ذلك رائعًا، ورأينا كم كان رد الكابتن متعاليًا ومتعجرفًا، لكن سيلفر سخر من رفيقه بصوت عال

وصفعه على قفاه صفعة ذكرتنى بإنذار جرس غريب، ثم تقدم إلى الحصن يتكئ على عكازه يقفز عاليًا بقوة وحيوية ومهارة مكنته من تخطى السور والسقوط بأمان فى الجانب الآخر.

أعترف أننى كنت بعيدًا جدًا عن الحدث ولكنى انشغلت بما يحدث ويدور وأردت أن أكون فى مسرح الأحداث كحراسة، حقًا لذا هجرت شرفتى الشرقية وزحفت خلف الكابتن الذى رمى نفسه جالسًا على العتبة، واضعًا مرفقيه على ركبتيه ورأسه فى يديه وعيناه كانتا مثبتتين على الماء الذى يغلى ويبقبق من الغلاية الحديدية القديمة فى الرمال، كان يصفر لنفسه "تعالوا أيها السادة".

عانى سيلفر كثيرًا حتى صعد الهضبة الصغيرة التى كانت بانحدار شديد الميل، والشجرة السميكة قد بُترت والرمال كانت ناعمة وهو وعكازه لم يكونا مساعدين له مثلما كانا فى السفينة، لكنه كان ملتصقًا به مثل رجل فى صمت مطبق.

وأخيرًا وصل عند الكابتن الذى حياه بأسلوب مهذب ولطيف، كان يحتال أن يخرج أحسن ما بداخله، كان يرتدى معطفًا أزرق ضخمًا، سميكًا بأزرار نحاسية معلقة ومتدلية حتى تكاد تصل لركبتيه ويرتدى طاقية معقودة برباط موضوعة على رأسه من الخلف، قال له الكابتن رافعًا رأسه:

- تفضل، يجب أن تجلس.

اتكأ لونج جون قائلاً:

- ألا يجب أن تتركنى أدخل يا كابتن؟! إنه صباح بارد بشكل كبير لكى أجلس فى الخارج على الرمال.

قال الكابتن:

- لماذا يا سيلفر؟ فلو كنت رجلاً أمينًا لكنت الآن فى مطبخ السفينة، تؤدى دورك، لقد كنت طباخ سفينتى والآن تعامل ككابتن سيلفر القرصان والمتمرد المعروف وسوف تُعلق بعد ذلك.

عاد طباخ البحر يجلس كما كان على الرمال وقال:

- حسنًا يا كابتن، يجب أن تساعدنى مرة أخرى، هذا كل ما فى الأمر، إنه مكان جميل تمتلكه هنا، آه، يوجد جيم! صباح رائع عليكم جميعًا يا جيم، يا دكتور، أنا تحت أمركم لماذا أراكم جميعًا هنا كعائلة سعيدة حين تتحدثون.

قال له الكابتن:

- لو كان لديك شىء من الأفضل أن تقوله.

أجاب سيلفر قائلاً:

لقد كنت على صواب يا كابتن سموليت، لا يصح إلا الصحيح، كن متأكداً من ذلك، وحسنًا فعلت أن كونت هذا الجمع من أصحابك الليلة الماضية، لا أستطيع أن أنكر أنه جمع جيد، فبعض منكم يكون رائعًا فى استخدام أدواته وأنا لا أنكر ذلك، ولكن ماذا عن صدمة بعض رجال بشأن ذلك، ربما الكل يكون مصدومًا، وربما أنا نفسى أكون مصدومًا ولأجل ذلك ربما أكون هنا لأجل التفاوض، ولكنك تشترط على يا كابتن، لن يفعل ذلك مرتين بواسطة العاصفة، سوف نضطر أن نقوم بحراسة متحركة وتخفيف إحدى النقاط حين نضطر لشراب الروم، ربما تعتقد أننا شراع فى مهب الريح، لكنى أود أن أقول إننى هادئ وإننى أكبح نفسى الآن، وحين أستيقظ بعد ذلك قريبًا سأكون مثلك فى الفعل.

لم يكن سليفر ضعيفًا حتى استدرت إليه، فعلاً لم يكن كذلك.

قال الكابتن سموليت الذى يحتفظ ببرودة قدر استطاعته:

- حسنًا.

كل ما قاله سيلفر كان لغزًا بالنسبة له، لكنك لن تستطيع أن تخمن ذلك من نغمة صوته، بالنسبة لى بدأت أشك وجاءت كلمات بن جن الأخيرة إلى عقلى، اعتقدت أنه أعطى القراصنة أوامر أن يأتوا أثناء تحلقهم ليشربوا الروم حول النار، وركنت للفكرة بفرح غامر إلا أن لدينا أربعة عشر عدوًا سوف نتعامل معهم، قال سيلفر:

- حسنًا، سأقول لك نحن نريد هذا الكنز وسوف نحصل عليه، هذا هو هدفنا، وكل ما تريدونه أنتم إنقاذ حياتكم، أنتم لديكم الخريطة أليس كذلك؟

أجاب الكابتن:

- ربما.

أعاد لونج جون سيلفر:

- حسنًا، أنتم تمتلكونها، أنا أعرف ذلك ولستم مضطرين أن تكونوا عنيفين مع رجل لا ينوى أى تعامل مع ذلك وأشك أن تفعلوا ذلك، ما أقصده أننا نريد الخريطة والآن، لا أقصد أبدًا أى أذى لكم عن نفسى.

فقاطعه الكابتن سموليت قائلاً:

- هذا لا يُفعل معى يا سيد، نحن نعرف بالضبط ماذا تريد أن تفعل، ونحن لا نهتم بذلك والآن هل ترى أنك تستطيع أن تفعل شيئًا؟

ونظر إليه الكابتن سيموليت بهدوء وتحرك لكى يملأ البايب، اندفع سيلفر قائلاً:

- لو أن جراى..

صرخ السيد سموليت قائلاً:

- جراى لم يقل لى شيئًا، ولم أطلب منه شيئًا وما حدث أننى رأيتك ورأيته وكل الجزيرة تهب لتخرج من الماء إلى انفجارات وحرائق وهذا الذى أحمله لك أيها الرجل فى رأسى لا شىء أكثر.

يبدو أن تلك النفحة من الغضب قد بردت سيلفر وردت إليه عقله، فقد كان قد بدأ يغضب من قبل، لكنه الآن سيطر على نفسه، قال سيلفر:

- إلى حد ما، لن أضع أى حدود للذى يجب أن يعتقده السيد سموليت بشأن السفينة وأحوالها وأرى أنك على وشك أن تأخذ البايب يا كابتن وسأفعل مثلك وأدخن البايب

وملأ سيلفر غليونه هو الآخر وأشعله وجلس الاثنان يدخنان فى صمت لفترة من الوقت، الآن ينظران لبعضهما بعضًا وتوقفا عن التدخين معًا واتكأ للأمام لكى يبصقا وكأنهما يؤديان دورًا فى مسرحية بشكل جيد، واستأنف سيلفر حديثه قائلاً:

– أعطينا الخريطة التى تساعدنا على العثور على الكنز، وتتوقفون عن إطلاق النار حتى لا تزعجوا هؤلاء البحارة المساكين أثناء نومهم، وسنفعل ذلك، وسوف نعرض عليك أمرين لتختار منهما، إما أن تبحروا معنا على السفينة بعد أن ننقل إليها الكنز وساعتها أعطيكم كلمة شرف أن أنزلكم فى المكان الآمن الذى تريدونه أما إذا كنت تعتقد أن رجالى سوف يتحرشون بكم ويحاولون أن يصفوا حساباتهم على الفترة السابقة فتستطيع أن تبقى هنا فى هذه الجزيرة ولسوف أقسم معكم ما معنا من مؤن، رجل برجل. وأعدكم بشرفى أننى سوف أتحدث مع أول سفينة أراها وأرسلها كى تأتى إليكم و تأخذكم والآن لك الخيار فى هذا الكلام، أعتقد أنك لم تكن تتوقع ذلك، ورفع صوته قائلا:

– أعتقد أن كل الرجال فى هذا الحصن سوف يدركون ويتفحصون كلماتى وما قلته لواحد أقوله للجميع.

وقف الكابتن سموليت من مقعده، نفض غبار الغليون فى النخلة التى على يمينه وسأله:

– هل هذا كل ما تريد؟!

قال سيلفر:

– هذه كلمتى الأخيرة ورفضها يعنى أنك لم يعد لك عندى شىء إلا إطلاق النار.

قال الكابتن:

– حسن جداً، والآن استمع لى جيداً، إذا جئتم إلىّ واحداً واحداً وعزلاً من السلاح، سوف أضع فى أيديكم الأغلال وأخذكم للوطن كى تحاكموا محاكمة عادلة فى إنجلترا وإذا لم تفعلوا، فأسمى إلكسندر سموليت وأضع على سفينتى علم السيادة والملكة وأراكم جميعًا ستذهبون إلى دافى جونز ولن تجدوا الكنز ولن تستطيعوا قيادة السفينة، لا أحد منكم قادر على الإبحار بالسفينة ولن تستطيعوا أن تقاومونا، جراى وخمسة منكم هربوا، سفينتكم مسجونة يا سيلفر، فأنت على شاطئ لى، وسوف تجد ذلك، سأقف هنا وسأخبرك بذلك وتلك هى آخر كلمات سوف تسمعها منى، بسم الله

سوف أطلق عليك النار حين أقابلك متشردا، يا شباب ارموا هذا الرجل خارجًا لو سمحتوا وبسرعة.

تحول وجه سيلفر تمامًا، تغير، فعيناه ظهر عليهما الغيظ الشديد، وقذف النار من الغليون وصرخ:

- أرجو أن تساعدنى.

رد الكابتن:

- لا!!

زأر سيلفر قائلاً:

- من يساعدنى أيها الرجال؟!

لم يتحرك أحد منا من الرجال، تذمر الأكثر قذارة ولعنة وزحف عبر الرمال حتى خرج من الشرفة، واستطاع أن يرفع نفسه مرة أخرى على عكازه، ثم تشاحن وتشاجر وصرخ قائلاً:

- هناك، هذا ما اعتقدته منك، قبل ساعة وسوف أشعلها نارًا فى بيتك القديم، أضحك ما شئت أن تضحك، فلن تمر ساعة وسوف أضحك عليك وأسخر منك، والذين سيموتون منكم سيكونون محظوظين بسبب العذاب الذى ستراه.

وبعد تجديف مرعب تعثر فيه ثم ساعدته ليعبر الحصن بمساعدة الرجل الذى يحمل الراية بعد أن فشل أربع مرات أو خمس ثم اختفى بعد ذلك وسط الأشجار.

٢١- الهجوم

وبمجرد أن اختفى سيلفر الذى كان يراقبه الكابتن جيداً، تحول الكابتن سموليت لداخل المنزل، فلم يجد أحداً من الرجال فى مكانه الذى خصصه له لمراقبة القراصنة ما عدا جراى، كانت المرة الأولى التى أراه غاضباً فيها، زأر بغضب قائلاً:

- سيئون!!

ثم انسل كل واحد منا عائداً إلى مكانه مرة أخرى وقال:

- جراى.. سأضع اسمك فى لوحة الشرف، لقد قمت بواجبك على أكمل وجه مثل بحار حقيقى، يا سيد تريلونى أنا مندهش منك، وأنت يا دكتور، كنت أعتقد أنك ترتدى ثوب الملك، كيف خدمت فى فونتينوى، كان من الأفضل لك أن تكون فى حجرتك فى السفينة.

عاد الدكتور مرة أخرى والرجال لمراقبة ظهر الحصن من خلال كواتهم وذهب الباقى إلى حشو البنادق الخالية من الذخيرة، وكان كل واحد خجلان مما فعل وحطت على رؤوسهم الطير جميعاً ولم يشعر أحد منا بلدغ البرغوث فى أذنه، فنظر الكابتن للجميع برهة فى حالة صمت وقال:

- أيها الرجال، لقد أعطيت سيلفر رداً حاسماً وكنت عنيفاً جداً معه وأقصد ذلك، وقبل أن تمر ساعة، كما قال يجب أن نكون جاهزين لاستقبال ذلك، وعددنا أقل منهم، أنا لست مضطراً أن أقول ذلك لكننا سوف نحاربهم ونحن محصنون فى هذا المأوى لقد قلت من دقيقة مرت أننا يجب أن نقاتل فى نظام وليس لدى شك أننا نستطيع أن نهزمهم إذا اخترتم ذلك.

ثم أخذنا عدة دورات حول الحصن ورأينا أن ما قال كان واضحاً، كان على جانبى المنزل فى الشرق والغرب توجد فقط كواتان، فى الجانب الجنوبى حيث توجد الشرفة يوجد اثنان أيضاً وفى الشمال يوجد خمس كوات، وتوجد علامة دائرية

للبنادق لسبعة منا وقد تم بناء مدفأة تأخذ أربع كومات على طاولة، ستكون واحدة فى المنتصف لكل جانب وعلى كل مائدة من هذه بعض الذخائر وأربع بنادق محشوة موضوعة وجاهزة كى تكون فى أيدى المدافعين وفى المنتصف توجد السيوف موضوعة وجاهزة فى مجال الرمى، قال الكابتن:

– أطلقوا النار، لا خوف الآن يجب ألا نتزعزع أبداً.

امتلأت سلة النار الحديدية عن آخرها بواسطة تريلونى، وكانت جمرات النار تخمد بين الرمال، استمر الكابتن سموليت قائلاً:

– هوكنز لم يتناول فطوره، هيا ساعد نفسك وعد إلى مكانك لكى تأكل، يجب أن تفعل ذلك يا بنى قبل أن تبدأ عملك، وأنت يا هنتر، قدم كؤوس الكونياك لجميع الرجال.

وأثناء ذلك أكمل الكابتن سموليت خطته للدفاع عن المكان واستأنف الكابتن حديثه قائلاً:

– وأنت يا دكتور سوف تتولى مسئولية الباب، تراقبه ولا تعرض نفسك، كن فى الداخل وأطلق النار من خلال الشرفة وهنتر يتولى تأمين الجانب الشرقى وجويس يقف بجوار الغرب وشجعنا السيد تريلونى أحسن رام موجود بيننا، أنت وجراى تتولان مسئولية هذا القطاع الشمالى الطويل، ومعكم خمس كوات تطلقون منهم النار، إنه المكان الأخطر، لأنهم لو استطاعوا أن يسيطروا على هذا المكان بعد الصعود إليه، ستأتينا النار من خلاله وساعتها سيكون الأمر سيئًا جدا، وأنت يا هوكنز وأنا سوف نقف مستعدين وسيكون دورنا تقديم المساعدة وتعمير السلاح وتقديمه للزملاء.

لأن الكابتن قال إن الخوف كان قديمًا، فبمجرد أن بدأت الشمس تتسلق فوق شواش الشجر أسقطت قوتها فوق هذا وشربت بخار الماء الموجود فى المكان وبدأ الرمل يسخن والصمغ يذوب فى الكتل التى تكون المنزل، الجواكيت والمعاطف تطير على جانب والقمصان تفتح حتى الرقبة وتدور حول الكتف، ووقفنا هناك، كل واحد فى مكانه، مرت الساعة فى حالة حماس كبيرة وقلق، قال الكابتن:

– اشنقوهم، هذا الأمر كئيب مثل الحزن، جراى، صفر من أجل العاصفة والاستعداد.

وبعد لحظة فقط جاء أول أخبار للهجوم، قال جويس:

– لو سمحت يا سيدى، لو رأيت شخصًا ما هل أطلق عليه النار؟!

صرخ الكابتن:

- لقد قلت ذلك من قبل.

عاد جويس بأدب مرة أخرى وقال:

- أشكرك يا سيدى.

لم يحدث شيء لبعض الوقت، لكن الملاحظة التى كانت موجودة أن الجميع كان فى حالة استعداد، مصغين آذانهم وفاتحين عيونهم، الجنود المسلحون واقفون بأسلحتهم جاهزة فى أيديهم، كان الكابتن يقف فى منتصف المنزل والحصن غالقًا فمه وعابسًا وجهه.

مرت بعض الثوانى حتى أطلق جويس النار فجأة، بدأ الانفجار يضمحل ويخفت تمامًا قبل أن يكرر ويكرر ثانية بوابل من الرصاص والدانات الطائرة والمبعثرة، كانت الطلقة وراء الطلقة مثل خيط من الأرز يأتى من كل جانب من السياج الذى حولنا، أصابت العديد من الطلقات الحصن، لكن لم تدخل أى واحدة وتعالى الدخان فى الخارج وبدأ يتلاشى، ظهر الحصن والغابة هادئين مرة أخرى وفارغة وكأن أحدًا لم يكن موجودًا فيها من قبل، لا غصن شجرة يتحرك ولا بريق لأى سلاح أشار لوجود الأعداء، سأل الكابتن:

- هل أصبت عدوك؟!

أجاب جويس:

- لا يا سيدى، أعتقد لا يا سيدى.

تذمر الكابتن قائلاً:

- من الأفضل أن تقول الحقيقة، احش بندقيتك يا هوكنز، كم واحدًا من الواجب أن يكونوا فى جانبك يا دكتور؟

قال الدكتور ليفزى:

- أنا متأكد جدًا أن القذائف الثلاث أطلقوا من هذا الجانب، لقد رأيت ثلاث فلاشات، اثنتان متجاوران وواحدة أبعد قليلاً إلى الغرب.

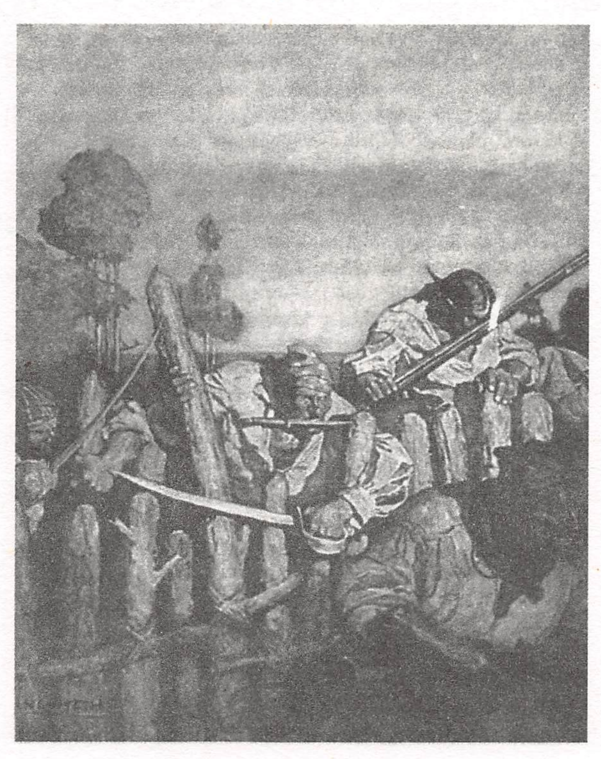
كرر الكابتن:

- ثلاث.. وكم قذيفة جاءت من جانبك يا سيد تريلونى؟

ولكن لم تكن الإجابة سهلة، فقد جاءت الكثير من القذائف من الشمال، فقد كانوا سبعة بحساب العمدة تريلونى، وثمانية أو تسعة طبقًا لحساب جراى، ومن الشرق والغرب جاءت قذيفة وحيدة مفردة، كان ذلك واضحاً، وعلاوة على ذلك تم تطوير الهجوم من جهة الشمال وعلى الجوانب الثلاثة الأخرى، كنا متضايقين من رؤية العدوان والهجوم، لكن الكابتن سموليت لم يقم بعمل أى تغيرات على الخطة، فتجادل قليلاً:

– لو أن المتمردين نجحوا فى عبور الحصن، سوف يسيطرون على أى كوات غير محمية وسوف يصلون إلينا وسنكون مثل الفئران فى جحورها.

لم يترك لنا وقت كبير للتفكير، فقد بدأوا الهجوم وارتفعت الأصوات وقفزت سحابة من القراصنة من الغابة على الجزء الشمالى وهرولوا مباشرة إلى الحصن، وفى نفس اللحظة فُتحت النار بكثافة من الغابة، وكأن قذائف القنابل تزغرد فى المدخل وكسرت سلاح الدكتور ليفزى.



تسلق القراصنة فوق السور مثل القردة

تسلق القراصنة فوق السور مثل القردة، أطلق تريلونى وجراى النار مرات ومرات، سقط ثلاثة رجال أحدهم كان أمام السياج واثنان للخلف فى الخارج وكان أحدهم مرعوباً جداً أكثر من خوفه من إيذائه، لذا وقف مرة أخرى على قدميه فى ضعف شديد واختفى بين الأشجار.

مات اثنان وهرب آخر، ووضع أربعة أقدامهم داخل أماكن دفاعاتنا، بينما سبعة رجال أو ثمانية فى الغابة يزودونهم بعديد من البنادق ويحمسونهم برغم إطلاق النار غير المقيد على الحصن.

تقدم الأربعة الذين دخلوا الحصن مباشرة قبلهم إلى المبنى يطلقون النار وهم يجرون والرجال الذين بين الأشجار يطلقون النار ليزيدوا من حماسهم ويشجعونهم، العديد من الطلقات انطلقت ولكنها كانت متسرعة وبلا طائل، لدرجة أنه لم تُظهر أى واحدة أى تأثير، فى لحظة تسلق القراصنة الأربعة السطح وصاروا فوقنا، ظهرت رأس ربان الملاحين جوب أندرسون فى الكوة التى فى المنتصف.

فى نفس اللحظة أمسك قرصان آخر فوهة بندقية هنتر وضربه فى يده وجذبها منه، أخذها من خلال الكوة بضربة واحدة مذهلة أسقطت زميلنا المسكين على الأرض بدون حراك وفى نفس اللحظة جرى ثالث غير مجروح حول المنزل وظهر فجأة فى المدخل وسقط بخنجره على الدكتور ليفزى.

كان مكاننا محجوزاً تماماً منذ اللحظة التى كنا نطلق النار عليهم تحت غطاء وعلى عدو مكشوف لنا، الآن نحن لسنا مكشوفين للعدو ولا يستطيع العدو إطلاق النار مرة أخرى، امتلأ الحصن الآن بالدخان الذى ندين له بسلامتنا إلى حد ما فى اختفائنا عن أعينهم، ارتفع الصراخ والارتباك والانفجارات من طلقات البنادق وسمعت صوت صراخ وأنين أحدهم فى أذنى عالياً.

صرخ الكابتن قائلاً:

- اخرجوا أيها الرجال، القتال فى الهواء الطلق، خذوا خناجركم.

أخذت أحد الخناجر من كومة موجودة، وفى أثناء خطف خنجر آخر ضربنى شخص ما ضربة على مفصل الإصبع فشعرت بها بقوة، اندفعت إلى خارج الحصن

حيث ضوء الشمس، تبعني شخص يطاردني، لم أكن أعرف من هو، من اليمين أو من الأمام، كان الدكتور يتابع أحد المهاجمين أسفل التل، وبمجرد أن وقعت عيني عليه، وجدت الدكتور قد هزمه وجعله ممدداً على ظهره بعد أن أصابه بضربة عظيمة في وجهه، صرخ الكابتن:

- تحركوا حول الحصن يا شباب، حول المنزل يا رجال.

وأثناء الهرج والمرج شعرت أن صوت الكابتن قد تغير، أطعت ما قاله الكابتن بشكل آلي وعدت ناحية الشرق ودرت حول ناصية المنزل وأنا رافع خنجري وصرت في اللحظة التالية في مواجهة أندرسون وجهاً لوجه، زأر بصوت عال وكان سيفه الصغير فوق رأسه يومض في ضوء الشمس، لم يكن لدي وقت كي أخاف ولكن لأن الضرب ما زال وشك الحدوث، قفزت في لحظة على أحد الجوانب و وضعت قدمي في الرمل الناعم وتدحرج بشكل متسرع على المنحدر.

وعندما نظرت لأول مرة من الباب كان المتمردون قد تسلقوا السياج حتى يضعوا نهاية لنا، كان الرجل الذي يرتدي طاقية حمراء وخنجره في فمه قد صعد إلى القمة، حسنا كم كان الفاصل قصيراً حين وجدت قدمي مرة ثانية في نفس ذات الموضع، وكان الزميل صاحب القبعة الحمراء ما زال في منتصف المسافة فوقه وآخر كان يُرينا رأسه فوق قمة الحصن، وفي هذا الوقت بدأنا نشم أنفاسنا وانتهت المعركة وكانت لصالحنا.

كان جراي الذي يتبعني قد ضرب كبير الملاحين في السفينة قبل أن يمتلك وقتًا لكي يشفي من ضربته الضائعة، آخر أطلق النار على الكوة في أثناء الضرب على المنزل والآن يرقد في عذاب وكرب والبندقية ما زالت تدخن في يده، وثالث حين رأيته، كان الدكتور قد تصرف بالضرب، أما الرابع الذي تسلق السياج والسطح هو الوحيد الذي بقي غير محسوب وترك خنجره في الميدان ويجاهد الآن للهرب خوفًا من الموت، صرخ الدكتور:

- النار.. النار من المنزل، خذ لك ساتراً أيها الشاب.

كانت هذه الكلمات بدون عناية، فلم يطلق النار وآخر مهاجم لنا استطاع أن يهرب ويختفي مع الباقي في الغابة في خلال ثلاث ثوان لم يبق شيء من جماعة الهجوم باستثناء الخمسة الذين سقطوا، أربعة داخل الحصن والآخر خارج السياج.

جرى الدكتور وجراى وأنا بكل سرعتنا حتى نذهب إلى المأوى، فالناجون سوف يعدون بسرعة إلى حيث تركوا بنادقهم وفى أى لحظة سوف يعود إطلاق النار مرة أخرى، كان المنزل قبل هذا الوقت يغطيه الدخان، ولقد رأينا فى لمحة الثمن الذى دفعناه للنصر، كان هنتر ينام بجوار كوته و مذهولاً يقف بجواره جويس، كان مقتولاً بطلقة فى رأسه، لم يتحرك مرة ثانية، بينما كان يمين المنتصف يقف العمدة تريلونى يدعم ويساعد الكابتن، كلاهما شاحب مثل الآخر، قال تريلونى:

– لقد جرح الكابتن.

سأله سموليت:

– هل هربوا؟!

رد الدكتور:

– الجميع هربوا، من الممكن أن تقفز للداخل، يوجد خمسة منهم لن يعودوا ثانية أبداً.

صرخ الكابتن:

– خمسة، هذا رائع، خمسة ضد ثلاثة، تركوا لنا أربعة إلى تسعة، هذه احتمالات جيدة عما بدأنا، كنا ساعتها سبعة ضد تسعة عشر رجلاً وكان ذلك سيئًا وصعب التحمل(*).

(*) كان المتمردون ثمانية تقريباً إضافة للرجل الذى أطلق عليه النار بواسطة تريلونى على سطح السفينة ومات متأثراً بجراحه فى نفس المساء، لكن ذلك لم يعرف بالطبع حتى بعد أن عرف بواسطة جماعة المؤمنين (مذكرات إستيفنسون).

الجزء الخامس

(مغامرتي البحرية)

٢٢ - كيف بدأت مغامرتى البحرية

لم يعد هناك أى عودة للمتمردين مرة أخرى، لم يصبحوا كثرة مثل الطلقات التى تخرج من الغابة، لقد حصلوا على حصتهم لهذا اليوم كما أراد لهم الكابتن، ووجدنا مكانًا لأنفسنا، ووقت هادئ كى نفحص الجرحى ونتناول العشاء، استطاع العمدة تريلونى وأنا أن نطبخ فى الخارج رغم الخطر، وحتى فى الخارج استطعنا بالكاد أن نحدد ما الحالة التى نحن عليها وذلك بسبب الرعب من الأنين العالى الذى يصلنا من مرضى الدكتور.

من الثمانية الذين سقطوا فى الأحداث، فقط ثلاثة ما زالوا يتنفسون، كان أحدهم ذلك القرصان الذى أطلق عليه النار فى الكوة وهنتر والكابتن سموليت، ومن الثلاثة اثنان كانا مثل الأموات وهما القرصان وهنتر، فقد مات القرصان فعلاً تحت وطأة سكين الدكتور، وفعلنا ما نستطيع أن نفعله لصالح هنتر، لكنه لم يسترد وعيه مرة ثانية فى هذا العالم، كان بطيئًا طوال اليوم ويتنفس بصوت عال مثل القرصان العجوز الذى مات بالسكتة فى البيت، بينما كان صدره قد كسر بفعل الضرب وجمجمته قد شقت حين سقطت وقضى بعض الوقت فى الليل بلا صوت أو حركة ثم مضى إلى خالقه.

وبالنسبة للكابتن كان جرحه مؤلمًا جدًا لكنه لم يكن خطيرًا، فلم يُجرح أى عضو جرحًا مميتًا، فطلقة أندرسون كسرت كتفه ولمست رئتيه لكنها لم تكن سيئة ومزقت وأزاحت بعض عضلات فى الساق، كان متأكدًا أنه سوف يشفى كما قال الدكتور، لكن أثناء ذلك ولعدة أسابيع قادمة يجب ألا يمشى أو يحرك ذراعه، ولا يتحدث كثيرًا حين يود أن يفعل ذلك.

كان جرحى عارضًا عبر المفاصل، كان مثل لدغة ناموسة وضع الدكتور عليها بلاستر وشد أذنى بالإضافة لشىء آخر.

بعد تناول الطعام جلس تريلونى والدكتور بجوار الكابتن يتشاورون وعندما تحدثوا عما فى قلوبهم، كان ذلك قبل الظهيرة بقليل، أخذ الدكتور قبعته ومسدس ولف حزام الخنجر ووضع الخريطة فى أحد جيوبه وبندقية فوق كتفه وعبر السياج من جهة الشمال وبدأ رحلته بخفة عبر الأشجار.

كنت أجلس مع جراى فى الركن البعيد من المنزل الحصين، كى نكون بعيدين عن أى كلام يأتينا من تشاور قادتنا، وقد أخذ جراى البايب من فمه ونسى أن يضعه ثانية، لذا كان متضايقًا جدًا فى هذا الوقت، قال جراى:

– لماذا.. باسم آلهة البحار ديفى جونز.. هل الدكتور مجنون؟!

قلت:

– ولم لا؟ لكنه آخر من يُجن فى هذا العالم.

قال جراى:

– حسنًا يا زميلى، وربما لا يكون ولكن إذا لم يكن كذلك فأنت أكدت كلامى أننى قد أكون على حق.

قلت له:

– أعتقد أن الدكتور لديه فكرة، لو أنا على صواب، أعتقد أنه ذاهب الآن لرؤية بن جن.

لقد كنت على صواب كما ظهر بعد ذلك، وفى أثناء ذلك كان المنزل حارًا جدًا وخانقًا والرقعة الصغيرة للرمال داخل السياج تشتعل بفعل شمس منتصف النهار الحامية، بدأت تختمر فكرة برأسى، لم تكن صحيحة على أى حال من الأحوال وبدأت أحسد الدكتور الذى خرج يتمشى فى الظل البارد للغابة والطيور حوله ورائحة الصنوبر الرائعة تحيطه، بينما أنا أتعذب وأكتوى من الحر وملابسى تلتصق بى بفعل الصمغ الحار ورائحة الدم حولى، شعرت بالقرف من المكان كله، فقد كان قويًا مثل الخوف.

ظللت طوال الوقت أغتسل خارج المنزل وأغسل أواني الطعام، ظل إحساس القرف والحسد ينموان ويقويان بداخلي حتى اقتربت أخيرًا من كيس الخبز حيث لم يلاحظني أحد وأخذت أولى خطواتي تجاه هروبي من هذا الجحيم وملأت جيوب معطفي بالبسكويت.

لقد كنت أحمق ولو أحببت أن تقول إنني ذاهب لفعل شيء أحمق وأكثر وقاحة وجرأة ولكني عزمت أن أفعله رغم التحذيرات التي أخذتها، فهذا البسكويت سوف يساعدني أن أبقى على قيد الحياة طوال اليوم التالي، والشيء الثاني الذي أخذته زوج مسدسات، كما أخذت بعض الذخيرة وشعرت بأنني مزود تمامًا بالسلاح.

وطبقًا للخطة التي وضعتها في رأسي والتي لم تكن سيئة في حد ذاتها، ذهبت إلى بقعة رملية تُقسم المرسى إلى الشرق من البحر المفتوح حيث وجدت الصخرة البيضاء التي لاحظتها في المساء الأخير وتأكدت أنها هناك، وإذا كان بن جن أخفى زورقه عندها، كان بالفعل شيء يستحق كما أعتقد لكني كنت أعتقد أيضًا أنني يجب ألا أغادر المكان، كان هدفي أن آخذ زيارة حقيقية وقصيرة وأن أخرج حين لا أحد يراقبني وهو في حد ذاته شيء سيئ للتعامل، وهذا يجعله الشيء نفسه خطأ ولكني كنت شابًا وكنت أشغل ذهني كثيرًا.

حسنًا، ولأن الأشياء بدأت تتضح في الأيام الأخيرة وجدت فرصة مناسبة، حين كان العمدة تريلوني وجراي مشغولين بمساعدة الكابتن في وضع ضمادات على الجرح، كان الشاطئ خاليًا، فقمت بالفرار من فوق الحصن ثم اختفيت في الأشجار الكثيفة وقبل أن يُلاحظ غيابي كنت خارج صرخات زملائي.

كان هذا هو الخطأ والحماقة الثانية التي كانت أكثر سوءًا من الأولى، لأني غادرت ولم يكن هناك غير اثنين من الرجال لحماية الحصن، لكنها تتشابه مع الأولى في أنني كنت أود أن أساعد في حمايتنا جميعًا.

أخذت طريقي المباشر إلى الساحل الشرقي للجزيرة، عزمت أن آخذ طريق البحر كي أتجنب كل فرصة كي ألاحظ من المرسى، كان الوقت متأخرًا في الظهيرة بالرغم من أن الجو ما زال دافئًا وحارًا، عندما كنت أعبر الأشجار العالية بحذر سمعت من

بعيد ليس فقط صوت الرعد المستمر للموج ولكن أيضًا سقوط أوراق الشجر وطنين الأغصان التى أرتنى نسيم البحر الذى يرتفع عن ذى قبل وبدأت الرياح الباردة تهب وتصلنى، وبعد خطوات قليلة وصلت إلى الحدود المفتوحة للبستان وأرى البحر يقبع فى زرقته والشمس تبدو فى الأفق البعيد والأمواج تتقاذف وتصنع رغاويها عبر الشاطئ.

لم أر البحر هادئًا حول جزيرة الكنز، كانت الشمس حارة فوق الرؤوس وكان الهواء بلا نسمة وسطح البحر يبدو أملس وأزرق وما زالت بعض الأمواج الطويلة تجرى عبر الشاطئ الخارجى، و يزداد صوت الرعد ليلاً ونهاراً حتى اعتقدت أنه لا يوجد أى مكان فى الجزيرة حيث يجب أن يكون الإنسان بعيدا عن سماع تلك الضوضاء العالية.

كنت أسير بجوار الأمواج بمتعة كبيرة حتى اعتقدت أننى الآن ذهبت بعيداً بدرجة كافية إلى الجنوب، أخذت بعض الشجيرات الكثيفة ساتراً وزحفت بحذر عاليًا إلى ربوة فى تلك البقعة.

كان البحر خلفى يمنحنى نسائمه والمرفأ فى المقدمة، كما لو أنه يستعد أن يهب قريبًا بنفسه بواسطة عنفه غير العادى الذى كان على وشك أن ينتهى، لقد استطاع بواسطة رياحه المتغيرة والخفيفة من الجنوب والجنوب الشرقى أن يحمل كميات عظيمة من الضباب، وكان المرفأ المحجوب عنه الرياح للجزيرة ذات الهيكل العظمى ما زال يرقد تحت وطأة الكآبة والشحوب حين دخلناه لأول مرة، وكانت السفينة هيسبنيولا فى المرآة المكسورة قد رسمت فعلاً من القرص الخشبى الموجود فى أعلى صارى السفينة وحتى حدود الماء والراية ذات الجمجمة والعظمتين معلقة فى قمتها راية جولى روجر.

وعلى الشاطئ يقبع أحد القوارب وسيلفر يوجد فى مؤخرته، لقد تعرفت عليه بينما يوجد رجلان يتكأن على مؤخرة القارب أحدهما بقبعة حمراء نفس اللون الأحمر الذى رأيته منذ ساعات قبل أن أخطو خطواتى وأخرج من الحصن، كانوا يتحدثون ويضحكون، رغم بعد المسافة التى تقترب من ميل تقريبًا، ولم أستطع أن أسمع شيئًا بالطبع مما قيل، وبدأ كل شيء فى حالة من الصراخ حيث كانت الأكثر رعبًا، جعلتنى فى البداية أعتقد بشكل سيئ أن أتذكر صوت الكابتن فلنت، وبالرغم من ذلك استطعت أن أرى بصعوبة طائرًا بريشه البراق كما لو أنه يحط على معصم سيده.

وبعد ذلك بفترة قصيرة، تحرك القارب وسُحب للشاطئ وترك الرجل ذو القبعة الحمراء وصديقه أسفل مع زميل الكابينة وفى نفس الوقت بدأت الشمس تغيب خلف المدى وصار الضباب الذى تكون بسرعة مظلمًا بشكل جدى، رأيت أنه يجب ألا أفقد الوقت إذا أردت أن أجد القارب هذا المساء.

كانت الصخرة البيضاء واضحة بدرجة كافية فوق الأغصان، ما زال شكلها الثمانى يبدو من على بعد ميل فى تلك البقعة، جعلنى هذا سعيدًا حين أنهض معها وأزحف إليها عبر الأشجار المنخفضة، كان الليل قد حل تقريبًا حين وضعت يدى على جوانبها الخشنة الأربعة تحت تلك الصخرة يوجد تجويف صغير جدًا لقطاع أخضر، اختفى بواسطة قطاعات وأشجار كثيفة فى هذا العمق الذى نما بوفرة كبيرة وفى منتصف هذا الوادى الصغير توجد خيمة صغيرة من جلد الماعز مثل خيام الغجر التى تُحمل معهم فى إنجلترا.

سقطت فى الوادى ورفعت أحد جوانب الخيمة حيث رأيت قارب بن جن وبيتًا مصنوعًا كما لو أن كل شيء مصنوع بشكل يدوى، حيث كانت الجوانب الخشنة للإطار الخشبى والممتد أحيانًا والمغطى بغطاء جلد الماعز بشعره فى كل مكان، كان هذا القارب صغير جدًا بالنسبة لى، لم أتخيل كيف يطفو بإنسان كامل الحجم، كان به مجداف منخفض على قدر الإمكان، نوع من النقالة فى مقدمة السفينة وبدلان مزدوجان للدفع.

لم أر زورقًا مثله، صُنع فى بريطانيا القديمة ولكنى رأيته منذ لحظة، لا أستطيع أن أعطيك فكرة عن قارب بن جن دون أن أقول إنه مثل أول قارب وأسوأ قارب صنعه الإنسان وأعظم ميزة لهذا القارب أنه خفيف وسهل الحمل.

حسنًا، الآن وجدت القارب، سوف تعتقد أننى لدى الحق لهذا الغياب لأول وهلة لكن فى نفس الوقت جاءت إلى فكرة أخرى وصرت أكثر عنادًا ومغرمًا بهذا القارب لدرجة أننى أود أن أنفذ تلك الفكرة معتمدًا على أفكار الكابتن سموليت نفسه، لهذا كان هروبى فى جنح الظلام لأقطع حبل السفينة هيسبنيولا وأتركها تذهب للشاطئ حيث تريد أن ترسو، بدأت أشغل ذهنى أن المتمردين بعد أن تم هزيمتهم فى الصباح ليس لديهم شيء إلا أن يرفعوا هلب سفينتهم ويذهبوا إلى البحر، هذا ما اعتقدته، بالطبع

هذا شيء طيب أن تمنعهم ولكنى أراهم الآن كيف تُركوا مُراقبيهم غير مزودين بقارب، أعتقد أن ذلك سوف يحدث بقليل من المغامرة.

جلست منتظراً للظلام وصنعت وجبة من البسكويت، كانت ليلة من عشرة آلاف ليلة لهذا الغرض، فقد انتشر الظلام فى المساء بعد أن تقلصت آخر أشعة النهار واختفت تماماً ولم يعد غير الظلام الذى خيم على جزيرة الكنز وأخيراً دفعت الزورق وتلمست طريقى بصعوبة خارج هذا الوادى حيث كنت أتناول طعامى ولا يوجد غير شيئين ظاهرين فى المرفأ كله.

الشيء الأول كانت نارا عظيمة على الشاطئ بواسطة القراصنة المهزومين موجودة فى المنطقة السبخية والشيء الآخر كان ضوءا خافتا فى الظلام يشير لموقع السفينة الراسية، كانت تتأرجح حول المد والجذر ومقدمتها لم تكن فى مواجهتنا، كانت الأضواء الوحيدة موجودة فى الكابينة وما أراه انعكاساً على الضباب من الأشعة القوية التى تدفقت من الشرفة الخلفية.

انحسر المد لبعض الوقت واضطررت إلى أن أخوض فى حزام طويل من الرمل السبخى، حيث غرزت عدة مرات حتى ركبتى قبل أن أصل حافة الماء المتراجع وأخوض لمسافة قليلة فى هذا الطريق وببعض القوة والمهارة جهزت الزورق وأنزلته على السطح.

٢٣- المـــد والجـــزر

الزورق - كما وصلني من معلومات قبل أن أتعامل معه - إنه قارب آمن يكفي لشخص في نفس طولي ونفس وزني ورغم أنه قادر على العوم، وأنه ماهر في طريقه البحرى فإنه الأكثر دورانًا حول نفسه ومصنوع من الأغصان الصغيرة مما يصعب معه أن تقوده ودائمًا ما يقوم بالانحراف أكثر من أى شيء آخر ويدور ودورانه أهم شيء يميزه، حتى بن جن نفسه أعترف أنه زورق غريب الأطوار كي تقوده حتى تعرف طريقة السيطرة عليه.

بالتأكيد لم أكن أعرف طريقة قيادته، فقد كان دائم التحول والدوران في كل اتجاه، لكني كنت دائمًا مصممًا على أن أقوده وكنت في أغلب الوقت في مقدمة الزورق وكنت متأكدًا أنني لن أستطيع أن أسيطر عليه بسبب حركة المد، لحسن الحظ أن البدال كان يطاوعني ومازال المد يدفعني نحو العمق وتوجد السفينة هيسبنيولا يمينًا في طريقي ومن الصعب أن نفقدها.

رأيت السفينة هيسبنيولا مثل بقعة لشيء لكنها كانت أكثر سوادًا، صاريها وشكلها يتضحان أمامي في اللحظة التالية، كما ظهر أنني كلما ذهبت أبعد في البحر كان التيار أكثر نشاطًا من الجذر، صرت أقرب من حبل السفينة الذى يجعلها ثابتة في مكانها، كان الحبل مشدودًا مثل الوتر وكان التيار قويًا جدًا لدرجة أن السفينة كانت تسحب مرساها، كان التيار المتموج يبقبق ويثرثر حول هيكل السفينة مثل جدول جبلي صغير، فلو قطع أحد هـذا الحبـل بسكين البحر سـوف يسحب المد السفينة إلى مكان آخر.

فكلما بعدت السفينة كان الأمر أفضل، لكن هذا الحبل كان مشدودًا جدًا، وإذا قطع فجاة سيكون خطرًا مثل رفسة حصان، لذا كان الأمر صعبًا، فإذا كنت طائشًا

جداً سأقطع حبل السفينة من عند المرسى، وسأكون أنا والزورق فى محنة كبيرة، وقد نجد أنفسنا خارج الماء.

هذا الأمر قد وضع حداً لى، فلو لم يكن لدى حظ مرة أخرى يؤيدنى سوف أتخلى بالطبع عن خطتى، لكن الرياح الخفيفة التى بدأت تهب من الجنوب الشرقى ومن الجنوب جذبت وأدارت السفينة بعد سقوط الليل إلى الجنوب الغربى وأثناء تأملى للموقف هبت نفحة هواء أمسكت السفينة هيسبنيولا وأجبرتها أن تتحرك مع التيار وكانت فرحتى عظيمة، شعرت أن الحبل المشدود كالوتر بدأ يرتخى بين ذراعى وبدأت اليد تغطس لمدة ثانية تحت الماء.

بدأت أشغل ذهنى وأخرجت سكينى وفتحتها بأسنانى وبدأت أقطع حبال المرسى واحدا بعد الآخر حتى صارت السفينة تتأرجح بحبلين فقط، ثم رقدت هادئًا منتظراً أن أقطع آخر حبلين حين يعود الضغط خفيفًا على الأحبال مرة أخرى بفعل الرياح.

طوال هذا الوقت سمعت صدى لأصوات بشرية عالية قادمة من كابينة السفينة، وللحقيقة بدأ عقلى ينشغل بأفكار أخرى لم أعطها من قبل أى اعتبار، الآن حين لم أجد أى شىء أفعله، أعطيت للأمر اهتمامًا كبيراً، تعرفت على الملاح إسرائيل هانذر الذى كان المدفعجى لفلنت فى الأيام السابقة، وكان الآخر بالطبع صديقى صاحب القبعة الحمراء، كان الاثنان أسوأ من يشربان الخمر، كانا لا يزالان يشربان الخمر أثناء سماعى لهما، أحدهما صرخ صرخة سكر مدوية وألقى بشىء من خارج شباك السفينة الخلفى، تنبأت أن تكون الزجاجة الفارغة، لم يكونا مخمورين فقط ولكنهما كانا غاضبين جداً.

كانت المجاديف تتطاير مثل حبات البرد، ومن وقت لآخر يأتى انفجار فأشعر أن الأمر سيصل إلى النهاية، ولكن تخفت بعد ذلك حدة المشاجرة وتتذمر الأصوات بصوت أكثر انخفاضًا للحظة حتى تأتى الأزمة التالية وتمر كالعادة دون أن تصل إلى أى نتائج.

على الشاطئ، استطعت أن أرى وهج نار المعسكر يحترق من خلال أشجار الشاطئ، كان هناك شخص ما يغنى أغنية متكاسلة، عجوزة وكئيبة، بتذلل وارتعاشة

فى المقطع، كان يبدو أنه لا نهاية لذلك إلى صبر المعنى، لقد سمعت تلك الأغنية فى إحدى الرحلات البحرية أكثر من مرة وتذكرت تلك الكدات:

كان أحد رجالها على قيد الحياة

بدأت رحلتها بخمسة وسبعين رجلاً

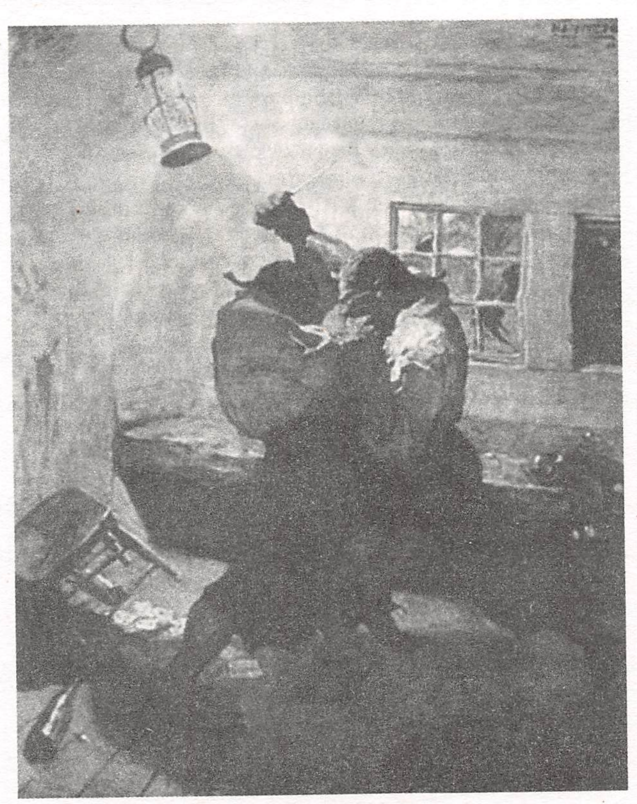
اعتقدت أنها كانت أغنية قصيرة جدًا ومملوءة بحالة كآبة كبيرة للصحبة التى قابلت إخفاقات قاسية فى الصباح، ومما رأيت أن هؤلاء القراصنة كانوا قاسى القلب مثل البحر الذى يبحرون فيه.

أخيراً، بدأ النسيم يهب ثانية وبدأت السفينة تتحرك واقتربت منا فى الظلام، شعرت أن الحبل قد ارتخى ثانية فقمت على الفور بمجهود طيب وشديد وقطعت آخر أحبال السفينة، كنت أتحرك كمهووس، كنت أتوقع فى كل لحظة أن أغرقه ومنذ تلك اللحظة وجدت أننى لن أستطيع أن أدفع الزورق بشكل مباشر ليتحرك، تحركت مباشرة للخلف، بعد لحظة تخلصت من جارى الخطر، ودفعت الزورق الدفعة الأخيرة، عبرت يدى الحبل الخفيف الذى كان يتدلى فوق البحر على جانب السفينة الخلفى، أخيراً قبضت عليه.

لماذا يجب أن أفعل ذلك، سأقول لكم، كان يبدو كذلك فى البداية أنه مجرد غريزة فىّ لكن حين امتلكت ذلك فى يدى وجدته أسرع، بدأت بفضول منى أصل لليد العليا، قررت أن آخذ نظرة من خلال سفينة الشباك.

تسحبت خطوة بعد خطوة، ولما اقتربت بدرجة كافية ارتفعت بمخاطرة لا حدود لها ما يقرب من نصف ارتفاعى وأطللت على السطح فرأيت قطاعًا من داخل الكابينة، قبل هذا الوقت انزلقت السفينة وسفينتها المرافقة الصغيرة إلى الماء بسرعة، حقًا وصلنا فعلاً إلى مستوى مدفأة المعسكر، كانت السفينة تتحدث - كما يقول البحارة - عاليًا وتدوس فقاقيع لا حصر لها بطرطشات متقلبة ومتواصلة، وحتى وضعت عينى فوق عتبة الشباك، لم أستطع أن أفهم لماذا لم يأخذ الحارسان حذرهما، فلمحة واحدة كانت كافية، لقد كانت لمحة واحدة فقط التى أخذتها من القارب الشراعى غير الثابت، أرتنى هاندز وزميله يتشابكان معًا فى تصارع مميت، كل واحد كان يمسك زميله من رقبته،

نزلت إلى مقعد المجداف مرة أخرى ولم أفكر مرة أخرى لفترة وجيزة، لأننى كنت قريبًا من سطح البحر فلم أر شيئًا للحظة إلا هذين الرجلين الغريبين ووجهيهما يتأرجحان معًا تحت مصباح دخانى، أغلقت عينى لكى أجعلهما يتآلفان معًا على الظلام.



أرى هاندز وزميله يتشابكان معًا فى صراع رهيب

والأغنية التى بلا نهاية جاءت إلى النهاية أخيرًا وكل الصحبة المتناقضة حول المدفأة تكسرت إلى كورس وسمعتها تغنى عاليًا:

خمسة عشر رجلاً حول التابوت

يو يو يو وزجاجة من شراب الروم

يشربون والشيطان يعمل للباقين

يو يو يو وزجاجة من شراب الروم

كنت أفكر كيف كان الشراب الثقيل والشيطان فى هذه اللحظة داخل كابينة هيسبنيولا، اندهشت جداً لتأرجح الزورق المفاجئ، وفى هذه اللحظة انحرفت السفينة بحدة، يبدو أنها غيرت طريقها، كانت السرعة فى كل الأوقات تزيد بشكل غريب.

فتحت عينى فى الحال، كل ما يحيط بى موجات صغيرة تتكسر بحدة وأصوات خشنة ووميض فسفورسنت خفيف، كانت السفينة هيسبنيولا نفسها على بعد عدة ياردات فى يقظتها، ما زلت أشعر بالدوار، تبدو أنها تترنح فى سيرها، وكان الصارى الخاص بها يقذف قليلاً من سواد الليل، فنظرت طويلاً، تأكدت أنها تحركت وسارت جنوبياً.

نظرت فوق كتفى بشكل مفاجئ، كان قلبى يتقافز فى ضلوعى، كان اليمين خلفى ورأيت وهج نار المعسكر والتيار تحول نحو زوايا اليمين ويسحب معه السفينة الكبيرة ويتراقص الزورق الصغير بسرعة وبقبقة عالية وصوت متذمر، بدأت تتحرك وتنزل من عند المضايق إلى البحر المفتوح.

فجأة انفرجت السفينة التى أمامى انفراجة عنيفة واستدارت حوالى عشرين درجة، وفى نفس اللحظة صاح أحد السكارى وتبعه الآخر على ظهر السفينة، سمعت أقدامه تدب على السلم المرافق وعرفت ساعتها أن الشاربين للخمر أخيراً قد توقفا عن التشاجر وتيقظا على إحساس الكارثة التى سوف تحل بهما.

رقدت فى قاع القارب البائس وسلمت روحى لخالقها وفى نهاية المضايق تأكدت أننا سوف نسقط فى الموجات العنيفة والمؤلمة جداً، حيث سوف تنتهى كل متاعبى بسرعة وفكرت أننى قد أتحمل الموت ولكنى لن أستطيع أن أنتظر قدرى حين يقترب.

رقدت لعدة ساعات مستمراً فى انهزامى من وقت لآخر على الوسائد ومن حين لآخر ابتل بطرطشات الماء المتطاير ولا أتوقف عن توقع الموت فى لحظة السقوط القادمة، بدأ التعب يزداد علىّ، والحذر والذهول الوقتى يسقط على ذهنى فى منتصف الرعب حتى سقطت نائماً بعد ذلك فى قاربى الذى يتقاذفه البحر، أحلم بالوطن وفندق الأدميرال بنبو.

٢٤- رحلة الزورق البحرية

كانت الشمس قد ملأت الدنيا حين استيقظت ووجدت نفسى مقذوفًا فى الجنوب الغربى لجزيرة الكنز وعلى الرغم من ذلك كانت تختفى عنى وراء الكتلة الكبيرة من جبل النظارة المكبرة، وتتحدر على هذا الجانب فى البحر وراء منحدرات ضخمة وهائلة.

كانت العقدة والصارى عند كوعى، والجبل كان عاريًا ومظلمًا والرأس محاطة بمنحدرات أربعين أو خمسين قدمًا ارتفاعًا ومهدبة بكميات ضخمة من الصخر المتساقط، كنت على بعد ربع ميل من عمق البحر جاء لذهنى فى البداية أن أبدل حتى أصل لليابس.

سيطرت علىّ تلك الفكرة، بين الصخور المتساقطة تدفقت الأمواج المتكسرة وجاءت بصدى صوت عال وطرطشات الماء تتطاير وتسقط، شعرت أننى قد أنجح من خطوة لخطوة، رأيت نفسى، لو أننى غامرت أكثر، فإننى سأستعجل الموت على الصخور الفظة أو إننى سوف أستهلك قوتى عبثًا لكى أتسلق الصخور التى لها شكل الخنافس.

لم يكن يصلح هذا للزحف على مصاطب مستوية من الصخر وإلا سأترك نفسى أسقط فى البحر فى انفجار مدو، شاهدت وحوشا طينية ضخمة، قواقع رخوة، ضخمة جدًا، كل اثنين أو ثلاثة معًا، يسمع صدى نباحهم عاليًا وسط الصخور.

فهمت منذ تلك اللحظة أنهم أسود البحر وأنهم لا يؤذون أبدًا، لكن رؤيتهم بالإضافة لصعوبة الشاطئ والأمواج العالية جدًا كانوا كافين بدرجة كبيرة أن أشمئز من الهبوط على تلك الأرض، شعرت أن الموت جوعًا أفضل حالاً من تحدى تلك الأخطار.

وأثناء ذلك جاءتنى فرصة جيدة كما اعتقدت من قبل، فشمال رأس "هولباولين" ظهرت الأرض فى قطاع طويل بعد أن غادرها المد وتركت مساحة ممتدة من الرمال الصفراء، فشمال ذلك ظهر مرة أخرى الخليج، خليج من الأشجار كما هو موضح على الخريطة، دفن تحت أشجار الصنوبر الخضراء التى هبطت إلى جانب البحر.

تذكرت ما قاله سيلفر عن التيار الذى بدأ شمالاً عبر كل الساحل الغربى لجزيرة الكنز، ورأيت من موضعى هـذا أننى كنت فعـلاً تحت تأثيره، فضلت أن أغادر "رأس هولباوين" خلفى وأحتفظ بقوتى لمحاولة الهبوط إلى الشاطئ، حيث الخليج الذى تتشابك عليه الأشجار الكثيفة.

كانت هناك موجة عظيمة ناعمة فى البحر، حيث الرياح بثبات ولطف من الجنوب، لم يكن هناك أى تضارب بين ذلك وبين التيار والأمواج المتلاطمة التى ترتفع وتسقط غير مكسورة، لو لم يحدث هذا، لكنت قد هلكت منذ مدة طويلة ولأن ذلك الحدث كان مدهشًا، صار الأمر سهلاً وأكثر أمانًا لقاربى الصغير والخفيف الذى استطاع أن يتخلص من الخطر، ظللت فى أغلب الأحيان فى قاع القارب ولم أكن أفعل شيئًا إلا أن أضع عينى على حافة المركب العليا، كنت أرى قمة زرقاء ضخمة تقترب منى، فكان الزورق يثبت قليلاً ويتراقص وكأنه على عيون مائية ويستريح على الجانب الآخر فى إحدى القنوات بخفة مثل طائر.

بدأت بعد فترة قليلة أصير أكثر جرأة وبدأت أجرب مهارتى فى التبديل لكن تغير بسيط فى التخلص من الوزن سوف ينتج تغيرات عنيفة فى سلوك الزورق، فمن الصعب أن أتحرك قبل القارب الذى تخلى فى الحال عن الحركة الراقصة اللطيفة، تحرك للأمام لمنحدر من الماء كان شديد الانحدار لدرجة أنه أصابنى بالدوار وضرب المقدمة بصنبور من رشاشات الماء كان عميقًا إلى جانب الموجة التالية.

كنت مرعوبًا جدًا وسقطت إلى مكانى القديم، حيث يبدو أن الزورق وجد اتجاهه مرة أخرى وقادنى برفق مرة أخرى كما السابق بين الأمواج المتلاطمة، كان واضحًا أن الزورق يسير كما يريد دون أن يتدخل أحد فى قيادته وعند هذه الدرجة لم يكن لى أى تأثير على خط سيره، كل ما آمله أن أصل بأمان إلى الشاطئ ونرسو.

زاد الرعب جداً لكنى كنت أعى كل ما يحدث من حولى، أولاً: تحركت بكل عناية، تدريجياً هربت من الزورق بقبعة البحر ثم وضعت عينى مرة أخرى على حافة المركب، وبدأت أدرس كيف استطاعت أن تنزلق بهدوء خلال الأسطوانات.

وجدت كل موجة مثل الجبل اللامع الناعم الضخم، كانت تبدو من الشاطئ أو من فوق ظهر الزورق لكل العالم مثل سلسلة جبال على الأرض الجافة المملوءة بقمم الجبال والأماكن السهلة المنبسطة والأودية، استدار الزورق ليساره ولف من جانب إلى آخر، وشق طريقه بحذر خلال الأجزاء المنخفضة وتجنب المنحدرات الشديدة والعالية والقمم العالية للموجة، قلت لنفسى:

– حسناً، الآن، من الواضح أنه يجب أن أرقد حيث أنا وألا أزعج توازن الزورق، ومن الواضح أيضاً أننى يجب أيضاً أن أضع البدال فوق الجانب من وقت لآخر فى مكان ملائم، وأن أعطى الزورق دفعة أو دفعتين تجاه الأرض، لم أكد أفكر أكثر من الفعل، حيث وضعت كوعى فى حالة المحاول للفعل ومن وقت لآخر كنت أعطى ضربة خفيفة أو ضربتين لكى أحول اتجاه الزورق إلى الشاطئ.

كان عملاً مرهقاً وبطيئاً، وعلى الرغم من ذلك استطعت أن أكسب بعض الأرض وقد اقتربنا من خليج الغابة، وعلى الرغم من أننى أرى أننى أفقد هدفى فإننى ما زلت أقطع مئات الأمتار فى اتجاه الشرق، كنت حقاً بالقرب من ذلك، استطعت أن أرى قمم الأشجار الخضراء الباردة تهيمن على المكان حقاً، فى هذا النسيم شعرت بالتأكيد أننى سوف أصاب بنتوء جسدى دون شك فى ذلك.

كان وقتاً صعباً، بدأت أتعذب من العطش، كانت الشمس تتدفق من أعلى وانعكاساتها أكبر ألف ضعف من الأمواج، وكان ماء البحر يسقط ويجف على ويكسو شفتى بطبقة من الملح جعلت زورى يحترق وأوجعت مخى.

كان منظر الأشجار القريب من مرمى البصر جعلنى أشتاق جداً للشاطئ، لكن التيار حملنى الآن بالقرب من تلك النقطة، فرأيت البحر أمامى مفتوحاً وواسعاً وشاهدت منظراً غير طبيعة أفكارى.

شاهدت السفينة هيسبنيولا على اليمين من أمامى تحت أشرعتها على بعد لا يزيد عن نصف ميل، كنت متأكدا جداً أننى سوف آخذ ولكنى كنت مكتئبا جداً وفى كرب لحاجتى للماء لدرجة أننى لم أعد أعرف هل أنا سعيد بما حدث أم آسف لهذه الفكرة التى نفذتها، أخذت وقتًا طويلاً قبل أن أصل إلى نتيجة وسيطرت الدهشة على عقلى بدرجة كبيرة ولم أفعل شيئًا إلا أن أحملق وأتعجب.

كانت السفينة هيسبنيولا تحت شراعها الرئيسى وشراعيها الآخرين بالساريين الأماميين وقماش الشراع الأبيض الجميل مشرق فى الشمس مثل الجليد أو الفضة، حين نظرت إليها لأول مرة كانت أشرعتها تسحب وكانت فى طريقها إلى الشمال الغربى، افترضت أن الرجال الذين على متنها سيأخذون جولة حول الجزيرة وسيعودون ثانية إلى المرسى.

وفى الحال بدأت تقترب أكثر وأكثر إلى الاتجاه الغربى لدرجة أننى اعتقدت أنهم اتجهوا إلىّ ويطاردوننى، أخيرًا انحرفت ناحية اليمين فى اتجاه الريح وأخذت للخلف وسكنت تمامًا ووقفت هناك للحظة بلا حراك وأشرعتها ترتعش، قلت:

- زملاء غير بارعين!! هم بالتأكيد ما زالوا يشربون الخمر مثل كل يوم، فكرت كيف يستطيع الكابتن سموليت أن يتجاوز هؤلاء.

وأثناء ذلك بدأت السفينة فى الارتداد تدريجيًا وامتلأت أشرعتها بالهواء وبدأت تغير وجهتها وأبحرت بسرعة لدقيقة وتحركت مع الريح، مرة ومرة وتكرر ذلك ذهابًا وإيابًا، وأعلى وأسفل، شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا، أبحرت هيسبنيولا مندفعة وفى كل مرة ينتهى الأمر كما بدأت وأشرعتها مرفرفة بشكل كسول، أصبح واضحًا لدى أنه لا أحد على متن السفينة ولا أحد يقودها وإذا كان الأمر كذلك أين ذهب الرجال؟! إما أنهم ماتوا من شرب الخمر أو تركوها، أعتقد أننى لو صعدت على سطحها أننى قد أحضر المركب المرافق للسفينة إلى ربانها.

كان التيار يحمل الزورق والسفينة جنوبًا وبنفس المعدل وكأن السفينة كانت تبحر فكانت أكثر اتساعًا وإن كان التيار منقطعًا، فظلت لوقت طويل معلقة فى مكانها فلا تتحرك ولو كنت جرؤت واستخدمت البدال، كنت متأكدًا أننى أستطيع أن ألحق بها،

كانت روح المغامرة، تشجعت لذلك، فكرة أن أكون فى الماء المنكسر بجوارها تراودنى وتزيد من شجاعتى.

وحين استيقظت من دهشتى رحب بى بواسطة سحابة من طرطشات الماء، وصادف ذلك ما أريد تلك المرة وجعلتنى أستعيد كل قوتى وأحذر السفينة هيسبنيولا التى لا يقودها أحد، فأبحرت بقوة لدرجة أننى اضطررت أن أتوقف لكى أنزح الماء من الزورق، كنت كالطائر الذى يرفرف بجناحيه وبالتدريج أخذت طريقى وبدأت أقود الزورق بين الأمواج وأجد هبة ريح من وقت لآخر على مقدمة القارب وطرطشة من زبد البحر فى وجهى.

استطعت أن أصل بسرعة إلى السفينة، رأيت الجرس المتلألئ على ذراع المقود، وما زلت لم أر أى روح لإنسان تظهر على سطح السفينة، لم أستطع أن أختار ولكنى اعتقدت أن السفينة قد هجرت، وإذا لم يكن الرجال راقدين مخمورين، فأين يكونون، ربما أفعل ما أختاره فى السفينة.

لبعض الوقت فعلت السفينة أسوأ شىء ممكن لى، فما زالت واقفة ووجهتها ناحية الجنوب، منحرفة عن طريقها طوال الوقت، لكل مرة تنسحب السفينة، تنتفخ أشرعتها وهذا يضعها فى لحظة واحدة فى سياق الريح مرة أخرى، قلت إن هذا أسوأ شىء ممكن بالنسبة لى، كانت السفينة بلا أى مساعدة كما يبدو فى هذا الموقف، وحين يفرد الشراع إلا ويطقطق ويفرقع مثل المدفع والكتل التى تتدحرج وتقرع على سطح السفينة ما زالت السفينة مستمرة فى الهروب منى، ليس بسرعة التيار فقط ولكن بمقدار انحرافها الكبير الذى كان طبيعيًا بشكل كبير.

لكن الآن وأخيرًا وجدت فرصتى، فالنسيم بدأ يهب فى ثوان ببطء، وبدأ التيار يحولها تدريجيًا وبدأت تدور هيسبنيولا ببطء حول محورها، وأخيرًا أعطت مؤخرتها التى كانت بها الكابينة لنا وما زالت هناك فجوة مفتوحة ومصباح فوق المائدة ما زال ينير فى هذا اليوم، وما زال الشراع الرئيسى متدليا مثل الراية، وما زالت السفينة رهينة للتيار، وكدت أن أفقدها لمدة قصيرة، فضاعفت كل جهدى وبدأت مرة أخرى كى ألحقها

وأواصل مطاردتها ولم أبعد عنها عدة مئات من الأميال حين أتت الريح عاصفة مرة أخرى، امتلأت الأشرعة وغيرت وجهتها وبدأت المغادرة مرة أخرى، تنحنى وتنزلق مثل طائر السنونو.

كانت أول دفعة للسفينة حتى صار جانبها مقاربًا لى، واستدارت حتى غطت نصفها ثم ثلثين ثم ثلاث أرباع المسافة التى فصلت بيننا، استطعت أن أرى الأمواج البيضاء التى تغلى تحت مقدمتها، بدت بالنسبة لى طويلة جدًا من مكانى المنخفض فى الزورق.

بدأت أفهم بعد تلك المفاجأة، فلم يكن لدى وقت كى أفكر، وكان الوقت نادرًا كى أفعل شيئًا أو حتى أنقذ نفسى، كنت على قمة إحدى الموجات عندما جاءت السفينة تتمايل بعد ذلك، كان الدقل المائل عمود السفينة الذى فى المقدمة فوق رأسى، نهضت على قدمى وثبت وركلت بقدمى الزورق من تحت الماء، أمسكت ذراع الشراع بيد واحدة، بينما قدمى غرزت بين الدعامة والحمالة وظللت متشبثًا ألهث، أحسست أن ريحًا عاتية شحنت السفينة فتحركت وضربت الزورق وتُركت بدون أى ملاذ على السفينة.

٢٥- تنكيس راية القراصنة

اكتسبت بشق الأنفس مساحة على دقل السفينة حين رفرف الشراع وامتلأ بالهواء على الجهة الأخرى للسفينة بانفجار كان مثل طلقة المدفع، اهتزت بشدة حتى قاعها وسارت فى عكس الاتجاه وفى اللحظة التالية بدأ الشراع الآخر فى الارتخاء وعاد الشراع المرفرف سيرته الأولى فارتخى مرة أخرى.

قذفنى ذلك بعيداً إلى البحر تقريباً، الآن فقدت التمييز وزحفت عائداً عبر الدقل، وتعثر تقدمى للأمام على سطح السفينة، كنت على الجانب المحجوب عنه الريح فى المقدمة وكان الشراع الرئيسى ما زال ينسحب يخفى عنى مساحة على ظهر السفينة، لم يكن أى إنسان على ظهرها، بدأت آثار أقدامى تطبع على ألواحها التى لم يمسحها أحد منذ لحظة التمرد، زجاجات الخمر الفارغة المكسورة من رقبتها تعثرنى كلما ذهبت أو رحت كدليل حى على التخريب الذى حدث.

فجأة بدأت السفينة تتوقف حين خمدت الريح، بدأت الأشرعة تفرقع بصوت عال ودفة القيادة تخبط بعنف، تنهدت السفينة وارتعشت متوجعة وتأرجح هلبها العائم، أنّ وتقوقع فى نفس اللحظة الشراع فى مكانه فشاهدت المسافة التى بلا ريح على ظهر السفينة.

كان على السفينة اثنان من الحراس، إحداهما كان صاحب القبعة الحمراء على ظهره وكان ممدداً مثل العتلة، وذراعاه كانا مفرودتين مثل صليب وأسنانه تظهر شفتيه المفتوحتين، وكان إسرائيل هاندز يستند على جانب السفينة وذقنه على صدره ويداه مبسوطتان خلفه على السطح ووجهه يبدو أبيض مشرب بسمرة أشعة الشمس مثل شمعة الودك.

للحظة كانت السفينة مثل الحصان الشرير الذى طرح فارسه أرضًا والأشرعة على أحد الجوانب وعلى الجانب الآخر تمتلئ بالهواء ويتأرجح ذراع التطويل لها جيئة وذهابًا حتى أن السارى بصوت عال من كثرة الضغط ومن وقت لآخر تهب سحابة من طرطشات الماء الخفيف على جانب السفينة وهبة ثقيلة من مقدمة السفينة ضد الموجة، كان طقسًا أكثر ثقلاً وصعوبة وكان التأثير الأكبر على زورقى المصنوع يدويًا من الأغصان والذى غرق فى قاع البحر.

مع كل قفزة للسفينة كان صاحب القبعة الحمراء يتحرك جيئة وذهابًا، يا له من أمر مروع، ليس فقط حاله، ولكن أيضًا أسنانه التى صنعت تكشيرة فظيعة مزعجة لهذا الشكل ومع كل هزة للسفينة أيضًا يظهر إسرائيل هاندز غارقًا على ظهر السفينة التى تنزلق أحيانًا أقدامه بعيدًا ويقذف جسده بشكل مفاجئ فى اتجاه المؤخرة حتى يظهر وجهه قليلاً قليلاً متخفيًا عنى ولا أستطيع أن أرى شيئًا خلف أذنيه أو حتى شعر لحيته المثير.

فى نفس الوقت رأيت حولهما بعض طرطشات لبقع الدم السوداء على ألواح السفينة وتأكدت أن كل واحد منهما حاول قتل زميله أثناء سكرهما، بينما كنت أنظر حولى وأتجول، فى لحظة هادئة كانت السفينة ما زالت على وضعها فاستدار إسرائيل هاندز وعاد ثانية إلى المكان الذى رأيته فيه لأول مرة وهو يئن بشدة ويتألم، أخبرنى تأوهه بمدى الألم المميت الذى يعانى منه ومدى الضعف الذى يعتريه ووصلت آهاته من فمه المفتوح ألمًا إلى قلبى، لكنى حين تذكرت حديثه الذى استمعت إليه من برميل التفاح اختفت كل الشفقة عليه من قلبى، تحركت بعد ذلك حتى وصلت إلى الشراع الرئيسى، قلت ساخرًا:

- تعال إلى سطح السفينة يا سيد هاندز.

نظر إلىّ بصعوبة ولكنه كان بعيدًا كى يعبر عن الدهشة، فكان كل ما نطق به.. البرندى!!

لم يكن هناك وقت لكى يفقده وتفادى أذرع التطويل للشراع الذى صار أكثر ميلاً عبر السطح، انزلقت للخلف ولأسفل حيث درجات السلم الموصلة للكابينة، كان منظرًا

مقلقًا للغاية، فكل الأماكن المغلقة جدًا قد كُسرت بحثًا عن الخريطة التى توصل للكنز، كانت الأرضية مملوءة بالطين السميك حيث كان يجلس الوحوش يشربون الخمر ويتشاورون بعد خوضهم فى الطرقات حول المعسكر، لقد دُهنت كل الحواجز باللون الأبيض وخُرزت باللون الذهبى وحُفرت نماذج بأيد قذرة، عدة دست من الزجاجات الفارغة تحتك معًا فى أركان السفينة حين تتدحرج، كان أحد كتب الطب موضوعا على الطاولة ومفتوحا، نصف أوراقه قد نُزعت تمامًا، يوجد فى المنتصف مصباح ما زال ينشر وهجه الدخانى الغامق البنى المائل للاصفرار مثل سمك البيس الأوروبى.

ذهبت إلى القبو، كانت كل البراميل قد اختفت وعدد كبير ومدهش من الزجاجات قد شُربت وقذفت بعيدًا، فالمؤكد أنه منذ بدأ التمرد لم يبق أحد فيهم هادئا أو رزينا، وأثناء البحث عن الطعام وجدت زجاجة بها بعض البراندى المتبقى لهاندز وأحضرت لنفسى بعض البسكويت وبعض الفاكهة المخللة وعنقودا كبيرا من العنب وقطعة من الجبن، أحضرت كل ذلك على سطح السفينة ووضعت هذا الخزين خلف رأس الدفة وفى متناول يد ربان السفينة، ذهبت مباشرة إلى برميل الماء الصغير وأحضرت بعض الماء للشرب وأعطيت البراندى لهاندز.

شرب إسرائيل هاندز قدحًا من البراندى قبل أن يشرب من الزجاجة مباشرة، تنهد إسرائيل قائلاً بعد أن شرب:

– مثل الرعد لكنى أريد بعضًا من هذا.

جلست فى أحد الأركان وبدأت أتناول الطعام، سألته:

– أهذا مؤذ جدًا؟!

نخر إسرائيل وزام وارتفع صوته، وقال:

– لو كان هذا الطبيب معنا، كنت سأكون جيدًا فى أقرب وقت لكنى لست محظوظًا كما ترى، وهذا حالى بالنسبة لهذا التافه.

كان جيدًا، لكنه الآن ميت وأشار إلى الرجل ذى الكاب الأحمر، هو لم يكن بحارًا جيدًا على أى حال، وأضاف قائلاً:

– من أى مكان جئت؟

قلت:

– حسنًا، لقد جئت لأتولى مسئولية هذه السفينة يا سيد هاندز وسوف تعاملنى ككابتن للسفينة حتى إشعار آخر.

نظر هاندز لى بشكل ردىء بدرجة كافية ولم يقل شيئًا وقد استرد وجهه بعض الحيوية مرة ثانية على الرغم من أنه ما زال مريضاً واستمر فى الانزلاق حتى استقر فى مكانه حين تحركت السفينة بشكل مفاجئ، وأضفت قائلاً:

– لن أستطيع أن أحتفظ بهذه الراية يا سيد إسرائيل هاندز، سوف أنكس هذا العلم الذى يرفرف على السفينة بعد إذنك، الأفضل أن نتخلص من ذلك.

ومرة أخرى أفادى ذراع تطويل الشراع، جريت إلى سارى العلم وأنزلت رايتهم السوداء الملعونة وقذفت بها بعيداً، قلت وأنا ألوح بالكاب:

– ينقذ الله الملك ويقضى على سيلفر.

نظر هاندز لى بمكر وذقنه ما زالت على صدره وقال أخيرًا:

– أعتقد يا كابتن جيم هوكنز أنك ستصل بنا للشاطئ الآن.

قلت:

– لماذا أنت متأكد، أرجو أن تقول لماذا؟

ورجعت ثانية إلى مكان أتناول وجبتى بشهية جيدة، ثم بدأ حواره ثانية قائلاً وأومأ بضعف إلى الجثة قائلاً:

– هذا الرجل يسمى "أوبراين" صاحب لقب أيرلندى، هذا الرجل وأنا كنا مسئولين عن فرد قماش شراع السفينة، أقصد الإبحار بها ثانية كى نعود، ولكنه الآن مات، صار مجرد جثة متعفنة، فمن يبحر بالسفينة الآن، لا أرى أحداً دون أن أعطيك الإشارة، لذلك لن تكون إلا هذا الرجل القادر على فعل ذلك، كما قلت لك، والآن انظر هنا، أنت تعطينى الطعام والشراب وهذا الوشاح القديم وهذا الرباط كى أربط جرحى، أنت تفعل ذلك لأجلى، لذا سأقول لك كيف تبحر بهذه السفينة، إن ذلك أمر عادل ومنصف وسوف أقوم به حتمًا وعلىّ أن أقوم به.

قلت له:

– سأقول لك شيئًا واحدًا، لن نعود ثانية إلى مرسى الكابتن كيد، أقصد أن ندخل الخليج الشمالى ونرسيها بهدوء هناك.

صرخ هاندز قائلاً:

– تأكد أنك سوف تفعل، فأنا لست الشخص الشرير الذى لا يفعل بعد كل هذا، لقد حاولت من قبل ولكن الآن أنت لك علىّ حق الطاعة، وسوف تقود السفينة إلى الخليج الشمالى، وليس لدى أى اختيار، سوف أساعدك حتى تبحر إلى حيث إعدام دوك(*) ورغمًا عنى سوف أعمل.

حسنًا، أشعر أن الأمر كما يبدو لى صادق لحد ما، فقد عقدنا الصفقة معًا فى تلك البقعة، وفى خلال ثلاث دقائق بدأت أقود السفينة هيسبنيولا بسهولة قبل أن تهب الريح على ساحل جزيرة الكنز، وبكل الآمال الطيبة للتحول للمنطقة الشمالية قبل الظهيرة وأن نشق طريقنا مرة أخرى بعيدًا قدر الإمكان عن الخليج الشمالى قبل الأمواج العالية، حيث ننتظر أن يخمد المد ويسمح لنا أن نرسو فى أمان.

ثم اندفعت إلى ذراع الدفة وهبطت إلى صندوقى حيث أحضرت منه منديلاً حريريًا ناعمًا كان لأمى وبه وبمساعدتى استطاع هاندز أن يربط هذه الطعنة المميتة التى تلقاها فى فخذه، وبعد أن أكل قليلاً وملأ معدته وتحدث بصوت أعلى وأكثر وضوحًا، ظهر كأنه رجل آخر تمامًا عما قبل.

لقد ساعدنا النسيم بشكل رائع، ومررنا بخفة قبلها مثل الطائر وكان ساحل الجزيرة يومض ومنظرها يتغير كل دقيقة وبعد فترة مررنا بالأرض العالية وانطلقنا بجوار أرض رملية منخفضة يوجد عليها بعض أشجار البلوط المنتشرة بغير كثافة،

(*) لقد تم شنق القراصنة فى لندن عند منطقة إعدام دوك على الضفة الشمالية لنهر التايمز على بعد ميل من برج لندن، حيث تم عرض هؤلاء القراصنة المعدومون فى منطقة مد منخفض وتركت أجسادهم حتى مر عليهم المد والجزر ثلاث مرات فوق أجسادهم.

ثم أصبحنا خلفها مرة أخرى وتحولنا إلى ناحية التل الصخرى الذى ينهى الجزيرة من ناحية الشمال.

لقد كنت معجبًا جدًا بقيادتى وسعيدًا جدًا بالطقس البراق المشمس وبالمناظر المختلفة الموجودة على الساحل، صار لدى الآن وفرة من الماء والأشياء الجيدة للأكل، صار ضميرى الذى كان متيمًا ومصابًا بهذه الهجرة هادئًا بهذا الفتح العظيم الذى صنعته، كنت أعتقد أننى يجب ألا يبقى لدى شىء أرغبه ولكنى لأجل خاطر عيون الرب أفعل.

فقد كان يتابعنى بسخرية على السطح وابتسامته الشاذة تظهر باستمرار على وجهه، كانت ابتسامة تحتوى على الألم والضعف، ابتسامة رجل عجوز منهك، وعلى الرغم من ذلك توجد مسحة سخرية وظل مادى فى تعبيراته، وظل يراقبنى ويراقبنى ويراقبنى ببراعة أثناء عملى.

٢٦- إسرائيل هاندز

لقد ساعدتنا الرياح بالدرجة التى نريدها، الآن تغير اتجاهنا إلى الغرب، نستطيع أن نجرى بدرجة أسرع وأسهل من جانب الشمال الشرقى للجزيرة حتى فم خليج الشمال، فقط لم يكن لدينا المقدرة حتى نرسو أو نأخذ السفينة للشاطئ حتى يتدفق المد ويكون فى حالة جيدة، صار الوقت معلقًا فى أيدينا، أخبرنى الربان كيف أستطيع أن أرسو بالسفينة، بعد عدة محاولات نجحت، جلسنا صامتين بعد ذلك ونحن نتناول وجبة، قال لى إسرائيل هاندز بعد فترة بابتسامة غير مريحة:

- هذا زميلى القديم فى السفينة، "أوبراين" يجب عليك أن ترمى به فى البحر، لأنى لم أفعل ذلك كما تقول القواعد لظروفى ولن يستطيع أحد أن يلوم على بقاء هذا الجسد حتى الآن، وأعتقد أنه لم يعد زينة الآن، ويجب أن نقذف به إلى البحر، أليس كذلك؟

قلت:

- لكنى لست قويًا بدرجة كافية ولا أحب أن أفعل ذلك وهو يرقد بعيداً هناك.

وأضاف هاندز قائلاً وعيناه ترف:

- هيسبنيولا سفينة غير محظوظة يا جيم، فقد قتلت قوة من الرجل على متنها، منظر هذا الرجل المسكين الذى منذ أخذت السفينة أنا وأنت إلى بريستول صعب جداً، لم أر مثل هذا الحظ السيئ أبداً، والآن يوجد "أوبراين" هنا ميتًا على ظهر السفينة، إنه ميت، أليس كذلك؟ والآن أنا لست رجلاً متعلمًا وأنت فتى تستطيع القراءة والحساب وتضع الأمور فى نصابها، هل من الممكن أن نتعامل معه كرجل ميت، مات لأجل الخير، هل سيعود مرة أخرى على قيد الحياة؟

أجبت قائلاً:

- من الممكن أن تقتل الجسد يا سيد هاندز لكنك لن تستطيع أن تقتل الروح، يجب أن تعرف ذلك فعلاً، إن أوبراين الآن فى العالم الآخر وربما إنه يراقبنا.

قال هاندز:

- آه.. حسنًا، هذا أمر غير محظوظ ويظهر وكأن قتل الجماعات مجرد تضييع وقت، ومع ذلك فالأرواح لا تعتقد فى ذلك كثيراً إضافة لما رأيت، والآن تتحدث بحرية وسأعتبر ذلك نوعًا من العطف منك إن نزلت إلى الكابينة وأحضرت لى زجاجة خمر يا جيم، ستجد البراندى القوى جداً والمناسب لرأسى.

الآن يبدو تردد الربان هاندز غير طبيعى وخاصة لفكرة أنه يفضل الخمر على البراندى، أنا لا أقصد ذلك كلية، أرى أن القصة كلها مجرد حجة وذريعة، كان يريدنى أن أغادر سطح السفينة كى تصير خالية له لغرض ما لا أستطيع أن أتخيله، عيناه لم تقابل عينى أبداً، ظلتا تتجولان جيئة وذهاباً وأعلى وأسفل والآن تحدق فى السماء، تنظر الآن بلمحة مرفرفة على جسد أوبراين الممدد، ظل طوال الوقت يبتسم ويخرج لسانه خارج فمه بشكل إجرامى وبسلوك مريك، لدرجة أن الطفل نفسه يستطيع أن يخمن أنه ينوى عمل شىء ينطوى على الخداع، اندفعت بالرد وتلبية الطلب على الرغم من أننى أعرف أين تكون مصلحتى ومع شخص وزميل وضيع وغبى جداً، استطعت أن أخفى شكوكى بسهولة إلى النهاية، سألته:

- أتريد بعض الخمر؟ أتريدها بيضاء أم حمراء؟

أجاب:

- حسنًا، كلاهما حسن بالنسبة لى يا زميلى، المهم أن تكون قوية وكثيرة، فما احتمالات وجودها؟

أجبت:

- تمام، وسأحضر لك بعض لحم الخنزير يا سيد هاندز ولكنى سأضطر أن أفتش عنه جيداً.

وعلى الرغم من ذلك أحبطت الزميل وشغلته بما أستطيع من ضوضاء وخلعت حذائى وجريت بهدوء عبر صالة الصراع والتشاحن وركبت سلم أعلى مقدمة السفينة وأخرجت رأسى بعيداً عن الزميل الأمامى، كنت أعرف أنه لا يتوقع أن يرانى مرة ثانية هناك ومع ذلك أخذت كل حذرى الممكن وبالتأكيد صارت أسوأ شكوكى حقيقة جداً.

نهض من مكانه على يديه وركبتيه على الرغم من أن إحدى ساقيه كانت تؤلمه بشدة وظهر ذلك حين تحرك، فقد سمعته يكتم آهاته وعلى الرغم من ذلك كان يتحرك بمعدل جيد وسريع حين كان يجرجر نفسه على سطح السفينة وفى خلال نصف دقيقة استطاع أن يصل إلى مكان المخربين ويلتقط لفة من الحبال وسكينة طويلة أو هى خنجر قصير إلى حد ما، مخضب بالدم، نظر له للحظة ووضعه تحت فكه وجرب نصله وحافته فى يده ثم أخفاه بسرعة فى صدر الجاكيت الخاص به ثم تدحرج وعاد مرة أخرى لمكانه القديم المقابل للحصن.

هذا كل ما أردت أن أعرفه، إسرائيل هاندز يستطيع أن يتحرك وهو الآن مسلح وهو مستعد الآن للتخلص منى، كان واضحًا جداً أننى سأكون ضحية، تُرى ماذا سيفعل بعد ذلك؟

سواء كان سيحاول أن يزحف عبر الجزيرة من الخليج الشمالى إلى المعسكر بين المستنقعات أو أنه سيحرق لونج توم، فإننى أثق تمامًا أن أصدقاءه ربما يأتون أولاً لكى يساعدوه.

بالطبع سيكون هذا أكثر من مجرد الكلام الذى أقوله، شعرت بتأكيد كبير أن هناك شيئًا واحداً يجعلنى أثق فيه وهو أن كلاً منا يود أن يقفز من تلك السفينة وأن ذلك هو إحدى قواعد السفينة وكلانا يرغب أن يحصل على أعلى درجات الأمان وأن يقبع فى مكان آمن، ولذلك حين حان الوقت استطاعت السفينة أن تبدأ الحركة مرة أخرى بمجهود بسيط وخطر مثل كل المرات وحتى تم ذلك، اعتبرت أن حياتى يجب أن يحافظ عليها بالتأكيد.

وبينما أدير الأمر فى رأسى، لم أكن كسولاً مع جسدى، فقد عدت مرة أخرى إلى الكابينة وخلعت حذائى أكثر من مرة ووضعت يدى بالصدفة على زجاجة خمر، والآن لأجل هذا السبب استطعت أن أعاود الظهور مرة أخرى على ظهر السفينة.

كان هاندز راقداً كما تركته، كل الأشياء كانت معًا فى حزمة واحدة، فقد كان جفونه متدلية، كما لو أنها كانت ضعيفة جداً لدرجة أنها لا تستطيع أن تتحمل الإضاءة، نظر لأعلى حين عدت وضرب رأس زجاجة الخمر مثل رجل يفعل ذلك بصفة دائمة وأخذ جرعة كبيرة من الزجاجة فى صحته ثم رقد هادئًا قليلاً ثم سحب عوداً من التبغ وتوسل إلى أن أقطع له مضغة منه، قال لى:

- اقطع لى مضغة من ذلك، فأنا لا أمتلك سكينًا لذلك وصحتى ليست قادرة وكافيه، آه يا جيم أعتقد أننى فقدت قدرتى على التحمل، اقطع لى مضغة، سيكون طلبى الأخير أيها الفتى فأنا بعيد عن وطنى لمدة طويلة ولم أرتكب أى أخطاء.

قلت له:

- حسنًا، سأقطع لك بعض التبغ، ولو أننى مكانك وأعتقد أننى سيئ جداً - لذهبت إلى الصلاة مثل الرجل المسيحى المتدين.

قال لى:

- لماذا.. أخبرنى الآن لماذا؟

صرخت:

- لماذا؟!، لقد أفقدتنى الثقة فيك، إنك تعيش فى ذنب كبير وتكذب وقتلت، يوجد رجل قتلته ويرقد تحت أقدامك فى هذه اللحظة وتسألنى لماذا؟! لكى تطلب رحمة الرب يا سيد هاندز، لأجل ذلك أقول لك يجب أن تصلى.

تحدثت بحماس أقل، وبدأت أفكر فى الخنجر الملطخ بالدماء الذى يخفيه فى جيبه ويخطط فى أفكاره المريضة أن ينهى حياتى به ورأيته يشرب مقداراً كبيراً من الخمر ثم تحدث بوقار كبير غير معتاد قائلاً:

- لمدة ٣٠ عامًا، أجوب البحار وأرى الصالح والطالح، الأحسن والأسوأ، الطقس السيئ والجيد، نفاذ المؤن وإشهار السكاكين للقتال، حسنًا والآن أقول لك إننى لا أرى شيئًا حسنًا قادمًا، أتخيل أن الرب سوف يعاقبنا والأموات لا يفعلون شيئًا على أى حال، وتلك رؤيتى.

وأضاف قائلاً:

– وأنت الآن ترى هنا؟

ثم تغيرت نغمة صوته قائلاً:

– لدينا ما يكفينا من الحماقة، والمد الآن فعل أحسن ما عنده، فقط نفذ ما أقوله لك يا كابتن هوكنز، سوف نبحر فى ممر بين هضبتين، والتزم بما سأقوله لك.

قال كل شىء، كان لدينا حوالى ميلين حتى نصل، لكن الملاحة كانت صعبة والمدخل إلى الشمال لم يكن ضيقًا وضحلاً فقط، ولكنه يأخذ للشرق أو الغرب، لذا واجب علينا أن نقود السفينة يدويًا كى ندخل للخليج، أعتقد أننى كنت ملازمًا وتابعًا لما يقول، كنت متأكدًا أن هاندز ربان جيد لما فعله، فقد كنا نتحرك بهدوء ونراوغ وننتقل جيئة وذهابًا حتى دنونا واقتربنا من الضفة بشكل مؤكد ومنتظم أسعدنا أن يحدث.

مررنا على بعض القمم قبل أن تحاوطنا الأرض، وشواطئ خليج الشمال كانت ممتلئة بالأشجار الكثيفة مثل الشواطئ الموجودة فى الجنوب، لكن المكان كان أطول وأضيق وأكثر تشابكا عند مصب النهر وتلك هى الحقيقة.

وعلى يميننا وعند النهاية الجنوبية، شاهدنا حطام سفينة فى المراحل النهائية لتدميره وكانت مركبة عظيمة بثلاثة أشرعة، لكنها ترقد الآن معرضة لسوء الأحوال الجوية ومغروزة الآن بشباك عظيمة للعشب والطحلب البحرى إلى حد عظيم وعلى ظهرها وضعت شجيرات الشاطئ بنورها وازدهرت بشكل كثيف بأزهارها، كان منظراً حزينًا، ولكن ذلك أوضح لنا أن المرسى كان هادئًا، قال هاندز:

– والآن انظر هناك، يوجد قطعة من الشاطئ عليها سفينة حيث الرمال المسطحة الناعمة ولا أثر لحيوان، الأشجار تحيط بها والزهور تزدهر مثل حديقة على سفينة قديمة.

استفسرت قائلاً:

– وهل نزل أحد للشاطئ، كيف ننزل منها ثانية؟

قال:

– ولم ذلك؟! سنأخذ محاذاة الشاطئ هناك على الجانب الآخر فى المياه الضحلة ثم نستدير حول أحد أشجار الصنوبر الضخمة، ستأخذ لفة حول الرحوية التى ترفع الأثقال وتنتظر المد فحين تأتى لماء الأمواج العالية، يأخذ كل البحارة جرعة من الشراب وينتظرون حتى تعود الأحوال لطبيعتها وتصير جيدة، والآن عليك أن تجهز نفسك يا بنى، فقد اقتربنا من تلك الجزئية، هى فى طريقها الآن، خذ جهة الميمنة قليلاً وكن أكثر ثباتًا.

ثم أعطى هاندز أوامره التى أطعتها دون أى نفس حتى انفجر فجأة قائلاً:

– والآن يا عزيزى ستدير المركب نحو الريح.

وبدأت فى رفع الدفة وبدأت السفينة هيسبنيولا تتأرجح بسرعة وتتحرك نحو الشاطئ الشجرى المنخفض، كانت تلك الإثارة للمناورة الأخيرة تصادمت لحد ما مع المراقبة التى ظللت أحافظ عليها حتى تلك اللحظة لهاندز الملاح وبشكل حاد وكاف، حتى وأنا ما زلت مهتمًا بعملى للوصول للشاطئ ومنتظرًا السفينة أن تصل لبر الأمان، كنت أنسى أحيانا الخطر الذى يطوق رقبتى وأفق كى أرفع الحواجز تجاه الميمنة وأراقب التموجات تنتشر بشكل واسع قبل المقدمة، ربما أسقط دون أى كفاح لحياتى التى صارت قلقًا مفاجئًا سيطر علىّ وجعلنى أحول رأسى وأغير أفكارى، ربما سمعت صريرًا أو شاهدت ظله يتحرك بطرف عينى، ربما كان ذلك غريزة فىّ مثل حرص القطط ولكنها كانت تتأكد بشكل زائد، فحين نظرت حولى كان فى منتصف الطريق إلىّ ممسكًا خنجره فى يده اليمنى.

صرخ كل واحد منا حين التقت عين كل واحد منا بالآخر، لكن كانت صرختى صرخة رعب صاخبة، وكانت صرخته زئير غضب شديد مثل الثور الهائج، فى نفس الوقت قذف بنفسه للأمام وقفزت فى كل جانب حتى وصلت للأمام وفعل نفس الشىء، وصلت إلى ذراع المقود الذى قفز بحدة إلى الجهة التى تهب فيها الريح وأعتقد أن ذلك أنقذ حياتى، فقد ضربه ذلك فى صدره وأوقفه للحظة.

وقبل أن يتعافى كنت فى أمان خارج الركن الذى حاصرنى فيه وراوغته حتى وصلت للشراع الرئيسى وتوقفت وسحبت المسدس من جيبى، وصار هدفًا باردًا لى على الرغم من أنه استدار واتجه إلىّ مباشرة، سحبت زناد المسدس لكنى لم أسمع صوتًا له ولم أر أى نار خارجة منه، لقد كانت فتيلته بلا فائدة بفعل ماء البحر، لعنت نفسى بسبب إهمالى، لماذا لم أعد تشحيمه وصيانته منذ وقت بعيد وتعميره بالذخيرة، فهو سلاحى الوحيد، لم أكن فى حاجة إليه، أى لحظة مثل الآن، صرت مثل خروف هارب من الجزار قبل الذبح.

رغم أنه كان مجروحًا، فإنه كان يتحرك بسرعة بشكل رائع وشعره الرمادى منتشر على وجهه الذى احمر مثل راية البحرية البريطانية وبفعل السرعة والغضب، لم يكن لدى وقت كى أجرب المسدس الآخر، فلم يكن لدى رغبة أو ميل كبير لفعل ذلك لأننى كنت متأكدًا أنه بلا فائدة، شىء واحد رأيته ببساطه وهو يجب ألا أتراجع أمامه، لأنه سوف يقبض علىّ عند المجدافين الأماميين وبعد لحظة كنت على وشك أن يقبض علىّ فى المؤخرة، كنت على بعد تسع أو عشر خطوات من الخنجر الملطخ بالدم الذى سيكون آخر خبرتى على هذا الجانب من الحياة، وضعت راحة يدى على الشراع الكبير الذى كان ضخمًا، وانتظرت لحظة الشجاعة وبأعصاب قوية فى تلك المسافة.

رأيت أنه يجب أن أراوغ وتوقف للحظة ومرت لحظة أو لحظتين منتظرًا هجومه المخادع من جانبه وتحركات مماثلة من جانبى، لقد كان ما يحدث مثل لعبة لعبتها فى المنزل عن صخور خليج هل الأسود، لكن عليكم أن تتأكدوا أن قلبى يدق بسرعة وخوف كما لم يحدث من قبل، وما زلت أقول لنفسى أنها مطاردة بين شاب صغير فى مقابل بحار عجوز جريح وبدأت شجاعتى تزداد وترتفع عاليًا لدرجة أننى سمحت لنفسى بقليل من الأفكار المتدفقة حتى أستطيع أن أنهى هذا الأمر، فيما كنت أرى أننى بالتأكيد أستطيع أن أستدير بسرعة لمسافة أطول، كنت أرى أنه لا أمل فى هروب نهائى ومطلق.

وبينما كانت الأحوال على ما هى، فجأة ترنحت السفينة هيسبنيولا وغرزت فى الرمال وبسرعة كأنها هبة ريح وبحركة مفاجئة مالت السفينة على جانبها حتى إن السطح صار على درجة ٤٥ درجة ميلاً حتى إن العمود الخشبى لمقياس الماء سقط فى بالوعة السفينة فى الحوض بين السطح والحصن.

انقلبنا معًا فى ثانية وكلانا تدحرج، تقريبًا معًا، فى بالوعات السفينة، كان صاحب القبعة الحمراء الميت ما زال ممددًا فاردًا ذراعيه وسقط متصلبًا بعدنا، كنا قريبين من بعضنا البعض وكانت رأسى فى مقابل قدم الربان وحين اصطدمت بها أحدث ذلك احتكاك فى أسنانى، نهضت قبل هاندز مرة أخرى وسبقته، وبالنسبة لهاندز كان متورطًا مع الجسد الميت، أحدث السقوط المفاجئ للسفينة حالة جعلت سطح السفينة غير معدة للجرى عليها، اضطررت أن أجد طرقًا جديدة للهروب، وبالنسبة لعدوى كان على وشك أن يلمسنى فأسرعت قدر استطاعتى وقفزت إلى الصارى الأقرب لمؤخرة السفينة وواصلت الصعود بسرعة على يدى ولم آخذ نفسى حتى استقرت على منصة الصارى، أنقذت بسبب سرعتى ويقظتى، كان الخنجر على بعد لم يزد على نصف قدم تحتى وأنا أواصل الهروب لأعلى، وهناك وقف هاندز فاتحًا فمه ووجهه تغير فى مواجهتى، كان به حالة كاملة من الدهشة والإحباط.

صار لدى الآن لحظة كى آخذ نفسًا، لم أضيع وقتًا فى تغيير فتيل المسدس، صار معى أحدهما جاهزًا للعمل وتأكدت من ذلك أكثر من مرة، بدأت أسحب الذخيرة من الآخر وأعاود تعمير الجديد بالذخيرة الجديدة من البداية، كان استعمالى الجديد للمسدس صدم هاندز بدرجة كبيرة، بدأ يرى أن الموقف أصبح ضده الآن، وبعد تردد واضح سحب نفسه بتثاقل إلى حبال الصارى حاملاً الخنجر بين أسنانه وبدأ بهدوء وبألم يقف وكلفه ذلك آلامًا كبيرة كى يسحب ساقه المجروحة وراءه وأخذ وقتًا طويلاً استطعت أن أنهى كل الترتيبات قبل أن يكون على بعد ثلثى المسافة للصعود إلىّ، فقلت له وبيدى المسدس فى اليد الأخرى:

- خطوة واحدة أخرى وسوف أخرج مخك من رأسك، والأموات لا يعضون وأنت تعرف ذلك جيدًا وضحكت ضحكة مكتومة.

توقف هاندز بثبات، رأيت من خلال تعبيرات وجهه أنه يحاول أن يفكر، كانت العملية بطيئة، شعرت بحالة من الأمن الموجود حديثًا، ضحكت بصوت عال، أخيرًا تحدث بازدراء، كان وجهه ما زال يرتدى تعبيرات الحيرة الشديدة، لكى يتحدث، اضطر أن يأخذ الخنجر من فمه ولكنه ظل ساكنًا بلا حركة.



خطوة أخرى يا سيد هاندز وسوف أفجر مخك

قال هاندز:

- جيم، أعتقد أن كلانا مخطئ، أنا وأنت، فقد كنا على وشك أن نتفق وأنا كنت معك لكن تمايل السفينة هو الذى فعل ذلك، لست محظوظًا وأعتقد أننى سوف أتوقف عن العمل، فما سيأتى سيكون صعبًا، كما ترى بالنسبة لملاح عجوز بالمقارنة لبحار شاب مثلك يا جيم.

كنت أبلع كلماته وابتسم سعيداً، كنت مغروراً مثل الديك الواقف على جدار وفى نفس واحد، أعاد للخلف يده اليمنى فوق كتفه، وسمعت شيئًا يغنى مثل سهم فى الهواء، سمعت بانفجار ثم ألم مفاجئ حاد ثم التصقت من كتفى فى الصارى، خلال هذا الألم البشع واللحظة المدهشة، أستطيع أن أقول إن ذلك كان بإرادتى، كنت متأكداً أن ذلك حدث دون وعى، كلاً من مسدسى انطلقا وسقطا بعيداً من يدى، لم يسقطا بمفردهما، فبصرخة مختنقة فقد البحار هاندز قدرته على الإمساك بحبال الصارى وسقطت رأسه بشكل مباشر إلى الماء.

٢٧- عملة الثمانى(*)

بسبب الحركة المفاجئة للمركبة، صارت صوارى المركب بعيدة فوق الماء ومن مقعدى فوق منصة الصارى رأيت لا شىء تحت إلا سطح الخليج حيث هاندز الذى لم يكن بعيداً وكان فى وضع أقرب إلى السفينة، فقد كان سقوطه بينى وبين الحواجز، وقد صعد إلى السطح مرة فى إحدى رغوات الزبد والماء ثم غرق مرة أخرى لحسن الحظ.

ولأن الماء كان مستقراً هادئاً فقد استطعت أن أراه راقداً مستقراً على الرمل الناعم النظيف فى ظل جوانب المركب، وقد مرت بجوار جسده سمكة أو اثنتان وأحياناً حين يرتعش الماء يظهر أنه قد تحرك قليلاً كما لو كان يحاول أن يصعد مرة أخرى ولكنه كان ميتاً تماماً، فقد كان مقتولاً بالرصاص وغارقاً وطعاماً للسمك فى هذا المكان حيث خطط أن يكون ذابحى.

لم أكد أتأكد من ذلك حتى بدأت أشعر بالتعب والإغماء والرعب، فقد كان الدم الساخن يتدفق من ظهرى وصدرى، يبدو أن الخنجر الذى دبس كتفى فى الصارى يبدو أنه حرقنى مثل قطعة حديد ساخنة، وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك المعاناه الحقيقية الكبيرة التى تؤلمنى، فإننى أستطيع أن أتحمله بدون تذمر، لكن الرعب بالنسبة لى أن أسقط من فوق منصة الصارى إلى هذا الماء الضحل الأخضر بجوار جسد الملاح هاندز.

تشبثت بكلتا يدى جيداً حتى تألمت أظافرى وأغلقت عينى وكأننى أتخطى وأغطى الخطر، وتدريجياً عاد إلى ذهنى وعاد نبضى إلى معدلات طبيعية وعدت مرة أخرى

(*) بيزو إسبانى قديم يساوى ٨ ريالات.

إلى نفسى، وكانت فكرتى الأولى أن أقتلع الخنجر حتى ولو كان مغروزا جداً، وحتى لو أن أعصابى خانتنى، فإننى خلعته برعشة عنيفة وبشكل غريب، قامت تلك الرعشة الشديدة بهذا الفعل فى الحقيقة، كانت السكينة قريبة جداً منى وكادت تقتلنى، لكن لم يصبنى منها إلا مثل قرصة بسيطة فى جلدى ثم غادرتنى هذه الرعشة بسرعة، سقط الدم أسفل بسرعة، صرت سيد نفسى مرة أخرى على السفينة وثبت فقط صارى السفينة بواسطة معطفى وقميصى.

وأخيراً اخترقت بواسطة هزة عنيفة، واستعدت سطح السفينة مرة أخرى من خلال الأشرعة التى بالميمنة، فلا شىء فى العالم يستحق أن أغامر لأجله مرة أخرى وأهتز كما كنت وأسقط من فوق الأشرعة المعلقة التى سقط من عليها أخيراً هاندز.

ذهبت إلى أسفل وفعلت ما أستطيع أن أفعله من أجل الجرح الذى كان يؤلمنى رغم تعاملى معه جيداً، ما زال ينزف بشكل متصل ولكنه لم يكن عميقًا أو خطيراً ولم يكن يغيظنى بشكل كبير حين أستخدم ذراعى ونظرت حولى على السفينة وبإحساس بداخلى اتخذت قراراً وبدأت أفكر فى تنظيف السفينة وإخلائها من الراكب الأخير، البحار الميت "أوبراين" الذى غاص كما قلت فى مقابل الحواجز، حيث يرقد مثل دمية بشعة ومرعبة لكنها فى حجم إنسان حقًا، لكن لونها يختلف تمامًا عن اللون اللائق للإنسان الحى، ففى هذا المكان كنت أستطيع أن أجد طريقى معه، وكعادة كل المغامرين التراجيديين مزقت كل رعبى من الموت وحملته من وسطه وكأنه جوال من الردة والنخالة، وبهمة واحدة جيدة رميت به فى البحر، غطس فى البحر غطسة لها صوت، لقد خُلع الكاب الأحمر وظل عائمًا على سطح البحر، وبمجرد أن هدأت الطرطشة استطعت أن أراه قائمًا إلى جنب إسرائيل، كلاهما يتحرك مع حركة الماء.

ما زلت أعتقد أن أوبراين شاب جرىء إلى حد ما، فهناك يرقد بهذه الرأس الصلعاء بين ركبتى الرجل الذى قتله والسمك السريع الحركة يتخذ سبيله فوقهم جيئة وذهابًا، فأنا الآن وحيداً على ظهر السفينة والمد تحول من لحظة، وما زالت الشمس على درجات قليلة من وضعها لدرجة أن ظل أشجار البلوط على الشاطئ الغربى بدأت تصل يمينًا عبر المرسى وتسقط نماذج لها على سطح المركب.

بدأ نسيم الماء يزيد، وعلى الرغم من أنه يصد من التل الذى له قمتان فى الشرق فإن حبال السفينة بدأت تغنى برقة وهدوء لنفسها وبدأت أشرعتها الكسولة تهتز جيئة وذهابًا.

بدأت أرى خطرًا على السفينة والأشرعة الأمامية للسفينة تغطس بثبات وتسقط على سطح السفينة، لكن الشراع الرئيسى كان فى وضع أصعب بالطبع، حين تحركت السفينة حركة مفاجئة تمرجح ذراع التطويل فى السفينة خارجها، اهتزت قمة السفينة وقاعدتها واثنان من الأشرعة تعلقتا وصارتا تحت الماء، أعتقد أن ذلك جعلها أكثر خطورة وعلى الرغم من الضغط الذى كان ثقيلاً جدًا لدرجة أننى خفت بشدة أن أتدخل.

أخيرًا حصلت على سكينتى وقطعت حبل الراية، سقطت القمة بثبات وطفت وقماش الأشرعة المفكوكة على سطح الماء، ومنذ ذلك كنت أسحب كما أحب، لكنى لم أستطع أن أتزحزح عن الصالة السفلية التى كانت المدى الذى أستطيع أن أنجزه وأتحرك فيه ويتبقى أن تجد سفينة هيسبنيولا حظًا كما وجدت أنا.

قبل هذا الوقت أصبح كل المرسى فى الظل، كانت آخر أشعة تذكرتها سقطت فى أرض فضاء فى الغابة وأشرقت مثل الجواهر على عباءة مزدهرة لحطام السفينة، بدأت تتحرك وترتعش، كان المد يتحرك كلحظة عابرة نحو البحر، استقرت السفينة أكثر وأكثر على جانبها(*).

تسلقت للأمام ونظرت أتفحص الأمر، كان المكان يبدو ضحلاً وحملت حبل الهوسر الضخم المقطوع فى كلتا يدى من أجل الحائط الأخير للأمن، تركت نفسى بعدها أسقط برقة فى البحر، لم يصل الماء إلى منتصفى تقريبًا، كان الرمل ثابتًا ومغطى بعلامات التموج، خضت ناحية الشاطئ بروح معنوية عالية تاركًا هيسبنيولا مستقرة على جانبها وشراعها الرئيسى منتشر على سطح ماء الخليج، فى نفس الوقت بدأت الشمس تغرب وبدأ النسيم يصفر بصوت منخفض فى الغسق بين أشجار البلوط المتساقطة.

(*) تميل السفينة بشكل خطر بدرجة ٩٠ على جانبها.

على الأقل وأخيراً صرت خارج البحر، ولم أعد من ثم خالى اليدين، فهناك السفينة موجودة خالية أخيراً من القراصنة وجاهزة لرجالنا كى يعبروا بها ويذهبوا إلى البحر مرة ثانية، لم يأت لخيالى شىء أكثر من العودة إلى بيتى مرة أخرى فى الحصن وأتفاخر كثيراً بإنجازاتى، ومن الممكن أن يُلام على قليلا لهروبى من أداء الواجب ولكن إعادة السيطرة على السفينة هيسبنيولا هى الإجابة الحاسمة التى سوف تقف معى، أتمنى أن يعترف الكابتن سموليت أننى لم أضع الوقت هباء.

وبعد تفكير عميق وبروح معنوية عالية بدأت أتجه نحو موطنى فى الحصن وأصدقائى، وبدأت أتذكر أن أغلب الأنهار الشرقية تنحدر من مرفأ الكابتن " كيد " من التل العالى ذى القمتين على يسارى، فأخذت طريقى فى هذا الاتجاه الذى ربما أمر فيه على مجرى مائى كان صغيراً، كانت الغابة مفتوحة بشكل جيد وواصلت المسير عبر النتوءات المنخفضة.

استدرت إلى ركن من هذا التل وخضت حتى منتصف ساقى عبر المجرى المائى، أخذنى هذا الطريق إلى حيث قابلت مصادفة بن جن الشخص الذى تُرك على الجزيرة وسرت فى طريقى أكثر حذراً واضعاً عينى على كل جانب، صار الغسق قريباً تماماً، أخذت الشق الذى بين القمتين، صرت مدركاً للوهج المرتعش فى السماء حيث قررت أن رجل الجزيرة يطبخ عشاءه مستخدماً تلك النار المتوهجة، وتساءلت فى قلبى، ألم ير نفسه أكثر إهمالاً لأنه إذا كنت قد استطعت رؤية هذا الشعاع، ألا يصل هذا الشعاع لعين سيلفر نفسه الذى يعسكر على الشاطئ بين الأهوار!!

بدأ الليل يهبط تدريجياً مظلماً، كان ذلك كل ما استطعت فعله كى أرشد نفسى حتى ولو بشكل قاس تجاه المكان الذى أقصده، كان الجبل المزدوج خلفى وجبل النظارة المكبرة على يمينى يظهر أكثر شحوباً والنجوم كانت قليلة وشاحبة وفى الأرض المنخفضة التى أتجول فيها صرت أسير برشاقة بين الشجيرات وأتدحرج فى الحفر الرملية.

فجأة نوع من الضوء سقط علىّ، نظرت لأعلى حيث كان شعاع شاحب من أشعة القمر قد أشرق على قمة الجبل، ثم رأيت بعد ذلك شيئاً واسعاً وفضياً يتحرك لأسفل

خلف الأشجار، عرفت أن القمر قد أشرق، بمساعدة ذلك استطعت أن أمر بسرعة فيما تبقى من رحلتى، كنت أمشى أحيانًا وأجرى أحيانًا أخرى وبعجلة اقتربت من الحصن، مع ذلك بدأت أشق طريقى فى البستان المجاور للحصن، لم أكن بلا فكر ولكنى قللت من سرعتى وذهبت ببطء وحذر، خوفًا أن تكون نهاية مغامرتى طلقا ناريا من أحد أصدقائى بدون قصد.

كان القمر يتسلق أعلى وأعلى، وضوؤه بدأ يسقط هنا وهناك بكميات خلال المناطق المفتوحة من الغابة وعلى يمينى رأيت وهجًا لألوان مختلفة ظهرت بين الأشجار، كانت حمراء وحارة ومن وقت لآخر كانت تسود، يبدو أنها جنوة نار لموقد، من أجل حياتى لم أفكر ماذا تكون.

أخيرًا وصلت إلى حدود المكان، كان الغروب قد غمس فى أشعة القمر والحصن نفسه ما زال راقدًا فى ظل أسود يبحث عنه بأشعة فضية طويلة للضوء وكان على الجانب الآخر للحصن نار ضخمة تحرق نفسها إلى جنوة واضحة وكوخ مستقر هناك وانعكاس أحمر يتقابل بقوة مع شحوب ناعم للقمر، لم يكن هناك أى روح تثور ولا أى صوت بجانب ضوضاء النسيم.

توقفت وكثيرا من الدهشة تملأ قلبى، وربما قليل من الرعب، لم تكن تلك طريقتنا فى عمل نار ضخمة، كنا حقًا شحيحى استخدام لخشب النار طبقًا لأوامر الكابتن.

بدأت أخاف أن يكون شىء قد حدث خطأ أثناء غيابى، انحدرت حول الحصن قبل الشروق، وظللت قريبًا فى الظلمة واخترت مكانًا مناسبًا، وحيث إن الظلام كان كثيفًا فقد عبرت السياج الذى كان حول الحصن، ولكى أكون متأكدًا أكثر زحفت على يدى وركبتى دون أى صوت تجاه أحد أركان المنزل، وكلما اقتربت أكثر أضاء قلبى فجأة وبشكل كبير، لم تكن ضوضاء سعيدة على أى حال، وكم غالبًا اشتكيت منها بعد ذلك فى أوقات أخرى، كانت تلك مثل الموسيقى التى يسمعها أصدقائى كشخير معًا بصوت عال وآمن فى نومهم، لم أسمع صرخة البحر الجميلة للمراقب "كله تمام" كى تؤكد ذلك على مسامعى أن كل شىء تمام، وأثناء ذلك لم يكن هناك شك فى شىء واحد وهو أنهم يحرسون المكان بطريقة سيئة، فلو أن سيلفر وشبابه موجودون لزحفوا عليهم الآن،

ولم نعد نرى أى روح مع طلوع الفجر، هذا ما كنت أفكر فيه أن يكون الكابتن قد جُرح ومرة أخرى قد لمت نفسى بحدة لتركهم فى هذا الخطر مع عددهم القليل جداً لتولى الحراسة.

وقبل هذا الوقت، ذهبت إلى الباب ووقفت، كان كل شىء مظلما بداخله حتى إننى لم أستطع أن أميز شيئًا بعينى وبالنسبة للأصوات كان هناك أزيز مستمر لشخير بعض النائمين وضوضاء مناسبة للأمر، كنت أحاول أن أتحسس طريقى، كنت أسير على ذراعى بثبات، قلت لنفسى وأنا أضحك ضحكة مكتومة، لم لا أنام فى مكانى هنا وأستمتع بوجودهم حين يجدونى فى الصباح، ضربت قدمى شيئًا ما كان موجوداً فى الطريق، كان ساق أحد النائمين فاستدار وتألم لكن بدون أن يتيقظ ثم فجأة سمعنا صوت صراخ قوى شق الظلام قائلاً:

- عملة الثمانى، عملة الثمانى، عملة الثمانى، عملة الثمانى!!

واستمر دون أن يتوقف أو يتغير مثل طقطقة طاحونة صغيرة، كان ببغاء سيلفر الأخضر وكابتن فلنت، كان هو الذى سمعته ينقر على قطعة الخشب، إنه كان أحسن حارس وأحسن من أى كائن حى، هو الذى أعلن عن وصولى بتكراره ولازمته المملة.

لم يكن لدى أى وقت لفعل شىء، فصوت الببغاء بنغمته الحادة الناقرة أيقظت النائمين فقاموا وبصوت حاسم كأنه يحلف يمينًا، قال سيلفر:

- من يتحرك؟!

حاولت أن أهرب وضربت بعنف شخصًا ما، ارتددت وسقطت بين أذرع أحد الرجال فى ثانية، أطبق علىّ بشدة وطوقنى تمامًا، قال سيلفر حين أكد الشخص الذى أسرنى إمساكه لى:

- أحضر كشافا يا ديك!!

فغادر أحد الرجال المكان وأحضر بسرعة جمرة مضيئة.

الجزء السادس

(قبطان سيلفر)

٢٨- فى معسكر الأعداء

كان الضوء الأحمر للمصباح يضىء مدخل الحصن، يرينى أسوأ مكان لاعتقالى أدركته، كان القراصنة قد احتلوا المنزل والمخازن حيث يوجد برميل للكونياك ولحم الخنزير والخبز، وما زاد وضاعف عشرات المرات خوفى أننى لم أجد أثرًا لأسير، خمنت أن الجميع قد هلك لا محالة، وبدأ قلبى يدق بعنف ومرارة لأننى لم أكن موجودًا كى أهلك معهم.

كان موجود ستة من القراصنة، ولم أجد أحدًا من أصدقائى بينهم على قيد الحياة، كان خمسة منهم واقفين على أقدامهم هائجين ومثارين ومنتفخين، وفجأة استيقظوا من نومهم بسبب الشرب، والسادس وقف على كومة وكان شاحبًا جدًا ولفافة ملوثة بالدماء حول رأسه، أخبرنى أنه مجروح حديثًا وما زال يعالج، لقد تذكرت الرجل الذى أطلق عليه النار وهرب عائدًا مرة أخرى بين الأشجار فى الهجوم الكبير ولم أشك أنه قد يكون هو.

ما زال الببغاء يقف متأنقًا فاردًا ريشه على كتف لونج جون، هو نفسه- جون - يبدو إلى حد ما شاحبًا وأكثر قسوة وصرامة عما اعتدت أن أراه، ما زال يرتدى بذلته الجميلة الفضفاضة كما لو أنه قد أنجز مهمته ورسالته، لكنها كانت الأسوأ لارتدائها لأنها قد لوثت بالطين ومزقت بواسطة الورد البرى الموجود فى الغابة.

قال سيلفر:

- إنه جيم هوكنز.

ارتعشت أضلاعى.

- جاء لزيارتى فجأة، أهلاً به، سأستقبل ذلك بود شديد.

ثم جلس على برميل البراندى وبدأ يملأ البايب بالتبغ، وقال:

- أعطنى جذوة للتواصل يا ديك.

وحين حصل على ضوء جيد أضاف قائلاً:

- سأفعل ذلك يا فتى، سأثبت هذا فى كومة الخشب وأنت أيها الشاب، تعال هنا، لستم مضطرين أن تقفوا لأجل السيد هوكنز، فسوف يعتذر لكم وأرجو أن تركنوا لذلك وتتقبلوه.

ثم توقف عن شرب التبغ وأضاف:

- جيم هنا حيث أنتم تكونون، ويالها من مفاجأة كبيرة للعجوز الفقير الضعيف جون، لقد عرفتك ورأيتك ذكيًا، عندما وقعت عينى عليك لأول مرة، لكنك هنا قد ذهبت بعيدًا عنى ولم تفعل شيئًا ضدنا وهذا حدث.

ولم أعط أى إجابة رغم كل ما حدث ووضعونى وظهرى إلى الحائط، وقفت هناك أنظر إلى وجه سيلفر بشجاعة وبسالة كافيتين، كان لدى أمل فى الظهور الجسدى للجميع لكن كان هناك أسى أسود موجود فى قلبى.

أخذ سيلفر نفخة أو نفختين من البايب بهدوء كبير ثم استمر فى الحديث مرة أخرى قائلاً:

- والآن كما ترى يا جيم أنك هنا معتاد أن أعذرك ودائمًا أحبك وأحب روح الشباب التى لديك، وتذكرنى دائمًا بنفسى عندما كنت شابًا وسيمًا مثلك، كنت دائمًا أود أن تنضم إلينا وتشاركنا، والآن يا فتاى العزيز تستطيع أن تختار أن تكون معنا.

ورغم أن الكابتن سموليت كان جيداً كما كنت أقول وأعترف، فإنه كان صارمًا فى نظامه "النظام نظام، لا يصح إلا الصحيح" كما كان يقول دائمًا وقد كان محقًا فيما يقول، وقد تخليت أنت عن الكابتن ويعتقد الدكتور ليفزى أنك مت، وأكد أنه لم يتلق منك إلا "شكر الأنذال" وهذا ما قاله، والقصة كلها بطولها وعرضها هنا، ولن تستطيع أن ترجع إليهم، كما أنهم لن يحصلوا عليك وبدونك بدءوا صحبة ثلاثية جديدة لسفينة، وإذا أردت فعليك أن تبدأ بمفردك وأعتقد أنك سوف تنضم إلى الكابتن سيلفر.

عرفت أن أصدقائى بعيدون وفى خير وأنهم على قيد الحياة، وبالرغم من أننى صدقت ما قاله سيلفر من أن مجموعة الرئاسة بالسفينة - الكابتن والدكتور والعمدة - غضبانة منى لأننى هجرتهم فإننى كنت مرتاحاً أكثر من الحزن لما سمعت أنهم بخير، واستمر سيلفر قائلاً:

- لم أقل شيئًا مثل أنك الآن فى أيدينا، وبالرغم من أنك هناك مع الجانب الآخر فإنك ربما تذهب إليهم لو أردت، أنا مع المناقشة والجدال ولا أرى شيئًا جيداً يأتى من التهديد، لو أردت أن تخدم فسوف تنضم إلينا، وإذا لم ترد يا جيم فأنت حر أن تقول لا، فأنت حر ومرحب بك كزميل فى السفينة ولو شىء عادل قيل بواسطة بحار هالك فأنا مسئول عنه بكل جوانحى.

قلت له بصوت مرتعش:

- أيجب أن أرد الآن؟

فقول هذا الحديث الحقير جعلنى أشعر بالتهديد بالموت الذى يتوعدنى، وأحسست بخدودى تحترق وقلبى يضرب بعنف داخل صدرى، قال سيلفر:

- لا أحد يضغط عليك أيها الفتى، خذ قرارك كما تريد ولن يؤذيك أحد يا زميلى، فكما ترى أن الوقت يمر سعيداً فى صحبتك.

قلت وأنا أزداد جرأة:

- حسنًا، ما دام لدى الفرصة لكى أختار، فأنا أعلن أن من حقى أن أعرف بعض الأشياء، لماذا أنتم هنا وأين أصحابى؟

صرخ واحد من القراصنة بصوت متذمر عميق قائلاً:

- ماذا.. ماذا؟ ستكون آخر المحظوظين إذا عرفت ذلك!

صرخ سيلفر إلى هذا المتحدث قائلاً:

- هل من الممكن أن تتحسس كلامك حين تتحدث مع صديقى.

ثم تحدث بنغمة صوت رؤوف وأجاب قائلاً:

– صباح الأمس يا سيد هوكنز وأثناء المراقبة جاء الدكتور ليفزى حاملاً راية الاستسلام وقال لى: لقد خنت زملاءك، والسفينة قد ضاعت، حسنًا، هل من الممكن أن نشرب كأسًا معًا ونسمع لأغنية لعلها تساعدها أن تعود، لم أقل له لا، وعلى أى الأحوال لم ينظر أحد منا للخارج وبسبب العاصفة ضاعت منا السفينة! لم أر أى أحد من الأغبياء مثل الصياد، ويجب أن تخضع لذلك.

قال الدكتور:

– حسنًا، دعنا نعقد صفقة.

وعقدنا صفقة أنا وهو، ولذا نحن هنا ومعنا المخازن والبراندى والحصن والحطب المعد للتدفئة الذى تستطيع أن تصنع منه ما تشاء وبالنسبة لهم فهم الآن متشردون ولا أعرف أين طريقهم، ثم سحب نفسًا من البايب بهدوء وقال:

– يجب أن تضع ذلك فى رأسك وأنت دخلت ضمن تلك المعاهدة وتلك آخر كلمة أقولها لك.

قلت له:

– وكم عددكم حتى أغادركم؟!

قال:

– أربعة، أربعة وواحد منا مجروح وبالنسبة لهذا الولد لا أعرف أين يكون، فقد حيرنى، وأنا لا أهتم كثيراً، لقد مللنا وتعبنا منه وكان تلك كلماته.

سألته:

– هل هذا كل شىء؟!

أعاد سيلفر قائلاً:

– حسنًا، هذا كل ما يجب أن تسمعه يا بنى.

قلت له:

- والآن يجب أن أختار.

قال سيلفر:

- نعم والآن يجب عليك أن تختار وأن تقرر ذلك.

قلت:

- حسنًا.. أنا لست أحمق وأعرف ماذا أبحث عنه، ودع الأسوأ يأتى كما يشاء، فأنا لا أهتم كثيراً بالموت، لقد رأيت الموت كثيراً منذ أن التحقت بكم، لكن يوجد شىء أو شيئان أود أن أقولهما - وكنت مثاراً قبل هذا الوقت جداً - وأول شىء هو أنك هنا فى موقف سيئ وقد فقدت السفينة وفقدت الكنز وفقدت الرجال وكل أعمالك قد ذهبت وحُطمت وإذا أردت أن تعرف من فعل ذلك فإنه أنا، كنت فى برميل التفاح حين سمعتك يا جون ومعك ديك جونسون وهاندز الذى يسكن الآن قاع البحر، وقلت لهم كل كلمة قلتها بعدها بساعة، وبالنسبة للسفينة فأنا الذى قطعت حبل الكابل الخاص بها، وأنا الذى قتلت الرجال الذين كانوا عليها وأنا الذى أحضرتها من مكانها إلى مكان آخر حيث لن يراها بعد ذلك أى واحد منكم، والأمر معى الآن وأنا الذى فعلت قمة هذا العمل منذ البداية وأنا لا أخاف منك أكثر من خوفى من ذبابة، اقتلنى إذا أردت لو سمحت أو احتفظ بى أو لا تحتفظ بى ولكنى سأقول لك شيئًا واحداً لا أكثر، فالماضى هو الماضى، فحين تمثل أنت فى المحكمة متهمًا بالقرصنة، سأحاول أن أنقذك قدر الإمكان، ولك الآن أن تختار، اقتل واحداً آخر ولا تفعل شيئًا جيداً لنفسك، أو احتفظ واضمن شهادتى لكى أنقذك من حبل المشنقة.

توقفت، فقد كنت مقطوع النفس، ولدهشتى لم يتحرك أى من الرجال، ولكن الجميع ظل ينظر إلى مثل كثير من الخراف، بدأت مرة أخرى أثناء نظرهم إلى قائلاً:

- والآن يا سيد سيلفر أعتقد أنك أفضل رجل هنا وإذا سار الأمر للأسوأ وقُتلت، أرجو أن تبلغ الدكتور بما قلته لك وبما فعلت.

قال سيلفر بلهجة لم أستطع تحديدها هل هو يسخر مني أم أنه متأثر بما قلت وبشجاعتي:

- سأتحمل ذلك وسأحتفظ به في عقلي.

صرخ أحد البحارة أصحاب الوجوه المهاجونية قائلاً:

- لابد أن يأخذ عقابه.

كان مورجان الذى رأيته فى منزل لونج جون على أرصفة برستول، إنه الشخص المعروف عنه بالكلب الأسود، وأضاف الطباخ قائلاً:

- حسنًا، انظر هنا، سأضع شيئًا آخر إلى هذا بالقوة، إنه نفس الولد الذى زيف الخريطة من بيلى بونز، فأولاً وأخيراً فقد انقسمنا حول جيم هوكنز.

ثم قال مورجان بحسم:

- فليذهب إلى الجحيم!

ثم وقف واستل سيفه وكأنه ابن العشرين، صرخ سيلفر قائلاً:

- قف مكانك! من أنت يا توم مورجان، هل تعتقد أنك صرت الكابتن هنا؟! وبالقوة سوف أعلمك أن تكون أفضل، لا تغضبنى وإلا أرسلتك حيث أرسلت من هم أفضل منك خلال الثلاثين سنة الأخيرة، البعض فى المقابر والبعض فى البحر والجميع كان طعاماً للأسماك، لم ينظر لى أى رجل نظرة مسيئة ورأى يومًا جيدًا بعد ذلك، يا توم مورجان، احتمال أن تصير إلى نفس الأمر.

توقف مورجان لكن التذمر الشديد ارتفع من الآخرين وقال أحدهم:

- توم على حق.

وأضاف الآخر:

- اشنق أفضل من السخرية منى وإجبارى على شىء يا جون سيلفر.

وزأر سيلفر قائلاً:

- وهل يريد أحد منكم أيها الرجال أن يعفينى من تلك المسئولية؟!

ثم انحنى بعيداً عن مكانه على البرميل، والبايب ما زال مضاءً في يده اليمنى

- اختاروا الاسم الذى تريدونه فأنتم لستم خرسا، فالذى يود أن يصير قائداً مجرد صبى يوزع كؤوس شراب الروم، فكيف له أن يقود السفينة إلى البر، أنا لم أعش هذه السنوات هباءً، أنتم تعرفون الطريق جيداً، أنتم رجال الكنز، حسنًا، أنا الآن جاهز لأى أحد، خذ سيفك ومن يجرؤ على أن يصارعنى سوف يرى لون بطنه بهذا المكان، وأنتم جميعًا، وقبل أن ينتهى هذا البايب.

لم يثر أى رجل ولم يرد عليه أى أحد، وأضاف قائلاً:

- تلك طريقتك، أليس كذلك؟!

وأعاد البايب مرة أخرى إلى فمه وقال:

- حسنًا، أنت مجرد ولد مستهتر كى تتطلع لذلك وعلى أى حال أنت لا تستحق أن تُقتل، أليس كذلك؟، من المحتمل أن تفهم إنجليزية الملك جورج، أنا الكابتن هنا بواسطة الانتخابات، أنا الكابتن هنا لأننى أفضل بحار موجود هنا، أنت لم تحارب مثل ما يجب أن يفعل رجال الكنز، بالقوة، أنت سوف تطيع وسوف تخضع لذلك، أنا أحب هذا الولد الآن، ولم أر ولداً أفضل من هذا، هو أكثر رجولة من أى زوج فئران هنا فى هذا المنزل وهذا ما أقوله لكم ودعونى أرى من سيضع يده عليه، وهذا آخر ما أقوله لكم ويجب عليكم أن تلتزموا به.

كان هناك توقف طويل بعد هذا الحوار، وقفت ثابتًا أمام الحائط وقلبى ما زال يدق بسرعة وعنف، وبالرغم من ذلك انطلق شعاع من الأمل أشرق فى صدرى، انحنى سيلفر للخلف إلى الحائط والبايب ما زال موجوداً فى طرف فمه، هادئًا كما لو كان فى الكنيسة، ولكن عينيه ما زالتا تتجولان وتراقبان بمكر وتتعقبان زملاءه العنيدين.

ثم سحبوا أنفسهم تدريجيًا إلى الطرق البعيدة للحصن وبدءوا يتشاورون، كان الهسيس المنخفض لهمسهم مسموعا فى أذنى باستمرار مثل جدول مائى، كان واحدا بعد الآخر يحاول أن يرفع بصره عاليًا، كان الضوء الأحمر للمصباح يسقط لثانية على

وجوههم الغاضبة، لكن ذلك لم يكن تجاهى ولكنه كان تجاه سيلفر لدرجة أنهم حولوا أعينهم، وعلق سيلفر وهو يبصق فى الهواء قائلاً لأحد الرجال:

- يبدو أن لديك شيئًا تريد أن تقوله، تكلم وأنا سوف أستمع إلى ذلك.

استدار أحد الرجال قائلاً:

- معذرة يا سيد سيلفر، أنت حر تمامًا فى تنفيذ بعض القواعد وربما تضع عينيك على الباقى، هذا الطاقم غير راض ولن يشعل الآلة التى تستخدم لوصل الحبال البالية، هذا الطاقم لديه بعض الحقوق مثل الأطقم الأخرى، سأجعله حرًا ومن خلال قواعدك أنت، سآخذ الطاقم وسوف نتحدث معًا، معذرة يا سيدى، فنحن نعترف بكونك القائد والربان فى هذا الوقت، ولكنى أعلن حقى وخطواتى من أجل التشاور والاجتماع من الخارج.

وبعد أن أدى تحية البحر المتقنة، خطا هذا الزميل صاحب العيون الصفراء ذو النظرة المريضة ببرود تجاه الباب واختفى عن المنزل، وواحد بعد الآخر كان يفعل مثله، فعلها كل واحد وهو يمر ويضيف بعض الاعتذار، وقال أحدهم:

- وطبقًا للقواعد.

قال مورجان:

- مجلس للتشاور.

وبعد تعليق أو تعليقين أو أكثر خرج الجميع وغادروا، سيلفر وأنا وحيدان مع المصباح، فأبعد طباخ السفينة البايب بثبات وقال بهمس غير مسموع للآخرين:

- والآن ستبقى هنا يا جيم هوكنز، أنت الآن فى منتصف الموت والشىء الأسوأ هو العذاب، إنهم يرتبون لكى يلقونى من هنا بعيدًا ولكنك لاحظت وتأكدت أننى سوف أقف بجوارك فى الشدة والرخاء ولم أفعل ذلك بعد أن عبرت عن رأيك، ولكننى كنت على وشك أن أفقد هذا اللفظ الخشن وليس لأننا عقدنا صفقة، ولكنى أراك دائمًا صاحب أسلوب صحيح، وقلت لنفسى ستقف مع جيم هوكنز يا جون وهوكنز سوف يقف معك، فأنت كارته الأخير وهو سيكون معك وقلت مرات ومرات إنك سوف تنقذ شاهدك وهو سوف ينقذ رقبتك.

بدأت أفهم بهدوء وسألته:

- هل تقصد أن كل شيء ضاع؟!

أجاب قائلاً:

- سوف أفعل بإصرار، فالسفينة قد ضاعت، والرقبة قد تزهق، هذا يساوى ذاك، وحين نظرت للخليج يا جيم فلم أر السفينة، حسنًا، كنت فظًا ولكنى أصبت بالإجهاد، ولأجل ذلك هم كثير ويتشاورون الآن كي يحددوا مصيرى، هم أغبياء جدًا وجبناء، سوف أنقذ حياتك على قدر استطاعتى منهم ولكن انظر يا جيم واحدة بواحدة وسوف تنقذ لونج جون من المشنقة.

كنت مرتبكًا جدًا، وكان يبدو الأمر بلا أمل وكان يسأل بصفة مستمرة رغم أنه القرصان العجوز والقائد فى كل مكان، قلت:

- ما أستطيع أن أفعله، سوف أفعله.

صرخ سيلفر:

- إنها صفقة، وأنت عبرت عن رأيك بشجاعة وقوة ولديك فرصة جيدة.

عرج سيلفر حتى وصل إلى المصباح حيث يوجد بين خشب النار وأخذ قطعة جديدة من النار يشعل البايب، قال سيلفر:

- افهمنى يا جيم، فأنا لدى رأس فوق كتفى، فأنا الآن فى مكان العمدة تريلونى، أنا أعرف أنك تضع السفينة فى مكان آمن، كيف فعلت ذلك، أنا لا أعرف ولكنها فى أمان، كنت أتوقع وأخمن أن هاندز وأوبراين صارا طيبين وإن كنت لا أعتقد فى أى منهما، والآن أنت حددت لى، لن أسأل أى أسئلة، ولن يسأل الآخرون أيضًا، أنا أعرف متى تبدأ المباراة، سأفعل، أنا أعلم أن الشباب مخلص جدًا، نعم وأنت شاب، وأنت وأنا ربما نشكل قوة واحدة جيدة معًا.

وسحب سيلفر بعض الكونياك من البرميل فى كنكة قصدير وقال:

- هل تتذوق يا زميلى؟

وحين رفضت قال لى:

- حسنًا، سآخذ جرعة لنفسى يا جيم، فأنا فى حاجة إلى الحديث عن مشكلة لماذا أعطانى الدكتور الخريطة يا جيم؟!

عبر وجهى عن دهشة غير متأثرة جدًا لدرجة أنه تأكد أنه لا إجابة لأسئلة أخرى، فلا توجد لدى إجابات، فقال:

- نعم، حسنًا، هو فعل، أعتقد أنه يوجد شىء وراء ذلك، لا شك، يوجد شىء ما وراء ذلك يا جيم، شىء سيئ أو حسن.

وأخذ شفطة أخرى من البراندى وهز رأسه مثل رجل يتطلع إلى الأسوأ.

٢٩- البقعة السوداء مرة أخرى

استمر مجلس القراصنة لبعض الوقت، حين عاد أحدهم إلى المنزل مرة أخرى، كرر نفس التحية السابقة التى كنت أراها بنوع من السخرية، طلب منا إعارتهم مصباحًا، وافق سيلفر بسرعة واختفى هذا الرسول مرة أخرى وتركنا معًا فى الظلام، قال سيلفر الذى صار قبل هذا الوقت أكثر ودًا بنغمة صوت متآلفة وصديقة:

- أشعر بوجود نسيم قادم يا جيم.

تحولت إلى الكوة (الفتحة) القريبة منى ونظرت منها خارجًا، كانت جمرات النار العظيمة قد حرقت نفسها تمامًا وبدأ وهجها يخبو، حتى فسرت لماذا جاء القراصنة يطلبون مصباحًا، وعند منتصف طريق المنحدر إلى الحصن اجتمع القراصنة فى مجموعة، كان يحمل أحدهم مصباحًا وآخر كان يركع على ركبتيه فى المنتصف ورأيت نصلاً لسكين مفتوح يبرق فى يده بألوان مختلفة فى ضوء القمر وفى ضوء المصباح.

كان الباقى من القراصنة منحنيًا كمن ينقض على فريسة كما لو كان يشاهد مناورات هذا الأخير، استطعت أن أراه بصعوبة وهو يمسك فى يده كتابًا كما يحمل سكينًا تمامًا، وما زال يتساءل كيف يكون أى شىء غير لائق يأتى للكيتهم حين بدأ الراكع على ركبتيه يرتفع أكثر على قدميه، وبدأت كل المجموعة تتحرك معًا فى اتجاه المنزل.

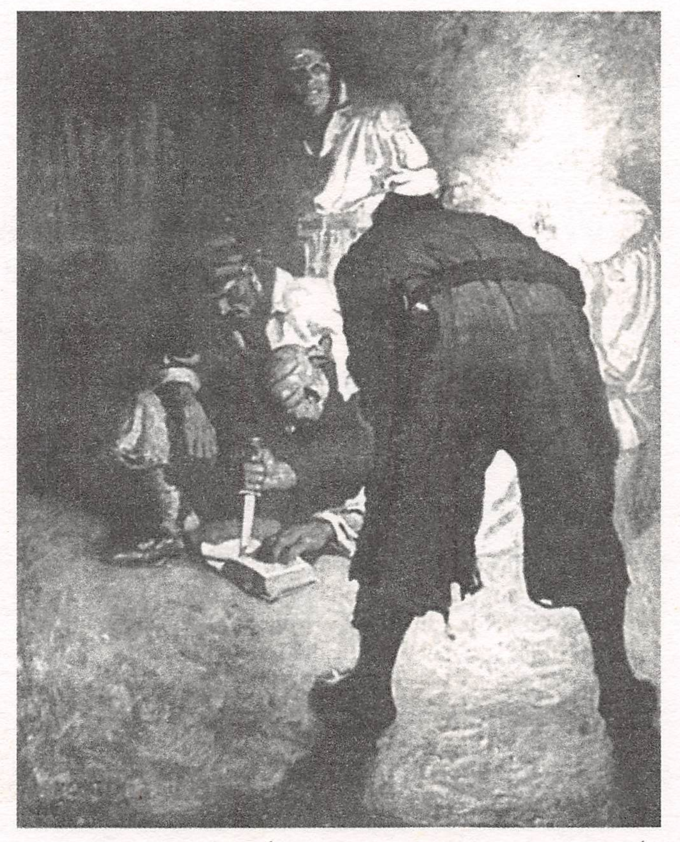
قلت حين عُدت مرة ثانية إلى موقعى السابق:

- ها هم قد جاءوا.

كان ذلك يقلل من وقارى خاصة حين يكشفون أننى أراقبهم، قال سيلفر بسعادة:

- حسنًا، دعهم يأتوا، ما زال فى الجراب الكثير.

فتح الباب، وظل خمسة من الرجال يقفون يتشاورن معًا فى الداخل، دفعوا واحدًا منهم للأمام، فى أى موقف أو ظرف سيكون ذلك أمرًا هزليًا ومضحكًا أن ترى تقدمه البطىء.



تقريبًا عند منتصف الطريق المنحدر للحصن جُمعوا فى مجموعة واحدة.

وتردده وكأنه يُجلس كل قدم على حدة، لكنه كان يحمل يده اليمنى المعلقة أمامه، قال سيلفر:

– تقدم يا فتى، لن آكلك، أسرع أيها الأخرق، فأنا أعرف القواعد وسأفعلها ولن أؤذى شخصا مفوضا منكم.

ما قاله سيلفر شجع القرصان أن يتقدم للأمام أكثر بشجاعة، ومرر شيئًا لسيلفر وسلمه له، وعاد مرة أخرى بذكاء إلى أصدقائه مرة ثانية، نظر طباخ البحر لما أُعطى، لاحظ قائلاً:

- البقعة السوداء، اعتقدت ذلك أيضًا، من أين حصلت على تلك الورقة، لماذا هذا؟ انظر هنا الآن، هذا شيء سيئ الطالع، لقد ذهبت وقطعت هذه الورقة من الكتاب المقدس، يا له من شيء غبى أن تقطع شيئًا من الكتاب المقدس.

قال مورجان:

- آه.. هناك، هناك، قلت ذلك، لا شيء جيد سوف يأتى نتيجة ذلك، لقد قلت ذلك.

استمر سيلفر قائلاً:

- وسوف تجدون ذلك بينكم الآن، أعتقد أنكم سوف تعاقبون جميعًا، ياله من عمل أخرق بالكتاب المقدس!

قال أحدهم:

- إنه ديك.

قال سيلفر:

- إذن هو ديك، على ديك أن يذهب للصلاة ويستغفر الرب، وسوف يرى جزاء عمله وعليك أن تذعن لذلك.

لكن الرجل الطويل صاحب العيون الصفراء قاطعه قائلاً:

- ثبت هذا الحديث يا جون سيلفر، هذا الطاقم زودك بمعلومة البقعة السوداء فى مجلس كامل، فى حدود الصواب ولكنك حالاً تقلب ذلك، يجب أن ترى ما كُتب هناك ثم تكلم بعد ذلك.

أجاب سيلفر طباخ البحر:

- كل الشكر يا جورج، أنت دائمًا رجل رشيق ومتحمس للعمل وتحفظ القواعد عن ظهر قلب، جورج أنا سعيد أن أراك على أى حال، حسنًا، أنت تريد أن تخلعنى أليس كذلك، هذا شيء واضح ومكتوب تمامًا مثل الطباعة، أقسم أن ذلك ما تريده يا جورج ويفعل يدك، سيعود هذا الطاقم الموجود هنا وستكون الكابتن بعد ذلك ولن أتساءل، لكن أنت ملزم أن تطعينى الآن مرة أخرى، أليس كذلك؟! هذا البايب لا يسحب الدخان.

قال جورج:

– تعال الآن، لن تخدع هذا الطاقم مرة أخرى، أنت رجل هزلى وأنت تهذى الآن أكثر من أى وقت سابق، يجب أن تأتى إلى هذا البرميل وتقف بجوارى وتأخذ الأصوات لمن سيكون الكابتن.

قال سيلفر مرة أخرى باختصار:

– أعتقد أنك قلت إنك تعرف القواعد، على أى حال إذا لم تفعل سأفعل أنا، سأنتظر هنا وأنا ما زلت ربان السفينة وقائدك، تذكر ذلك، حتى تقول مطالبك وأجيب عليها، فى أثناء ذلك بقعتك السوداء لن تستحق بسكوتة وسوف نرى ذلك.

أجاب جورج قائلاً:

– آه.. أنت لست قيد الاعتقال بأى حال من الأحوال، فكلنا هنا سواء، ولكنك أولاً: قد أربكت هذه الرحلة وخلطت الأمور وستكون رجلاً وقحاً إذا قلت لا لهذا الأمر وأنكرته، وثانيًا: ساعدت العدو أن يخرج من الفخ الذى أعد له دون أى خسائر، لماذا تركوا لنا هذا المكان وخرجوا أنا لا أعرف، أكيد يوجد فى الأمر شىء لم نعرفه وهذا واضح جداً، ثالثًا: لم ترد أن نخرج وراءهم لكى نتابعهم، رأينا أنك تريد أن تجمع الغنائم وهذا شىء خطأ ارتكبته، ورابعًا: هذا الولد الذى يوجد هنا على السفينة.

سأل سيلفر بهدوء:

– هل هذا كل ما تود أن تقول؟!

قال جورج:

– هذا يكفى وسوف نعلق جميعًا بسبب تلك الخرقات التى فعلتها.

أجاب سيلفر قائلاً:

– والآن، انظر هنا، سوف أجيب على النقاط الأربعة واحدة بعد الأخرى، تقولون إنى لخبطت الرحلة وأربكتها، أليس كذلك؟ وأقول لكم إنكم جميعًا تعرفون ماذا كنت أريد ولو أن ذلك حدث على ظهر السفينة هيسبنيولا فى تلك الليلة، لكان كل واحد الآن

على قيد الحياة، مرتاحًا جدًا وبصحة جيدة ولا يعمل شيئًا، الكنز ملك يديه بالقوة، حسنًا من أغضبنى ومن قيد يدى؟ كما كان يفعل القائد الشرعى للسفينة، الذى منحنى العلامة السوداء فى اليوم الذى هبطنا فيه وبدأنا هذا الرقص، نعم كان رقصًا جيدًا وكنت معكم هناك أبدو مثل الزمار الذى يعزف فى اغتيال دوك قبل مدينة لندن، قد فعل ذلك، لكن لماذا؟ كان أندرسون وهاندز وأنت يا جورج وكنت الأخير على سطح المركبة ضمن هذا الطاقم المتطفل المتدخل وكنت تمتلك وقاحة دافى جونز ووقفت مع الكابتن ضدى أنت فعلت ذلك، وهذا أغرق كثيرًا منا، وكانت تلك الحكاية الأسوأ من أى شىء.

توقف سيلفر لبعض الوقت وقرأت تعبيرات وجه جورج وأصدقاءه أن هذا الكلام الذى قاله سيلفر لم يذهب أدراج الرياح ولم يكن عبثًا وبلا جدوى، صرخ سيلفر المتهم الذى كان يمسح العرق من على جبينه ويتحدث بعنف يغمر أركان البيت قائلاً:

– هذا فيما يخص الرد على رقم واحد، لقد أعطيتكم كلمة شرف، أشعر بالتعب بالحديث معكم، فأنتم بلا إحساس أو ذاكرة وسأتركم لخيالكم لتقولوا أين أمهاتكم كانت لكى تترككم تأتون إلى البحر، يا رجال الكنز، أعتقد أنكم تعملون مجرد ترزية ولم تكونوا بحارة قط.

قال مورجان قائلاً:

– تكلم بصراحة يا جون، واصل حديثك مع الآخرين.

استأنف جون حديثه قائلاً:

– نعم.. الآخرون، هم طيبون كثيرًا، أليس كذلك، لقد قلت إن الرحلة قد فسدت، آه، لو استطعت أن تفهم كم كانت سيئة، سوف ترى، لقد كانت رقبتنا قريبة من المشنقة، ويحوطنا التفكير فى ذلك، فلو فكرتم فى ذلك، ربما عرفتم أننا سنكون معلقين فى السلاسل والطيور حولنا والبحارة سوف يصوبون علينا بينما هم ينزلقون إلى المد، سيقول أحدكم من هذا؟ إنه جون سيلفر وسيقول الآخر أنا أعرفه جيدًا، تستطيع أن تسمع صرير السلاسل حين تتجول وتصل إلى العوامة الأخرى، الآن ولأننا هنا على قيد الحياة، يجب أن تشكر أم كل واحد منكم سيلفر، هاندز وأندرسون وبقية أغبياء الدمار منكم ولو أردتم أن تعرفوا الرد على رقم أربعة وما يتعلق بهذا الولد، لماذا، إنه

شيء يقشعر له أضلاعي، أليس هذا الولد رهينة؟! هل نحن في طريقنا لنفقد رهينة؟ لا.. ليس نحن الذين نفعل ذلك، إنها فرصتنا الأخيرة، وأنا لا أتعجب أو أتساءل، أتقتلون هذا الولد يا زملاء؟! أنا لن أفعلها أبداً، وبالنسبة لرقم ثلاثة لم تحسبوا أنكم تمتلكون طبيباً حقيقياً يأتي كل يوم لكي يعالجكم ويتابعكم، يتابع جون برأسه المكسور ويتابعك يا جورج ميري حين كنت تعاني من مرض الملاريا من ساعات مضت وكانت عيناك مثل لون قشر الليمون إلى هذه الساعة، وربما لا تعرفون أن سفينة مرافقة قد تأتي أيضاً، ولن يمر وقت طويل على حدوث ذلك، وسوف ترون كم سيكون جيداً أن تمتلك رهينة عندما تأتي تلك السفينة لتأخذهم، وبالنسبة لرقم اثنين ولماذا عقدت معهم تلك الصفقة، حسناً، سوف تأتون تزحفون راكعين على ركبكم إليّ لكي أعقد ذلك معهم، سوف تأتون راكعين على ركبكم وأنتم مكسورو القلب وسوف تموتون من الجوع أيضاً إذا لم أعقد تلك الصفقة، لكن ذلك أمر تافه، حين تنظرون لبعيد سوف تعرفون لماذا عقدت تلك الصفقة.

ثم نثر سيلفر على الأرض ورقة قد لاحظتها، لم يكن على الورقة الصفراء شيء سوى الخريطة التي بها ثلاثة صلبان حمراء، الخريطة التي وجدتها في المشمع في قاع صندوق الكابتن، لماذا أعطى الدكتور الخريطة له، فإن التفكير في هذا الأمر خيالي، فلم أكن أتخيل ذلك، لكن هذا الأمر كان بلا تفسير بالنسبة لي، ظهور الخريطة كان أمراً غير مصدق لهؤلاء المتمردين الأحياء، لقد قفزوا عليها مثل القطط على فأر، لقد تقاذفت من يد لأخرى، وأخذها واحد من الآخر وكادت أن تمزق من كثرة ما تلقفتها الأيدي، انتقلت وسط الصراخات والأيمان والضحك الطفولي الهيستيري وهم يفحصونها جيداً لم يتخيلوا فقط أنهم قد حصلوا على الكنز، ولكنهم قد أخذوه وفي طريقهم للعودة للوطن من البحر وفي أمان دون مخاطر، قال أحدهم:

– نعم، إنه كنز فلنت، أنا متأكد من جي إف JF وسجل ووقع تحتها بعقدة القرنفل التي قد صنعها.

قال جورج:

– رائع، لكن كيف نهرب بهذا الكنز دون أن تتعقبنا أي سفينة؟!

فجأة، قفز سيلفر من مكانه وأسند نفسه بيده على الجائط وصرخ قائلاً:

- أنا أحذرك الآن يا جورج، كلمة واحدة أخرى وسوف أقاتلك، كيف؟! لماذا وكيف أعرف؟ أنت يجب أن تقول لى، أنت والباقون الذين أضاعوا سفينتى بتدخلهم، فلتُحرقوا، ولكنك أنت لن تستطيع، لن تستطيع أن تحصل على دعوة صرصور ولكنك تتكلم جيداً فقط، ولا تعرف كل الكلام، وربما لا تفهم غير ذلك.

قال مورجان العجوز:

- كل شىء واضح الآن.

قال طباخ البحر سيلفر:

- واضح، أعتقد ذلك، أنتم أضعتم السفينة وأنا وجدت الكنز، أيهما أفضل من الآخر؟ وأنا الآن مستقيل من الزعامة، اختاروا أحدكم لكى يكون الكابتن الآن، لقد فعلت كل ما فى وسعى.

صرخوا جميعًا:

- سيلفر، سليفر، الشواء دائمًا، الشواء للكابتن.

صرخ الطباخ قائلاً:

- إذن تلك رغبتكم، أليس كذلك؟ جورج أعتقد أنه يجب أن تنتظر مرة أخرى يا صديقى وسوف تنال حظك يومًا ما، فأنا لست شخصًا حقوداً وتلك ليست طريقتى، والآن يا زملائى تلك هى العلامة السوداء، هى ليست جيدة الآن، أليس كذلك؟ فقد تجاوز ديك حظه وأفسد الإنجيل وهذا كل شىء.

تذمر ديك قائلاً:

- سوف أظل أُقبل الكتاب دائمًا، أليس كذلك؟ فمن يريد أن يحضر لنفسه اللعنة.

استأنف سيلفر كلامه قائلاً:

- الإنجيل تمزق منه قطعة، إنه الإنجيل وليس كتاب الأغانى الشعبية الذى لا أركن إليه كثيراً.

صرخ ديك قائلاً:

– أعتقد كذلك، حسنًا وأعتقد أنه يستحق أن نمتلكه أيضًا.

قال سيلفر وقذف إلىّ الورقة قائلاً:

– خذ يا جيم، هذا ما يثير فضولك.

كانت دائرية تقريبًا مثل حجم تاج الملك، نظرت إليها فكان الوجه الأول منها فارغًا، حيث كانت الصفحة الأخيرة وكانت تحتوى على آية أو اثنتين من سفر الرؤيا، هذه الكلمات بين الباقى هى التى تحضر بحدة الوطن إلى ذهنى "بدون الوطن تكون الكلاب والقتلة" وكان الجزء المطبوع مسودًا بهباب الخشب الذى بدأ فعلاً ينفصل ويلوث أصابعى بالتراب، وعلى الجزء الفارغ كتب بنفس المادة كلمة واحدة "مخلوع " كان لدى هذا الفضول يصاحبنى فى تلك اللحظة ولا اقتفاء لأثر الكتابة يظل الآن خلف أى خربشة فردية مثلما يمكن للإنسان أن يفعله بأظفر إبهامه.

كان ذلك نهاية تلك الليلة، ودارت بعد ذلك كؤوس الشراب وبدأنا نتمدد كى نرقد، لكن ثأر سيلفر جعله يضع جورج مارى فى الخدمة للحراسة وهدده بالموت إذا أثبت أنه شخص غير مخلص.

مر وقت طويل حتى استطعت أن أغمض عينىّ، ويعلم الرب أننى كنت أفكر فى الرجل الذى ذبحته فى تلك الظهيرة وأرى سيلفر مشغولاً الآن، وأننى فى موقف محفوف بالمخاطر، وأننى وسط لعبة صعبة وسط هؤلاء القراصنة المتحدين معًا كيد واحدة ويطمعون فى الآخر بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة وسيلفر الذى يريد أن يجد السلامة لنفسه وينقذ حياته البائسة، سيلفر نفسه الآن ينام ملء جفونه فى سلام ويشخر بصوت عال، بالرغم من أنه شخص سيئ، فإن قلبى يأسى له، حين أفكر فى المخاطر المطلقة التى تحيط به والمشنقة المخزية التى تنتظره.

٣٠- وعد شرف

استيقظت، حقًا كنا جميعًا متيقظين، رأيت الحارس يهز نفسه حين سقط أمام الباب، سمعت بوضوح صوتًا ينادى علينا قادمًا من حافة الغابة، صرخ الصوت:

- ها.. يا ساكنى الحصن، أنا الدكتور ليفزى.

وكان بالطبع الدكتور ليفزى، وبالرغم من أننى كنت سعيدًا أن أسمع الصوت، وبالرغم من أن سعادتى لم يكن بها أى اختلاط، فإننى تذكرت بارتباك تمردى واختفائى وعدم الاتصال وعندما رأيت ما آل إليه وجودى فى مكان بين هؤلاء الأشرار ومحاطًا بالأخطار، شعرت ساعتها بالخجل أن أنظر إلى عينيه.

سوف يثور يومًا ما فى الظلام من أجل النهار الذى سوف يأتى بصعوبة، وحين أجرى إلى الكوة وأطل منها خارجًا سأراه واقفًا مثل سيلفر كما كان واقفًا من قبل، على منتصف قدمه أثناء الضباب الزاحف علينا، صرخ سيلفر:

- أهلاً دكتور، أحلى صباح عليك يا سيدى.

بدأ الجميع يستيقظ، أشرق سيلفر بطبيعة جيدة فى لحظة وأضاف قائلاً:

- دائمًا ما تأتى مبكرًا ومشرقًا كى تكون متأكدًا مثل الطيور التى تخرج مبكرًا - كما يقال - كى تحصل على رزقها، استيقظ يا جورج، هيا يا بنى كى تساعد دكتور ليفزى فكل ما صنعته جيدًا ومرضاك صاروا جميعًا فى أحسن حال وبصحة جيدة.

لذا ربت عليه ووقف على القمة بعكازه الذى تحت كوعه وكانت إحدى يديه على جانب الحصن، وكان فعلاً جون العجوز فى صوته وسلوكه وتعبيراته... أضاف سيلفر قائلاً:

– لدينا مفاجأة لك أيضًا يا سيدى، معنا هنا شخص غريب صغير، إنه، إنه يسكن معنا هنا، يبدو بصحة جيدة وأنيقًا تمامًا مثل الكمان ويتحرك مثل مسئول عن شحن السفينة، هو يفعل ذلك بجانب جون، رجل بجوار الآخر ونظل معًا طوال الليل.

كان الدكتور ليفزى قد عبر الحصن قبل هذا الوقت وصار قريبًا من الطباخ، استطعت أن أسمع التغيير فى صوته حين قال:

– أليس هذا جيم؟!

قال سيلفر:

– إنه جيم بشحمه ولحمه.

توقف الدكتور ليفزى فوراً، وبرغم أنه لم يتكلم ومرت بعض الثوانى قبل أن يكون قادراً أن يواصل التحرك قال أخيراً:

– حسنًا.. حسنًا، الواجب أولاً ثم السعادة بعد ذلك وكما قلت بنفسك يا سيلفر، دعنا نعالج مرضاك أولاً.

مرت لحظة بعد ذلك ودخل إلى الحصن وبابتسامة أومأ لى أن أتقدم للعمل معه بين المرضى، يبدو أن الدكتور لم يكن رهن الاعتقال بالرغم من أنه يعرف أن حياته وسط هؤلاء الشياطين الغدارين الخائنين متوقفة على شعرة، وبالرغم من ذلك يبدو أنه يعاود مرضاه وكأنه يقوم بزيارة تخصصية معتادة لعائلة إنجليزية هادئة.

ما زال سلوكه – كما أعتقد – ما زال كرد فعل لسلوك هؤلاء الرجـــال تجاهه وكأن شيئًا لم يحدث قط منهم كأنه ما زال طبيب السفينة وما زالوا العمال المخلصين فى السفينة بجوار الشراع، ثم قال الدكتور لزميله الذى يربط رأسه:

– أنت الآن فى أحسن حال يا صديقى، ولقد نجوت بأعجوبة، رأسك صار قويا وصلبا مثل الحديد، حسنًا لماذا كبدك متغير رأسًا على عقب، هل أخذت هذا الدواء؟ هل أخذ الدواء يا رجال؟

رد مورجان:

– آه يا سيدى، لقد أخذه بالتأكيد.

قال الدكتور ليفزى بطريقة ساخرة:

- لأنه كما ترون إننى أقوم بذلك كوعد شــرف مـنــذ أن صرت طـبيب المتمردين و الطبيب المسجون كما أحب أن تدعــونى وأفعــل ذلك كى لا أضيع على الملك جورج أو المشانق أى رجل منكم.

نظر الأشرار الأوغـاد لبعضهم البعــض لكنهم ابتلعــوا غيظهــم فى صمــت، قال أحدهم:

- لا يشعر ديك أنه تحسن يا سيدى.

رد الدكتور:

- هل هذا صحيح يا ديك؟ حسنًا، تعال هنا يا ديك، دعنى أرى لسانك.

كنت مندهشًا جدًا حين فعل الرجل، كان لسانه قد أصابه نوبة مرض تخيف الفرنسيين، أصابته الحمى، قال مورجان:

- هذا حدث بسبب إفساد الإنجيل.

قال الدكتور:

- هذا حدث لأنكم جميعًا جحوش وليس لديكم أى إحساس كى تفرقوا بين الهواء النقى من السم والأرض الجافة من الأرض القذرة، إنها أرض موحلة مملوءة بالآفات، أعتقد أن ذلك هو الاحتمال الأكبر، وهذا هو مجرد رأى وأعتقد أنكم سوف تعانون كثيرًا قبل أن تدفعوا هذه الملاريا بعيدًا عن نظام حياتكم، فأنتم تعسكرون فى مستنقع أليس كذلك يا سيلفر؟ أنا مندهش منك، فأنت أكثر هؤلاء ذكاء وأقلهم غباء، يجب أن تتجولوا حول الحصن وتتعرضوا للشمس، ولكن لا يظهر لى أنكم قد اتخذتم أى إجراءات أولية حتى لاتباع قواعد الصحة العامة.

أضاف الدكتور ليفزى قائلاً:

- حسنًا.

وذلك بعد أن عالجهم جميعًا وأخذوا روشتته بتواضع حقيقى مضحك ربما مثل أطفال مدرسة الإحسان أكثر من كونهم متمردين مذنبين وملوثة أيدهم بالدماء وأضاف الدكتور قائلاً:

- حسنًا، لقد قمنا بعمل اليوم، والآن أتمنى أن أرى وأتحدث مع هذا الولد جيم لو سمحتم.

وأومأ رأسه فى اتجاهى بإهمال، كان جورج مارى واقفًا عند الباب يتجرع أحد الأدوية المرة والسيئة ومع بداية عرض الدكتور تأرجح واهتز بفورة هياج عميقة وصرخ مقسمًا:

- لا.

فضرب سيلفر البرميل المفتوح بيده معترضًا وزأر قائلاً:

- سكوت.

ونظر إليه مثل أسد ثائر واستمر قائلاً بنغمة صوته غير المعتادة:

- لقد فكرت فى ذلك، وأعلم أن لك ميلاً وهوى لهذا الولد، نحن جميعًا مقدرين وشاكرين عطفك كما ترى ونبتلع عقاقيرك مثل الشراب المسكر، ضع ذلك بداخلك ، كنت سأخذ جيم مثلك إذا وجدته بنفس الطريقة، هوكنز.. هل تعطينى كلمة شرف مثل شاب صغير شريف، فأنت شاب شريف رغم أنك ولدت فقيرًا، كلمة شرف أنك لا تهرب.

أعطيت سيلفر فعلاً الضمان الذى يطلبه، فقال سيلفر:

- حسنا يا دكتور، حين تخرج من هذا الحصن وتكون هناك سأحضر لك الولد كى تتحدث معه فى أحد الأركان، يوم سعيد عليك يا سيدى، كل تحياتنا للعمدة تريلونى والكابتن سيموليت.

كان انفجار الاعتراض الذى حدث لا شىء على الإطلاق واستطاعت نظرات سيلفر السوداء أن تكبح جماحهم وتجعل الدكتور ليفزى يغادر المنزل فى الحال، كان سيلفر يلعب على الجهتين ويحاول أن يصنع سلامًا منعزلاً لنفسه وأن يضحى باهتمامات شركائه فى الجرائم وضحاياه، وبكلمة واحدة يسير الشىء الذى يريده كما لو كان يفعله هو نفسه.

لقد بدا بالنسبة لى أكثر وضوحًا فى هذه الحالة، ما لم أستطع أن أتخيله كيف يقدر أن يغير غضبهم ويسيطر عليهم، ولم لا؟! وأراه أضعف الرجال المتبقين ولم لا وقد أعطاه انتصاره فى الليلة السابقة تفوقًا كبيرًا عليهم جميعًا فى عقولهم.

كان يدعوهم جميعًا بالأغبياء والبلهاء لو تخيلت ذلك، لقد قال إنه من الضرورى أن أتحدث مع الدكتور ونشر الخريطة فى وجوههم وقال لهم لو أنهم يقدرون على كسر الهدنة فى نفس اليوم سيكونون مقيدين إذا أرادوا اصطياد الكنز، صرخ قائلاً:

– بالطبع لا، سوف نخرق هذه المعاهدة حين يحين الوقت المناسب، وحتى يأتى الوقت سوف أتظاهر وأخدع الدكتور حتى لو ملأت حذائه بالبراندى الذى سنشربه.

ثم أمرهم أن يشعلوا النار واستند على عكازه وإحدى يديه كانت على كتفى وبدأنا نغادرهم فى فوضى وصمت بواسطة هزاره وحسمه أكثر من اقتناعهم، وقال لى:

– أبطئ يا فتى، أبطئ؛ ربما يحيطون بنا فى لمح البصر لو رأوا أننا نسرع.

بشكل هادئ تقدمنا عبر الرمل حيث يقف الدكتور ليفزى منتظرًا لنا على الجانب الآخر من الحصن، وبمجرد أن أصبحنا قريبين من بعضنا للتحدث توقف سيلفر وقال:

– ستكتب ملحوظاتك هنا أيضًا يا دكتور، وسوف يخبرك الولد جيم كيف أنقذت حياته وخلعته منهم أيضًا واحتمال أن تصدق ذلك يا دكتور!! حين يقود السفينة فى وسط تلك الرياح رجل مثلى يجب ألا تفكر كثيرًا فى إعطائه كلمة شرف، يجب أن تضع فى ذهنك الآن أنها ليست حياتى وحدى الآن، هى حياة الصبى أيضًا الذى دخل أيضًا المقايضة والمساومة، وسوف تتحدث عنى بشكل عادل يا دكتور وستعطينى الأمل أن أواصل من أجل الرحمة.

كان سيلفر رجلاً متغيرًا حين كان خارج الحصن هناك وأعطى ظهره لأصدقائه وللحصن، فقد كان خجلاً جدًا وصوته مرتعشا وبلا أى روح على الإطلاق، سأله الدكتور ليفزى:

– لماذا لا تكون خائفًا يا جون؟

قال سيلفر بعد أن عض على أصابعه:

- أنا لست جبانًا ولست جبانا أبدًا يا دكتور ولو كنت كذلك لما قلت ذلك، ولكنى سأعترف بصدق، أنا أشعر باهتزازات تسيطر علىّ بسبب المشانق، أنت رجل جيد وإنسان حقيقى، فأنا لم أر رجلاً جيداً وأنت لن تنسى ما فعلته جيداً، ولا تنسى إلا الشيء السيئ؛ أنا أعرف ذلك، سأذهب بعيداً عنكم هنا، وسأتركك مع جيم بمفردك، وسوف تحمد لى ذلك ولهذه المرونة أيضاً، أليس كذلك؟!

ولما بدأنا الحديث، أخذ عدة خطوات للوراء حتى خرج من مدى السمع وجلس هناك على عقب شجرة وبدأ يصفر ويدور من وقت لآخر حول مقعده لكى يرى المشهد تماماً، يرانى ويرى الدكتور ويرى بعض وحوشه الجامحين من المتمردين حين يذهبون جيئة وذهابًا على الرمال بين النار والتى كانوا مشغولين بإعادة إحيائها مرة ثانية والمنزل الذى يحضرون منه لحم الخنزير والخبز لكى يعدوا طعام الإفطار، قال الدكتور ليفزى بحزن:

- ها أنت هنا، حيث تتناول الخمر وتشرب يا ولدى، الرب يعرف أننى لا أجد فى قلبى أى لوم لك، لكن الذى سأقوله قد يكون عطوفًا أو قاسيًا، فعندما كان الكابتن سموليت جيداً لم تجرؤ أن تغادرنا وحين مرض ولم يستطع أن يساعدنا كان موقفًا جبانًا بما تحمل الكلمة من معنى، شعرت أننى أود أن أبكى وقلت له:

- دكتور، ربما تصفح عنى ولكنى ما زلت ألوم نفسى كثيراً، سأفقد حياتى على أى حال، وقد أفقد حياتى الآن لو أن سيلفر لم يقف بجوارى، صدق ذلك يا دكتور، من الممكن أن أموت وأنا أستحق ذلك ولكنى أخشى التعذيب بشكل كبير، آه لو أرادوا أن يعذبوننى.

قاطعه الدكتور قائلاً بصوت متغير:

- جيم، أنا لا أقصد ذلك، انس ما قلته لك، سوف نهرب معًا.

قلت للدكتور:

- لكنى أعطيت كلمة.

صرخ قائلاً:

- أعرف، أعرف، لن نقاوم ذلك يا جيم الآن سوف آخذ ذلك على عاتقى، فاللوم والعار معًا يا ولدى، لكن ابق هنا، لن أستطيع أن أتركك، أقفز، قفزة واحدة وستكون فى الخارج، سوف ننجو بحياتنا مثل الظباء.

أجبت قائلاً:

- أنت تعرف جيداً أنك لن تفعل هذا الشيء لنفسك، لا أنت ولا العمدة تريلونى ولا الكابتن، وكذلك أنا، لن نستطيع أن نفعل ذلك، فسيلفر يثق فىَّ وأنا أعطيته كلمة شرف وسوف أعود إليه، لكنك لم تدعنى أنهى كلامى يا دكتور، فلو أقدموا على تعذيبى، احتمال ألا ألتزم بكلمتى وسوف أذهب إلى السفينة معتمداً على الحظ وعلى المغامرة التى ترقد فى خليج الشمال على الشاطئ الجنوبى وقبل الماء العميق، فعند منتصف المد، يجب أن تكون طافية وجافة.

قال الدكتور مندهشًا:

- السفينة.

وصفت له بسرعة مغامراتى واستمع لى فى حالة الصمت والهدوء، قال الدكتور:

- يوجد شيء قدرى فيما تقول يا جيم، مع كل خطوة كنت تنقذ حياتنا وهل تعتقد أننا مع أى ظرف سوف نتركك تفقد حياتك؟ هذا رد جميل بسيط يا بنى، لقد اكتشفت المؤامرة واكتشفت بن جن وهذا أحسن عمل فعلته أو سوف تفعله، ولو عشت إلى الثمانين، آه، بكل آلهة اليونانيين حدثنى عن بن جن، لماذا يحدث الأذى والخسارة للإنسان.

وصرخ :

- سيلفر، سيلفر!! سوف أنصحك.

واستمر حين كان الطباخ يتقدم ويقترب مرة أخرى قائلاً:

- لا تكن فى عجلة من أمرك حين تجد الكنز.

قال سيلفر:

- لماذا يا سيدى، أنا أحاول أن أبذل قصارى جهدى، أرجوك أن تنقذ حياتى وحياة الولد بالبحث عن الكنز، أرجو أن تقتنع بذلك وتقف معه.

أجاب الدكتور ليفزى قائلاً:

- لو كان الأمر كذلك، سأخذ خطوة معك للأمام، انتظر حين تهب ريح شديدة مصحوبة بمطر أو ثلج.

قال سيلفر:

- سيدى، ما بينى وبينك هو ما بين رجل ورجل وهو كثير جداً، ماذا عنكم بعد أن تركتم الحصن ولماذا تركتم الحصن أصلاً، ولماذا أعطيتنى خريطة الكنز، أنا لا أعرف السبب، أليس كذلك؟ أنا أدعوك كى تقول لى السبب، فليس لدى كلمة أمل ولكن لا، فهذا كثير، فإذا لم تكن تريد أن تخبرنى عما تقصد بوضوح، قل ذلك وأنا سوف أغادر الدفة.

قال الدكتور ليفزى بتأمل:

- لا، ليس لدى الحق أن أقول المزيد فهذا ليس سرياً، كما ترى يا سيلفر فلو كان سرياً أعدك أن أقوله لك، ولكنى سوف أسايرك فيما تريد كما أود وأبغى، فلو رجعت خطوة للوراء، فتجدنى قد وضعت باروكتى كى تكون بجوار الكابتن، حتى لا أكون مخطئاً ومع ذلك سوف أعطيك أملاً، لو نجينا معاً من فخ الذئاب هذا، سأبذل قصار جهدى لكى أنقذك، سأقول شهادة فى حقك حتى ولو لم تكن كذلك بشكل كبير.

صرخ سيلفر فرحاً بوجهه المشع سعادة وقال:

- لا تقل شيئاً آخر، أنا متأكد يا سيدى، وواثق من ذلك.

وأضاف الدكتور قائلاً:

- حسناً، هذا هو دعمى الأول لك، وثانياً لى نصيحة لك، دع الولد بجوارك دائماً، وحين تحتاج أى مساعدة ناد علىّ وسوف تجدنى بجوارك، سأكون فى الخارج كى أبحث عنك وهذا سوف يثبت لك إذا كنت أتحدث بشكل عشوائى أم لا، وداعاً يا جيم.

ثم سلم الدكتور ليفزى علىّ وصافحنى بحرارة فى الحصن وأومأ لسيلفر وبدأ رحلته بسرعة ورشاقة إلى الغابة.

٣١- اصطياد الكنز

- مؤشر فلنت -

حين كنا بمفردنا قال سيلفر لي:

- إذا أنقذت حياتك، ستنقذ حياتي؟ لن أنسى ذلك أبدًا، لقد لمحت بطرف عينيّ الدكتور وهو يشير لك أن تنجو بنفسك ورأيتك وأنت تقول له " لا " وكأنى سمعتها بوضوح يا جيم، تلك واحدة يا جيم وهى لك، وتلك أول لمحة أمل منذ أن فشل الهجوم وأنا مدين لك، والآن يا جيم سنبدأ فى الذهاب من أجل اصطياد الكنز، بأوامر محددة أيضًا، أنا لا أحب ذلك ويجب أنا وأنت أن نلتصق، ويكون أحدنا وراء الآخر وسوف ننقذ رقابنا بالرغم من القدر والكنز.

وبعد ذلك نادى علينا رجل من عند النار أن طعام الإفطار صار جاهزًا وأننا سوف نتحلق هنا وهناك حتى نتناول البسكويت والبيض المملح المشوى، وأضرموا النار لكى يشووا الثور، وصار الآن مطهيًا وساخنًا بدرجة كبيرة جعلتهم يقتربون منه بهدوء وكأنهم فى مهب الريح، وبالرغم من ذلك لا يحذرون كثيرًا.

وبنفس تلك الروح الضائعة طبخوا الثور، أعتقد أننا من الممكن أن نأكل هذا الثور أكثر من ثلاث مرات، كانت إحداها ونحن نضحك ملء أفواهنا، كنا نرمى ما تبقى فى أيدينا فى النار التى تشتعل وتزأر مرة أخرى فى هذا الوقود غير المعتاد، لم أر رجالاً من قبل أقل حرصًا بالغد مثل هؤلاء، من اليد للفم هذا أفضل وصف لهؤلاء الرجال الذين لا يهتمون أبدًا بالغد والتى تصف طريقتهم فى التعامل مع ما تبقى معهم من طعام ومع الحراس النائمين.

وبالرغم من أنهم كانوا أكثر جرأة ووقاحة بشكل كاف فى أى معركة أو مناوشة بسيطة ويفعلون ذلك، فإننى أراهم فى كامل عدم اللياقة لأى شىء وكأنهم فى حملة عسكرية مطولة أو ممتدة، حتى كابتن سيلفر الذى كان مع الكابتن فلنت ويجواره لم يقل لهم أى كلمة لوم لتهددهم وهذا كان الأكثر دهشة بالنسبة لى، اعتقدت أننى لم أره أكثر مكرًا ودهاء حين كان فى تلك اللحظة، قال سيلفر:

- أيها الزملاء، إنه من حسن الحظ أن تتناولوا الشواء كى تفكروا لأجل مصلحتكم هنا، لقد حصلت على ما أردت، لقد فعلت، أنا متأكد بشكل كاف أنهم يمتلكون السفينة، لكن أين يمتلكونها لا أعرف، ولكن حين نحصل على الكنز سوف نضطر أن نتجول ونقفز لكى نعرف أين يكونون، وعلينا أن نمتلك القوارب، وسيكون لنا اليد العليا.

لذا استمر سيلفر فى حديثه وكان فمه مملوءًا بلحم الثور الساخن واستطاع سيلفر أن يستعيد آمالهم وثقتهم وكنت أكثر من مشبوه لديهم وحاولت إصلاح اعترافه فى نفس الوقت، واستمر فى حديثه قائلاً:

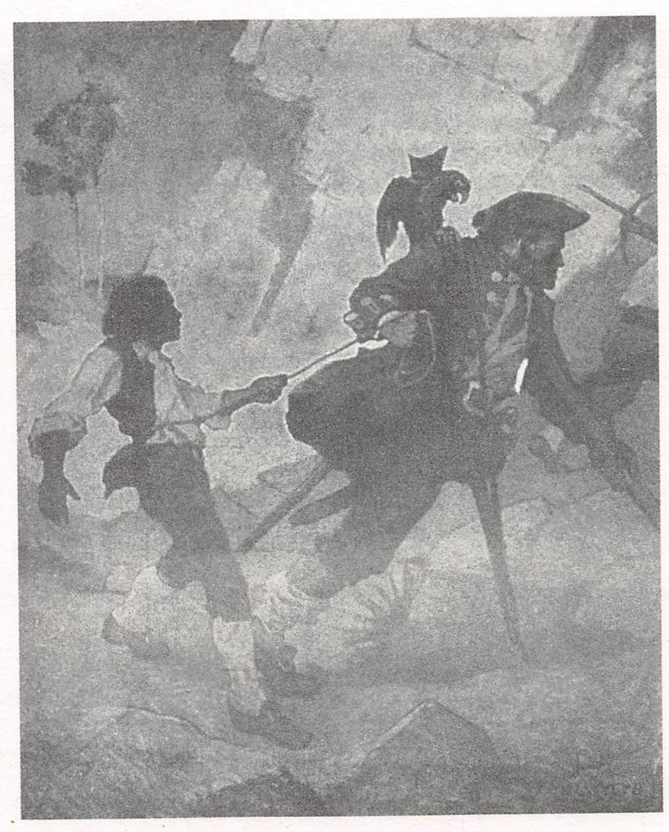
- أما بالنسبة لهذه الرهينة، هذا هو آخر كلامه معهم وأضمن ذلك، لقد حصلت على بعض الأخبار وأشكره لذلك، لكن كل شىء انتهى وفعل تمامًا، سأربطه فى حبل معى أثناء بحثنا عن الكنز، سوف نحافظ عليه كما نحافظ على الذهب ضد أى حادثة من الحوادث، حتى نحصل على السفينة والكنز معًا ونبدأ رحلة العودة فى البحر مثل الرفقاء القراصنة، لذا سوف نتحدث مع السيد هوكنز ونناقشه وسوف نفعل وسوف نعطيه نصيبه حين نتأكد جميعًا من طيبته وإخلاصه.

لا شك أن الرجال الآن فى حالة من المزاج العالى والفكاهة، أما بالنسبة لى فقد كنت حزينًا بشكل مرعب، هل الخطة التى رسمها سيلفر الآن رسمت بشكل مجد، فسيلفر شخص خائن بطبعه ولا يتردد أن يكون كذلك ويتبناه، فهو ما زال له موضع قدم فى المعسكر ولا شك أنه سوف يفضل الثروة والحرية مع القراصنة عن أن يكون مجرد هارب - لا شىء معه - من حبل المشنقة الذى سيكون أفضل شىء من الممكن أن يحلم به معنا.

ليس هذا فحسب، وحتى لو سقطت كل الأشياء، سوف يُجبر أن يحفظ وعده مع الدكتور ليفزى وحينئذٍ ما الخطر الذى سيحيط بنا، يا لها من لحظة حين يتحول شك زملائه إلى يقين وتأكيد، سوف نضطر ساعتها أن نقاتل من أجل الاحتفاظ بحياتنا، فهو مجرد شخص كسيح وأنا ولد صغير ضد خمسة أقوياء وبحارة نشيطين.

بالإضافة إلى هذا الاعتقال المزدوج ما زالت الخرافة والأسطورة معلقة فى سلوك أصدقائى خاصة هجرتهم غير المفهومة من الحصن وتخليهم غير المبرر عن الخريطة والصعب على الفهم، وقد كان تحذير الدكتور الأخير لسيلفر:

- ابدأ البحث عن الكنز حين تجد العاصفة الممطرة والثلجية.



لكل العالم، تم اقتيادى مثل دب يرقص

ولك أن تحس بالطعم المر الذى وجدته فى فمى أثناء طعام الإفطار وكنت بقلب غير مستريح أتحرك خلف خاطفىّ فى رحلة البحث عن الكنز.

كانت أشكالنا غريبة جداً لأى أحد يرانا هناك، كنا جميعًا نرتدى ملابس البحارة الموحلة، وكان الجميع باستثنائى مسلحين حتى أسنانهم، كان سيلفر يمتلك بندقيتين متدليتين، واحدة أمامه وواحدة خلفه بالإضافة لسيفه العظيم فى وسطه ومسدس فى كل جيب من جيوب المعطف المربع الذى له ذيل، ولاستكمال شكله الغريب كان ببغاء الكابتن فلنت يحط على كتفه ويثرثر فى أشياء تافهة كحديث البحر الذى بلا هدف، كان حول وسطى حبل يجرجرنى منه طباخ البحر وأتحرك وراءه بطاعة أينما ذهب من الطرف المفكوك فى يده، فأنا فى يده الحرة الآن وبين أسنانه القوية، كنت بالنسبة لكل العالم مُقتاداً مثل دب يرقص.

كان الرجال الآخرون يحملون بعض المعاول والجرافات، كان ذلك أول شىء ضرورى ومهم أحضروه من السفينة إلى الشاطئ وكان البعض الآخر محملاً بلحم الخنزير والخبز والبراندى لوجبة منتصف النهار، كان كل الطعام الذى لاحظته جاء من المخزن، استطعت أن أرى حقيقة كلمات سيلفر فى الليلة السابقة، فإذا لم يكسر الصفقة مع الدكتور فإنه ومتمرديه الذين تُركوا بواسطة السفينة يجب أن يعيشوا على الماء الرائق وبعض ما ينشأ من الصيد، فالماء يكون قليلاً لتذوقهم، فالبحار لا يكون عادة صياداً جيداً، وإضافة لذلك، حين يمتلكون قليلاً من الأطعمة، هذا ليس معناه أنهم يمتلكون الكثير من البارود.

حسناً، بدأنا الرحلة جميعًا مزودين بالمعدات التى نريدها، حتى الزميل صاحب الرأس المكسور الذى يجب أن يكون فى الظل، وتفرقنا واحداً بعد الآخر حتى وصلنا إلى الشاطئ حيث يقف الزورقان فى انتظارنا، اصطحبنا حتى الأثر المزعج لحماقة شاربى الخمر من القراصنة، كان أحدهم فى إحباط كبير والكل فى ظروفهم الموحلة، فالكل كان يُحمل معنا من أجل خاطر الأمن، لذلك قمنا بتقسيم أنفسنا وبدأنا نصعد لحضن المرسى حين توقفنا، كان هناك بعض المناقشة بشأن الخريطة، فالصليب الأحمر بالطبع كان بعيداً جداً كى يرشدنا وعلامات الملاحظة كانت فى الخلف، كما ستسمع وتعترف ببعض الغموض، بدءوا الجرى والقارئ ربما يتذكر هذا:

الشجرة الطويلة، كتف جبل النظارة المكبرة، احتمال نقطة أو إشارة إلى الشمال من شمال شمال شرق، جزيرة الهيكل العظمى شرق جنوب شرق وبجانب الشرق عشرة أقدام.

كانت الشجرة هى العلامة الرئيسية، الآن كان على يميننا المرسى المحدد بجوار الهضبة بحوالى ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم ارتفاعًا ومجاورًا لى شمال الانحدار لكتف جبل النظارة المكبرة، ثم تصعد مرة أخرى تجاه جنوب الربوة الصخرية الخشنة والتى تسمى جبل مازن ماست، كانت قمة الهضبة منقطة بأشجار الصنوبر الكثيفة على ارتفاع عال، هنا أو هناك كنا نجد واحدة من الأشجار من جنس مختلف على ارتفاع ٤٠ أو ٥٠ قدمًا من جارتها التى تعلوها، وكانت إحدى هذه الأشجار هى الشجرة الخاصة، شجرة كابتن فلنت الطويلة التى من الممكن أن تحدد فى هذه البقعة بواسطة قراءة البوصلة جيداً.

وبالرغم من تلك الحالة، فإن كل واحد من الرجال الذين كانوا على المركب أحضر الشىء الذى يحبه جداً، وقبل أن نصل لنصف المسافة دعاهم سيلفر وهو يهز كتفه أن ينتظروا حتى نصل إلى هناك.

سرنا بسهولة وراء توجيهات سيلفر حتى لا يسأم الرجال قبل الأوان، وبعد السير فى ممر طويل هبطنا إلى بداية النهر الثانى الذى يتدفق فى أحد شقوق الغابة المتصلة بجبل النظارة المكبرة، ثم انحنينا إلى اليسار وبدأنا نصعد المنحدر تجاه الهضبة.

فى بداية تحركنا كانت الأرض الموحلة الثقيلة الملبدة بالطين السبخى والمملوءة بالنبات تعوق تقدمنا ولكن قليلاً قليلاً صار الجبل أشد انحدارًا وصخريًا تحت أقدامنا وتحولت شخصية الغابة وصارت مكانًا أكثر انفتاحًا عن نظامها المعروف، كان ذلك بالفعل هو الجزء الأكثر سعادة من الجزيرة التى نتقدم إليها الآن، كانت النباتات العطرية الكثيفة والأشجار المزهرة احتلت مكان الحشائش، كان الكثير من أشجار جوز الطيب تتوزع هنا وهناك مع تلك العمدان الحمراء والظل الواسع لشجر الصنوبر والتى اختلطت توابلهم مع نكهة الأشجار الأخرى، كان الهواء المنعش الطازج تحت أشعة الشمس يشكل حالة رائعة من الانتعاش لأحاسيسنا.

نشرت المجموعة نفسها على نطاق واسع فى المكان، كان الجميع متحمسًا، يصرخون ويروحون جيئة وذهابًا عند المنتصف تقريبًا وبطريقة جيدة خلف بقية المتمردين، كان يشدنى سيلفر بحبل من وسطى وكنا نتبعهم بلهاث عميق بين الصخور والحصى المتساقطة، كنت من وقت لآخر أساعده حتى لا تنزلق قدمه ويسقط خلف التل.

واصلنا التقدم حتى قطعنا تقريبًا نصف ميل وصرنا قريبين من حافة الهضبة حتى بدأ الرجل الذى كان بالقرب من أبعد جزء فى اليسار يصرخ بصوت عال، كما لو كان فى رعب، صرخة بعد أخرى تأتى من جهته وبدأ الآخرون يجرون فى اتجاهه، قال مورجان وهو يمر من علينا مسرعًا:

– لا يمكن أن يكون قد وجد الكنز، إنها مجرد قمة خالية!!

حين وصلنا البقعة التى حددها الرجل وجدنا شيئًا مختلفًا جدًا تحت شجرة الصنوبر الكبيرة والمحاطة بنباتات خضراء زاحفة والتى بدأت عظامها تصعد وجدنا هيكلاً عظميًا مفرودًا عليه خرقات بالية من الملابس على الأرض، أعتقد أن قشعريرة ضربت كل واحد فى قلبه من الرجال، قال جورج مارى الذى كان أكثر جرأة واقترب أكثر منه وفحص ملابسه الممزقة:

– كان بحارًا .. هذه ملابس بحار جيد.

قال سيلفر:

– كفى، لن تجد بالطبع هنا مطرانًا أو أسقفًا، أعتقد ذلك، ثم هذه هى الملابس التى يجب أن يرتديها شخص ميت، هذا أمر طبيعى.

ومع اللمحة الثانية للهيكل العظمى لا يمكن أن تصدق أن الجسد فى وضع طبيعى ولكن بسبب بعض الفوضى مثل عمل بعض الطيور التى تغذت على الجسد وبعض النباتات الزاحفة التى تغطى بقاياه لم يلحظ أحد ذلك، كان الرجل ممددًا بشكل مستقيم وأقدامه تشير فى اتجاه واحد ويداه مرفوعتان فوق رأسه مثل يد غواص وتشير بشكل مباشر فى الاتجاه المعاكس، قال سيلفر ملاحظًا:

– جاءت لدى فكرة من زميلى الأحمق القديم، ها هى البوصلة، مؤشرها يشير إلى جزيرة الهيكل، إنها ثابتة مثل سنة، فقط خذوا هذا الاحتمال بجدية وسوف تأخذون خيوط الحل من تلك العظام.

وبدأنا العمل، كان الجسد يشير بشكل مستقيم فى اتجاه الجزيرة، كانت قراءة البوصلة بشكل وافٍ هى شرق جنوب شرق، قال الطباخ سيلفر:

- أعتقد ذلك، فالمؤشر يشير إلى النجم القطبى وأموال القرصان.

وأضاف محدثًا صوتًا كالرعد:

- إذا لم يجعلنى ذلك باردًا وهادئًا كى أفكر فى فلنت، ستكون تلك واحدة من نكاته ولا خطأ عنده، كان هو والستة رجال بمفردهم هنا وقتلهم جميعًا رجُلاً رجلاً، وهذا أحدهم وقد سحبه إلى هنا ووضعه فى اتجاه البوصلة، اهتزت أطرافى، كانوا أصحاب عظام طويلة، وكان شعرهم أصفر، أعتقد أن ذلك هو أليرديس، هل تذكر أليرديس يا توم مورجان؟

عاد مورجان للحديث:

- نعم، أتذكره، إنه مدين لى ببعض النقود، إنه لص، صدقونى، وأخذ سكينى معه للشاطئ.

قال آخر:

- حديث السكاكين، لماذا لا نجدها مع الراقد حولنا، لم يعط فلنت البحار أى فرصة لكى يأخذ حافظة نقوده وأخمن أن الطيور قد تتركها.

قال سيلفر:

- تلك حقيقة.

وقال مارى الذى ما زال يشعر بالدوار بين العظام:

- لا يوجد شىء هنا، وحتى عملة الدويت الهولندية النحاسية ولا صندوق من الخمر، هذا لا يبدو طبيعيًا بالنسبة لى.

وافق سيلفر بإصرار:

- فعلاً غير طبيعى وليس جيدًا، هذا وقت البنادق يا رفقاء الموائد، لكن لو كان فلنت على قيد الحياة لصارت تلك بقعة ساخنة لكم ولى، سيكونون ستة ونحن ستة والعظام هو ما سيبقى الآن.

قال مورجان:

- لقد رأيته ميتًا من مناور السفينة، لقد أخذنى بيلى إلى هناك حيث يرقد وبعض النبات على عينيه.

قال أحد الزملاء الذى يضع ضمادة:

- نعم، مات، أمتأكد بدرجة كافية أنه مات ودفن؟ ولكن لو أن الأرواح تسير، ستكون روح فلنت، لكنه يا قلبى العزيز مات، ومات فلنت.

قال آخر:

- هو فعلاً مات، فالآن هو غاضب ومغتاظ ويتذمر الآن من أجل شراب الروم، والآن هو يغنى "خمسة عشر رجلاً" حيث كانت أغنيته الوحيدة يا زملاء، سأقول لكم الحقيقة، لم أحب أن أسمعها منذ تلك اللحظة، لقد كان الجو حاراً وبه رياح وكنت أسمع هذه الأغنية القديمة التى تأتى إلينا بوضوح تام، ولكن الموت قد سبق إلى الرجل فعلاً.

قال سيلفر:

- تعال، تعال، أوقف هذا الكلام، إنه مات ولا يتحرك، لقد عرفت ذلك، وعلى أى حال لن يمشى ويسير بالنهار ومن الممكن أن تركن لذلك، فالحرص يقتل صاحبه، هيا للأمام من أجل الدبلون، العملة الإسبانية الذهبية القديمة.

بدأنا بالتأكيد نواصل المسير على الرغم من الشمس الحارة وضوء النهار، لم يعد القراصنة يجرون منفصلين عن بعضهم أو يصيحون خلال الغابة، ولكنهم يسيرون جنبًا إلى جنب ويتحدثون بنفس هادئ وخافت، ولم لا؟ فرعب القرصان الميت قد سكن نفوسهم.

٣٢- اصطياد الكنز
- الصوت بين الأشجار -

بسبب تثبيط الهمم- إلى حد ما- من هذا الإنذار ولأن سيلفر والمهرج المريض ومن معه يريدون أن يستريحوا، جلست كل المجموعة بمجرد أن وصلت إلى حافة الصعود.

كانت الهضبة محددة فى اتجاه الغرب إلى حد ما، توقفنا عند هذه البقعة لبعض الوقت وأُمرنا أن ننقب ونبحث بشكل واسع على الجانب الآخر، وافقنا وفوق قمة الشجرة شاهدنا قمة الغابة مهدبة بواسطة الأمواج المتكسرة على الشاطئ، فى الخلف لم نكن ننظر فقط للمرسى الذى تحتنا ولجزيرة الهيكل العظمى، ولكننا رأينا بوضوح عبر تلك البقعة والأرض المنخفضة الشرقية مساحة كبيرة من البحر المفتوح عند الشرق عموديًا فوقنا، كان جبل النظارة المكبرة المنقط بأشجار الصنوبر المنفردة، وحيث حوافه التى تتسم بالقذارة والظلمة، لم يكن هناك أى صوت إلا أصوات تكسير جبلية منتظمة من كل جانب وسقسقة بعض الحشرات التى لا تعد ولا تحصى فى الأشجار، فلا إنسان ولا أى شراع على سطح البحر، وكان اتساع المنظر الطبيعى للبحر يزيد الإحساس بالوحدة.

مال سيلفر وهو جالس إلى احتمال مؤكد للبوصلة، وقال:

- توجد ثلاث أشجار من الشجر الطويل تقريبًا على يمين جزيرة الهيكل وكتف جبل النظارة المكبرة، أنا مع هذا، ويعنى مؤشر هذه البوصلة أنه يشير لذلك، ولعبة الأطفال التى تؤكد على شىء تجده الآن، لدى شعور أننى أود أن أتناول العشاء أولاً.

قال مورجان:

- أنا لا أشعر برغبة جامحة فى ذلك، أنا أفكر فى فلنت، أفكر أين كان، هذا ما يشغلنى.

قال سيلفر:

– آه.. حسنًا يا بنى، أنت تمدحه، لكنه صار ميتًا الآن.

صاح القرصان الثالث، وهو يهز كتفه:

– إنه كان شيطانًا قبيحًا وكانت القسوة فى وجهه أيضًا.

قال مارى:

– وكان يسيطر شراب الروم عليه، لقد كان فعلاً قاسيًا وصارمًا، أعتقد أنه كان كذلك وكلمة قاس كلمة حقيقية.

ومنذ أن وجدوا الهيكل العظمى وحصلوا على تلك القافلة من الأفكار، وهم يتحدثون بشكل منخفض، حتى صار كل حديثهم الآن همسًا، لدرجة أن أصواتهم أحيانًا تقطع بصعوبة صمت الغابة، وفجأة حدث شىء خرج من منتصف الأشجار التى أمامنا، سمعنا صوتًا رقيقًا مرتعشًا يخترق الهواء المعروف جيدًا والكلمات عاليًا:

خمسة عشر رجلاً على التابوت،

يو يو يو وزجاجة من شراب الروم.

لم أر رجالاً مؤثرًا عليهم بشكل مرعب أكثر من هؤلاء القراصنة، لقد ذهب لون وجوههم جميعًا مثل السحر، قفز بعضهم واقفًا، والبعض أمسك فى البعض الآخر وانبطح مورجان على الأرض، قال ميرى:

– إنه فلنت!!

توقفت الأغنية فجأة كما بدأت، انقطعت تمامًا، من الممكن أن تقول – فى ملاحظة لك – إن شخصًا ما قد وضع يده على فم المطرب وهو يغنى، وقد وضح ذلك خلال الطقس المشمس بين قمم الأشجار الخضراء، أعتقد أن الصوت كان رقيقًا ومرحًا لكن تأثيره على أصدقائى كان غريبًا، قال سيلفر مكافحًا بشفافيته الرمادية كى يحصل على الكلمة:

– تعالوا، هذا لم يحدث، أجهزوا لكى نتجول، تلك هى بداية شراب الروم المُسكر، لا أستطيع أن أحدد صاحب الصوت، واحتمال أن يكون واحدًا يعيش بالليل، شخص ما من لحم ودم ويجب أن تقتنعوا بهذا.

عادت شجاعته إليه مرة أخرى حين تحدث، وعاد إليه بعض من لون وجهه، وبدأ الآخرون يعطونه آذانهم إلى تلك الشجاعة وبدأوا يعودون إلى أنفسهم قليلاً حين بدأ الصوت مرة أخرى يغنى بشكل متراجع صداه وخافت بين شقوق جبل النظارة المكبرة.

بدأ الصوت ينتحب: "داربى أم جرو" كانت تلك الكلمة التى حددت الصوت وتكررت نفس الكلمة مرات أخرى وبدأت ترتفع أعلى وأعلى بإصرار وسمعنا بعد ذلك، أحضر قرب شراب الروم يا دربى.

ظل القراصنة منغرسين فى الأرض، وعيونهم جاحظة فى رؤوسهم، وبعد أن تلاشى الصوت بكثير، ظلوا مبحلقين فى صمت ورعب، قال أحدهم شاهقًا:

– لقد تغير الكلام، دعونا نذهب فوراً.

أنَّ مورجان قائلاً:

– تلك كانت كلماته الأخيرة.. كانت كلماته الأخيرة فوق المركبة.

أخرج ديك الإنجيل وبدأ يصلى بإخلاص، إنه شخص قد تربى جيداً، لقد أحضره معه ديك قبل أن يأتى إلى السفينة ويقع بين هؤلاء الزملاء الأشرار، لم يزل سيلفر لم يقهر بعد واستمعت إلى اصطكاك أسنانه فى رأسه لكنه لم يستسلم بعد، زام سيلفر قائلاً:

– لا أحد فى هذه الجزيرة سمع عن دربى، لا أحد هنا ولكننا نحن أيضًا لم نسمع عنه، وعليه سوف نبذل قصارى جهدنا يا زملاء السفينة، فأنا هنا كى أحصل على كل الممتلكات ولن أهزم من أى إنسان أو شيطان، فلم أخف من فلنت فى حياته وسوف أواجهه ميتًا وبكل قوتى، يوجد سبعمائة ألف جنيه على بعد لا يزيد عن ربع ميل من هنا، فمتى يظهر أحد رجال الكنز الشبان شجاعته وإقدامه لهذه الدولارات الكثيرة التى لا تعد فى مواجهة بحار عجوز سكران بوجه قاس وميت أيضًا؟

وعلى الرغم من ذلك لم توجد أى إشارة لشجاعة طارئة لزملائه أكثر من زيادة الرعب بسبب كلماته المستهترة وغير الموقرة، قال ميرى:

– بلى هناك يا جون، يوجد شجعان، ألا تعبر الجبل؟!

كان الجميع أكثر رعباً لدرجة أنهم لا يستطيعون الرد، جرى كل واحد فى اتجاه بعيداً قدر استطاعته، لكن الخوف جمعهم مرة أخرى وجعلهم ملتصقين ببعض بجوار جون، كما لو أن جُرأته ساعدتهم، وكما أنه استطاع من جانبه أن يقاوم ضعفه، قال سيلفر:

– الجبل، حسناً، ربما، لكن يوجد شىء واحد غير واضح لى، يوجد صدى، والآن لا أحد من الرجال رأى أى شبح، حسناً، ترى ماذا يُفعل بصدى الصوت له، أحب أن أعرف، أليس ذلك أمراً صعباً.. بالتأكيد؟

كانت تلك المجادلة ضعيفة بالنسبة لى، لكنك لن تستطيع أن تقول ما هو تأثير تلك الخرافة، ولدهشتى كان جورج ميرى مرتاحاً لدرجة كبيرة، قال:

– حسناً، وهو كذلك، أنت تمتلك رأساً فوق أكتافك جون، ولا خطأ، استيقظوا أيها الزملاء، فالطاقم هنا فى الاتجاه الخاطئ، أعتقد ذلك وأدعوكم للتفكير فى ذلك، إنه يشبه فقط صوت فلنت، أوافقكم ولكن ليس كما تقولون بالضبط، وبعد كل ذلك إنه يشبه صوت شخص آخر الآن، إنه يشبه..

زأر سيلفر قائلاً:

– بكل تأكيد إنه يشبه بن جن.

صرخ مورجان بعد أن قفز على ركبتيه:

– حسناً.. هو بن جن.

قال ديك:

– أنا لم أفعل أى شىء خطأ أو شىء شاذ حتى الآن، بن جن ليس موجوداً هنا بجسده مثل فلنت تماماً، لكن الأيدى العجوزة حببت تلك الملاحظة، باختصار.

صرخ ميرى قائلاً:

– لماذا لم يفكر أحد فعلاً فى بن جن إذا كان ميتاً أو على قيد الحياة، لم يفكر أحد فى ذلك.

كان ذلك شيئًا غريبًا أن تعود أرواحهم إليهم مرة أخرى، وأن يعود لون وجوههم مرة ثانية، هم الآن يتحدثون ويدردشون معًا، يستمعون لبعضهم، ولم يمر وقت طويل حتى لم يعد يسمعوا أى صوت، فحملوا أدواتهم على أكتافهم وبدأوا الرحلة مرة ثانية، كان ميرى يسير فى البداية مع بوصلة سيلفر كى يحافظ على الاتجاه الأيمن لسفينة الهيكل العظمى، لقد قال الحقيقة، ميتًا أو حيًا لا أحد فكر فى بن جن، كان ديك يحمل إنجيله وينظر حوله كلما ذهب بنظرات مرعبة، لكنه لم يجد أى تعاطف من أحد ودائمًا ما يسخر منه سيلفر من حرصه الشديد، قال سيلفر:

- لقد قلت لك من قبل إنك أفسدت إنجيلك ولم يعد صالحًا أن تُقسم به.

ثم انتزع أصابعه ووقف للحظة على عكازه، لكن ديك لم يكن مرتاحًا حقًا، كان واضحًا لى أن الفتى قد أصيب بالمرض، فالسرعة مع الحرارة والإنهاك والصدمة والحمى التى تنبأ بها الدكتور ليفزى كان من الواضح أنها تزداد عليه أكثر.

كان السير مفتوحًا هنا فوق القمة، كان طريقنا منحدرًا قليلاً كما قلت، والهضبة كانت تقبع فى الغرب، وأشجار الصنوبر الكبيرة والصغيرة تنمو باتساع فى كل مكان وحتى بين كُتل أشجار جوز الطيب والأزالية المنتشرة على نطاق واسع والمشوية فى حرارة الشمس، والمدهش أننا تقدمنا بالقرب من الشمال الغربى عبر الجزيرة، تسحبنا على الجانب الآخر بالقرب من تحت جوانب جبل النظارة المكبرة، وعلى الناحية الأخرى حيث نظرنا بشكل متسع فوق الخليج الغربى حيث قُذفت وارتعشت أطرافى فى الزورق.

وصلنا إلى أول مجموعة من الأشجار الطويلة، وبالتخمين عرفنا أنها الخطأ، ومع الثانية تكرر نفس الشىء، ومع الثالثة ارتفعنا حوالىَ ٢٠٠ قدم فى الهواء فوق كتلة من الأشجار والخضروات بها عمود أحمر ضخم مثل كوخ وظل واسعًا حولها ليسمح للصحبة أن تناور وتتحرك.

كان واضحًا أنه بعيد عن البحر من جهة الشرق أو الغرب، وربما يدخل إليه عن طريق علامة الشراع فوق الخريطة.

لم يكن ذلك بالقدر الكبير الذى أثر على زملائى الآن، فقد كانت المعلومات أن سبع مائة ألف جنيه من الذهب ترقد مدفونة تحت ظلها المنتشر، كان التفكير فى المال كلما

اقتربوا يبتلع رعبهم السابق، فقد احترقت عيونهم فى رؤوسهم وصارت أقدامهم أكثر سرعة وخفة عن ذى قبل، وظلت روحهم معلقة بهذا الكنز، وأنهم سوف يقضون حياتهم فى حالة الترف والسعادة التى ظل كل واحد منهم ينتظرها.

كان سيلفر يعرج على عكازه وكانت فتحتا منخاره مفتوحتين ومرتجفتين، سب ولعن مثل رجل مجنون حين حط بعض الذباب على وجهه المشمس الساخن، التقطها بغضب من على وجهه، جذبنى ذلك إليه، ومن وقت لآخر كان ينظر إلىّ نظرة مميتة، بالتأكيد لم يشعر بأى ألم كى يخفى أفكاره، لقد قرأهم مثل طابعة، وحين اقترب من الذهب، كل شىء نُسى تماماً، كان وعده وتحذيرات الدكتور ليفزى شيئًا من الماضى لا أكثر، لم أشك لحظة أنه كان يريد أن يقبض على الكنز، ويجده ويبحر بالسفينة هيسبنيولا تحت جنح الليل ويقطع كل ما يربطه بشأن الجزيرة، ويبحر بعيداً كما نوى أول مرة محملاً بالجرائم والثروات.

كم اهتززت بهذه التنبيهات والتحذيرات لقربنا من الكنز، لم أكن أستطيع أن أساير خطوات صيادى الكنز السريعة، كنت أتعثر من وقت لآخر، وحين ذلك شدنى سيلفر بعنف من الحبل وأطلق علىّ النظرات المميتة، كان يسقط وراءنا ديك، وكان دائمًا متأخراً عن الجميع ويثرثر بصلواته ولعناته بسبب الحمى التى بدأت تزداد عليه، وزاد ذلك من تعاستى، كنت محاطًا بأفكار بسبب الفكرة المأساوية التى من الممكن أن توجد على الهضبة، حين مات القرصان الشرير صاحب الوجه الأزرق على حشائش السافانا، وهو يغنى ويصيح من أجل السراب هناك، والذى بيده قتل ستة من تابعيه، فهذا البستان الذى صار أكثر سلامًا سوف يغنى الآن بالصرخات، أعتقد وما زلت أعتقد أننى أسمعه، وما زال يرن، نحن الآن على حافة الغابة، صرخ ميرى:

– هو ذا يا زملاء، تعالوا جميعًا.

وتسابق الجميع فى الجرى ناحيته، وفجأة، على بعد لم تزد عن عشر ياردات توقفنا، ارتفعت صرخة منخفضة، زاد سيلفر من سرعته وبدأ يحفر بقدمه الخشبية مثل الأخرى التى يمتلكها، بعد لحظة تالية وصلنا معًا إلى حالة تردد مميتة.

لقد كان قبلنا تنقيب عظيم، ولم يكن جديدًا بل قديمًا لدرجة أن حواف الحفرة قد سقطت ونبتت بعض النباتات فى قاعها، ورأينا فيها مقبضًا لفأس مكسورة إلى نصفين وبعض ألواح مبعثرة من صناديق الشحن متناثرة حولنا، وعلى أحد هذه الألواح رأينا اسم سفينة فلنت مكتوبة وممهورة بالحديد الساخن مثل ماركة مسجلة.

كل شىء صار واضحًا جدًا، يبدو أن المخبأ قد اكتشف وسُرق، لقد ضاعت السبعمائة ألف جنيه هباء.

٣٣- سقوط رئيس العصابة

لم يكن هناك إحساس بالسقوط أكثر من ذلك فى العالم كله، فكل واحد من الرجال الستة كأنه مضروب فوق رأسه، لكن الأمر بالنسبة لسيلفر مر بثبات، فكل فكرة من روحه قابلة للأخذ والرد مثل المقامر من أجل المال، قد يكسب وقد يخسر، فقد تربى على ذلك، ففى ثانية واحدة استطاع أن يستعيد رأسه ويسترد حالته المزاجية قبل أن يدرك الآخرون حالة الإحباط التى أصابته، وهمس إلىّ قائلاً:

– جيم، خذ هذا واستعد لأى مشاكل.

وأعطانى مسدسًا بروحين وفى نفس الوقت بدأ يتحرك بهدوء شمالاً وبعد عدة خطوات جعل الحفرة بيننا نحن الاثنين وهم الخمسة، ثم نظر إلىّ وأومأ وكان يود أن يقول:

– هذا ركن ضيق.

فكرت فيما قال حقًا، فلم تكن نظراته ودودة وكنت ثائرًا ومتمردًا لهذه التغيرات المستمرة لدرجة أننى لم أستطع أن أقاوم همسى، وقلت له:

– لقد غيرت مكانك مرة أخرى.

لم يكن لديه أى وقت متبق لكى يرد علىّ، فالقراصنة الذين يصرخون ويستحلفون بدأوا يقفزون واحدًا بعد الآخر إلى الحفرة، وبدأوا يحفرون بأصابعهم ويرمون الألواح الخشبية التى تقابلهم بعيدًا قدر استطاعتهم، ووجد مورجان قطعة ذهبية، حملها فى يديه بعناية فائقة، كأنها بداية الغيث، كانت قطعة ذهبية إنكليزية تقدر بجنيهين، ومرت تلك القطعة الذهبية من يد لأخرى بينهم جميعًا فى خلال ربع دقيقة، زأر ميرى قائلاً:

– جنيهان إنكليزيان!!

وهز ميرى الجنيهين فى يده أمام سيلفر، وقال:

- أهذه السبعمائة ألف جنيه، إنك رجل مخادع، أليس كذلك؟ إنك شخص يعمل أى شىء بلا اتفاق، إنك شخص أخرق برأس خشبية.

قال لهم سيلفر ببرود وعجرفة وسخرية:

- احفروا أيها الأولاد، سوف تجدون بعض ثمار شجر الحقور أو الجوز الأمريكى.

رد ميرى صارخًا:

- ثمار شجر الحقور الأمريكى!! هل سمعتم ذلك أيها الزملاء؟ أقول لكم الآن إن هذا الرجل يعرف ذلك من وقت بعيد، انظروا لوجهه، ستجدون ذلك مكتوبًا عليه.

أبدى سيلفر ملاحظته قائلاً:

- آه.. يا ميرى، ما زلت تحلم أن تكون الكابتن، إنك طموح ومغامر، متأكد من ذلك.

صار الآن كل واحد مع ما يقوله ميرى تمامًا، وبدأوا يصعدون من الحفرة ويتوقفون عن التنقيب، وثبوا بثبات وتصاحبهم نظرات غاضبة وراءهم، شىء واحد لاحظته كان جيدًا بالنسبة لنا، وهو أنهم قد خرجوا من الجانب المقابل لنا.

حسنًا، وقد وقفنا نحن الاثنين فى جانب والخمسة رجال من العصابة فى جانب آخر، وكانت الحفرة بيننا ولم يستجمع أحد منهم أى شجاعة له كى يبدأ أول هجومه علينا، فلم يتحرك سيلفر، فقد ظل يراقبهم وهو واقف على عكازه، وقد كان باردًا وشجاعًا ولم يفعل أى خطأ.

بدأ ميرى يفكر فى الكلام الذى من الممكن أن يساعده فى تلك الأحوال، وقال:

- أيها الزملاء، يوجد اثنان بمفردهما هناك، أحدهما أعرج كسيح عجوز أحضرنا جميعًا وأربكنا بالحضور إلى هنا، والآخر ثعلب ماكر أتمنى أن أخرج قلبه الآن يا أصدقاء.

وبدأ ميرى يرفع ذراعه وصوته، كان يقصد أن يعطى زملاءه قدراً من الشجاعة، لكن فى هذه اللحظة قد سمع صوت أسلحة نارية:

- كراك، كراك، كراك.

أنارت طلقات ثلاث بنادق خارجة من الدغل، فسقط ميرى برأسه مرة أخرى إلى الحفرة، وسقط الرجل الذى يوجد ضمادة حوله مثل لعبة الخذروف القديمة بكل طوله على جنبه، حيث خر ميتًا، لكنه ما زال يرتعش وينتفض، واستدار الرجال الثلاثة الباقون فارين بما أتو من قوة.

وقبل أن تستطيع أن ترمش بعينيك، كان سيلفر قد أفرغ خزينتين من المسدس فى صدر ميرى المكافح، بينما كان الرجل يدحرج عينيه إليه، وهو فى النزع الأخير لسكرات الموت قال له سيلفر:

- أعتقد يا جورج أننى جعلتك مستقراً ومرتاحاً.

فى نفس اللحظة انضم إلينا الدكتور ليفزى وجراى وبن جن بأسلحتهم التى ما زالت تُخرج دخانها بين أشجار جوز الطيب، صرخ الدكتور قائلاً:

- للأمام، للأمام، أسرعوا يا فتيان، يجب أن نحول بينهم وبين الوصول للمركبين.

ثم بدأنا الجرى بسرعة كبيرة، كنا أحيانًا نغوص خلال الشجيرات حتى صدرنا وكان سيلفر مرهقًا جداً كى يسايرنا فى العمل الذى نقوم به، كان يقفز على عكازه حتى صارت عضلات صدره على وشك الانفجار، وعلى الرغم من ذلك لم يكن أحد من الرجال الأصحاء يساويه وكذلك يعتقد الدكتور، كان سيلفر على بعد ثلاثين ياردة خلفنا وكان على شفا أن يختنق حين وصل إلى حافة المنحدر، وصاح قائلاً:

- دكتور.. انظر هناك، لا تسرعوا!

بالطبع لم يكن هناك أى داع للعجلة والإسراع، فقد كنا فى منطقة مفتوحة كثيراً على الهضبة الربوة، واستطعنا أن نرى الناجين الثلاثة، وهم ما زالوا يجرون فى نفس الاتجاه الذى بدأوا الجرى فيه، يميناً إلى تل ميزن ماست، كنا فعلاً بينهم وبين

القاربين، شعرنا بالراحة، جلسنا نحن الأربعة نأخذ قسطًا من الراحة، بينما كان لونج جون يقف يمسح وجهه ثم جاء إلينا ببطء ثم قال:

– أشكرك من كل قلبى يا دكتور، لقد جئت إلينا فى اللحظة الحاسمة لكى تنقذنى أنا وجيم.

وأضاف قائلاً:

– أأنت بن جن، إنك شخص لطيف بالتأكيد.

فأجاب بن جن وهو يتلوى مثل سمك الجريث فى ارتباكه قائلاً:

– أنا بن جن، بن جن.

وأضاف بعد توقف طويل إلى حد ما قائلاً:

– كيف حالك يا سيلفر، أجيد أنت، متشكر جداً.

صاح سيلفر قائلاً:

– أأنت بن جن، أشكرك على ما فعلت.

ثم أرسل الدكتور ليفزى جراى مرة أخرى كى يحضر أحد المعاول التى تُركت فى رحلتهم بواسطة المتمردين، وبينما نحن فى طريقنا إلى التل حيث ترقد المركبتان هناك بدأنا نسمع حكاية كانت مهمة جداً بالنسبة لسيلفر، كان بطلها من البداية للنهاية بن جن الذى تُرك بمفرده على الجزيرة.

اكتشف بن جن فى تجواله بمفرده على الجزيرة لمدة طويلة هيكلاً عظميًا، إنه الهيكل الذى قد أخذ ما معه فى ملابسه، لقد اكتشف الكنز وبدأ يحفر بجد (وقد ترك مقبض المعول المكسور فى الحفرة) بدأ يحمل هذا الكنز على ظهره فى رحلات مملة ومتعبة وكئيبة من تحت شجرة الصنوبر الطويلة إلى الكهف الذى وجده فى الجبل ذى القمتين فى زاوية الاتجاه الشمال الشرقى للجزيرة، وهناك بدأ يخزن هذا الكنز فى أمان منذ شهرين قبل وصول السفينة هيسبنيولا.

وحين انتزع الدكتور ليفزى هذا السر من بن جن وغرفه صباح يوم الهجوم وشاهد فى الصباح التالى المرسى مهجوراً، ذهب إلى سيلفر الحصن وأعطاه الخريطة التى صارت بلا فائدة وأعطاه ما معه من مخزون أيضاً، فقد كان لبن جن كهفًا مملوءًا بلحم الماعز المقدد الذى فعله بنفسه وأعطاه أى شىء وكل شىء حتى يجد الفرصة للتحرك بأمان من الحصن إلى الجبل ذى القمتين، فهناك سيكون المكان خاليا بالطبع من الملاريا وسيكون حارسًا على الكنز، وأضاف الدكتور قائلاً:

– وبالنسبة لك يا جيم كان الأمر بالطبع ضد قلبى ولكنى فعلت ما اعتقدت أنه الأحسن لأولئك الذين يقفون كى يؤدوا واجبهم، وإذا لم تكن واحدًا من هؤلاء ساعتها، فخطأ من يكون؟!

وجدت نفسى هذا الصباح مشاركًا فى خيبة الأمل المرعبة التى أعدها الدكتور للمتمردين، ظل يجرى طوال الطريق إلى الكهف، فقد كان قد ترك العمدة تريلونى كى يحرس الكابتن، وأخذ جراى وبن جن وبدأ يصنع خطًا مائلاً عبر الجزيرة كى تكون فى متناول يده بجانب أشجار الصنوبر.

وعاجلاً وبرغم أنه رأى جماعتنا قد أخذت البداية منه فى الهجوم على القراصنة، فإنه أرسل بن جن بسرعة فى المقدمة كى يبذل ما فى وسعه بمفرده واستطاع أن يمارس على زملائه القدامى فى السفينة طقوس الخرافة والأساطير، وكان نجاحه لا نظير له حين جعل جراى والدكتور يأتون ويستعدون ويهاجمون من مكمنهم قبل وصول صيادو الكنز، قال سيلفر:

– نعم، لقد كنت محظوظًا أن يكون معى جيم هنا، كنت ستترك جون العجوز بمفرده يُقطع إربًا، ولم تعره أى اهتمام يا دكتور.

رد الدكتور ليفزى قائلاً بسعادة:

– ولا فكرة!!

وقبل هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى القاربين، فدمر الدكتور ليفزى بأحد المعاول أحد القاربين وصعدنا جميعًا القارب الآخر وبدأنا رحلتنا فى البحر متجهين صوب خليج الشمال.

كانت الرحلة حوالى ثمانية أو تسعة أميال، ورغم أن سيلفر كان قد قتله التعب والإجهاد فإنه كان يجلس على أحد المجاديف مثل الباقين، وكنا نسير بخفة ورشاقة وانسيابية فوق البحر المنساب وبعدها عبرنا المضايق وضاعفنا السرعة حتى وصلنا إلى الركن الجنوبى الشرقى للجزيرة، ومنذ أربعة أيام مضت استطعنا أن نقطر ونجر السفينة هيسبنيولا.

وبينما نحن نمر على الجبل ذى القمتين، استطعنا أن نرى الفم الأسود لكهف بن جن وشىء ما يقف بجواره يتكئ على بندقية، إنه كان العمدة تريلونى، لوحنا له بمنديل وهتفنا له ثلاث مرات، وكان صوت سيلفر مميزًا حين كان يهتف من قلبه.

أبحرنا ثلاثة أميال أخرى داخل فم خليج الشمال، لم نقابل فيه إلا السفينة هيسبنيولا، كانت تبحر بنفسها وكان آخر طوفان قد رفعها مع رياح شديدة وتيار مد قوى، حين كنا فى المرسى الجنوبى لم نجدها أبدًا ولم نجدها جانحة للشاطئ طالبة للمساعدة، وعندما وجدناها كان هناك خطأ خلف حطام الشراع الرئيسى، جهزنا هلبًا آخر للمرسى أنزلناه كى نقيس العمق وكان لمنتصف الماء، والتففنا جميعًا حول كهف الروم، وهو أقرب نقطة لمكان الكنز الذى يمتلكه بن جن، ثم عاد جراى بالقارب إلى السفينة هيسبنيولا، حيث اضطررنا لقضاء الليلة فى الحراسة.

كان هناك منحدر لطيف يرتفع من الشاطئ وحتى مدخل الكهف، عند القمة قابلنا العمدة تريلونى، كان بالنسبة لى ودودًا وطيبًا ولم يقل شيئًا عن هروبى باللوم أو المدح، وكان حميمًا بالنسبة لتحية سيلفر المؤدبة، قال:

- جون سيلفر، أنت وغد وشرير مذهل.. دجال، دجال رهيب يا سيد سيلفر، أنا أقول لك ولا أحاكمك ولن أحاكمك، لكن الرجال الأموات يا سيد سيلفر سوف يظلون معلقين فى رقبتك مثل أحجار الطاحونة.

أجاب جون وهو يحييه:

- أشكرك جدًا بكل ود يا سيدى.

صرخ العمدة قائلاً:

- لا أريد أن تشكرنى، إن هذا إهمال جسيم لواجبى، قف فى الخلف.

وعند ذلك، دخلنا جميعًا الكهف الذى كان واسعًا ومهويًا وبه عين ماء صغيرة وبركة من الماء الرائق والأرضية من الرمال، وكان يرقد الكابتن سموليت قبل راكية كبيرة من النار فى ركن بعيد، كانت تومض فى الظلام بلهب مشتعل، شاهدت أكوامًا عظيمة من العملات وأرباعا صُنعت من سبائك الذهب، إنه كنز فلنت الذى جئنا كى نبحث عنه والذى تكلف حياة حوالى ١٧ رجلاً من رجال السفينة هيسبنيولا، فكم كلف ذلك من دم وحزن، وكم سفينة غرقت فى القاع بسبب ذلك، وكم من رجال شجعان ساروا على الأمواج الخشبية معصوبى العينين من أجل ذلك، وكم من طلقات مدافع أطلقت، وكم من عار وأكاذيب وقسوة حدثت، ربما لا نجد رجلاً على قيد الحياة يحكى لنا تلك المآسى باستثناء ثلاثة ما زالوا على قيد الحياة، سيلفر، ومورجان العجوز وبن جن الذى أخذ نصيبه من هذه الجرائم كما كان يأمل كل واحد أن يشارك فى الحصول على هذا الكنز بلا جدوى، قال الكابتن سموليت:

– تعال يا جيم، أنت ولد جيد جدًا لم أكن أعتقد أن أذهب أنا وأنت إلى البحر مرة ثانية، فأنت من أفضل المخلوقات إلىّ، أما أنت يا جون ما الذى أحضرك إلى هنا يا رجل؟!

عاود سيلفر قائلاً:

– قف إلى جانبى يا سيدى.

لم يقل الكابتن شيئًا أكثر من كلمة:

– آه!!

يا له من عشاء هذا الذى تناولته هذا المساء مع الأصدقاء الذين يحيطون بى، يا لها من وجبة تلك التى أعدها بن جن من لحم الماعز المملح، فقد كانت شهية جدًا مع زجاجة من الخمر المعتق من السفينة هيسبنيولا، لم أكن أستطيع أن أقدر حالة المرح والسعادة التى عليها الرجال.

وكان سيلفر جالسًا فى المؤخرة تقريبًا بعيدًا عن راكية النار يأكل بشهية ويقفز للأمام حين يود أى شىء وكان يشارك بهدوء فى هزارنا، كان نفس البحار الرقيق المؤدب، المجامل لرحلة بحرية انتهت.

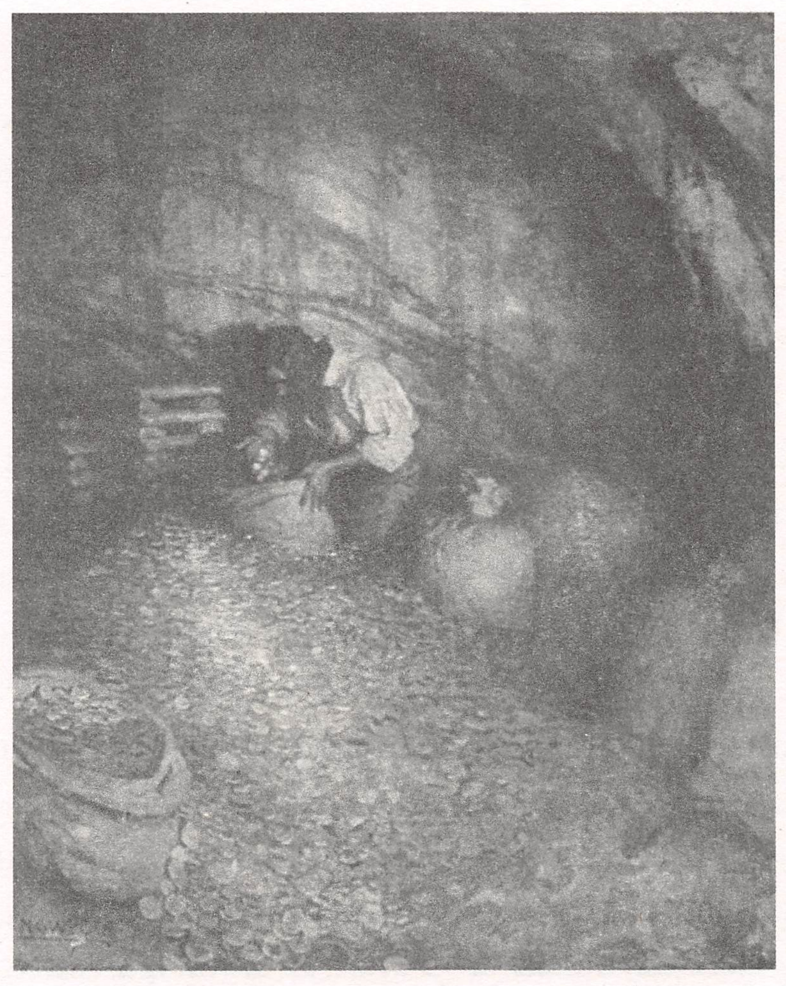
٣٤- الختـــام

حين حان صباح اليوم التالى، بدأنا العمل مبكرًا فى نقل كميات كبيرة من الذهب لمسافة ميل عن طريق البر إلى الشاطئ وثلاثة أميال بالقارب إلى السفينة هيسبنيولا، وكانت تلك مهمة ليست سهلة لعدد قليل من العمال، كان الزملاء الثلاثة الفارون ما زالوا على ظهر الجزيرة لا يضايقوننا أبدًا، مجرد حارس واحد فوق كتف الجبل كان كافيًا لكى يضمن لنا ويكشف أى هجوم مفاجئ علينا من قبلهم، وكنا متأكدين أنهم كم عانوا كثيرًا من القتال وأنهم لن يهاجمونا.

كان العمل يسير بخفة ورشاقة، فقد كان جراى وبن جن يذهبان بالقارب، بينما الباقون يكومون الذهب على الشاطئ أثناء غيابهم، اثنان من السبائك كانتا متدليتين فى نهاية حبل، كانت حملاً سعيدًا بالنسبة للشاب اليافع، وكان سعيدًا أن يسير ببطء بهما، أما بالنسبة لدورى لم أكن معتادًا أن أحمل شيئًا ولكننى كنت مشغولاً طوال اليوم فى تعبئة كل النقود فى أجولة فى الكهف.

لقد كانت مجموعة غريبة من النقود، مثل ذخيرة بيلى بونز المتنوعة من العملات ولكنها أكثر تنوعًا لدرجة أننى اعتقدت أننى لن أجد أى سعادة فى فرزها وتصنيفها، لقد كانت إنجليزية وفرنسية وإسبانية وبرتغالية وجنيهات تنتمى للملك جورج ولويس والدبلون وجنيهات إنكليزية وعملة الموبدور البرتغالية الذهبية والسكوين الإيطالية الذهبية، كانت عليها صور لكل ملوك أوروبا فى آخر مائة عام، وقطع شرقية مطبوع عليها ما يشبه خصلات من الخيوط، وقطع من شباك العنكبوت، وقطع دائرية وقطع رباعية الشكل وقطع مثقوبة من الوسط وكأنك سوف ترتديها حول رقبتك، تقريبًا كل أنواع العملة الموجودة فى العالم، أعتقد أننى وجدت مكانًا فى هذه المجموعة وبالنسبة

للعدد كنت متأكداً أنها كثيرة مثل أوراق الخريف، ولم لا؟! فالموت والمال ينتميان لشيء واحد، لذا ظهرى أوجعنى من كثرة الانحناء، وأصابعى أوجعتنى من كثرة فرز وتصنيف تلك العملات.



كنت مشغولاً طوال النهار فى الكهف أضع النقود المسكوكة فى أجولة الخبز

ويومًا بعد يوم كان يسير العمل ويستمر، وكل مساء كنا نخبئ المزيد من الكنز على ظهر السفينة ونجد المزيد منه كي ينتظر أن نخبأه في الصباح، وطوال تلك الفترة لم نسمع شيئًا عن الناجين الثلاثة الذين فروا أخيرًا، أعتقد أن ذلك حدث في الليلة الثالثة، حين كنت أتنقل مع الدكتور على كتف الجبل الذى كان يطل على الأرض المنخفضة للجزيرة، حين جاءنا من الظلام الدامس تحتنا وأحضرت لنا الرياح ضوضاء كانت ما بين الصياح والغناء، كان مجرد نزاع وصل لآذاننا ثم عاود حالة الصمت السابقة، قال الدكتور:

- الله يسامحهم، إنهم المتمردون.

ضربنا صوت سيلفر من خلفنا قائلاً:

- الكل شارب يا سيدى.

إنه سيلفر الذى سمح له بالحرية الكاملة، وعلى الرغم من الرفض اليومى له فإنه ينظر لنفسه على أنه شخص مستقل وودود ومتميز حقًا، كان الملاحظ أنه يحاول أن يجد لنفسه مكانًا بأدبه الحميم واستمراره الدائم فى محاولات التواصل ببراعة مع الجميع، ومع ذلك لا أعتقد أن أحدًا عامله أفضل من كلب ما عدا بن جن الذى ما زال خائفًا من ضابطه وسيده، وبالنسبة لى ما زلت أحمل له فى نفسى شيئًا من الشكر لأجل ما فعله معى، وعلى الرغم من تلك الحالة فإننى ما زال لدى سبب أن أفكر فيه أسوأ من أى شخص آخر، لأننى قد رأيته يفكر ويتأمل غدر جديد فوق الربوة، على أى حال لقد كان رد الدكتور عليه خشنًا، فقال:

- مخمورون أم هذيانون.

أجاب سيلفر قائلاً:

- عندك حق يا سيدى، احتمال أن تكون خلافات بسيطة بينهم، بالنسبة لك أو لى.

رد الدكتور ليفزى بسخرية قائلاً:

- أعتقد أنك سوف تطلب منى أن أدعوك إنسانًا طيبًا، لذا ربما تدهشك مشاعرى يا سيد سيلفر، ولكن إذا تأكدت أنهم يهذون أو أن أحدًا منهم مصاب بالحمى، سوف أغادر هذا المعسكر إليهم وسوف أخاطر بنفسى وأساعدهم قدر ما تمكننى مهاراتى وقدرتى لفعل ذلك.

قال سيلفر مقدراً ذلك:

– معذرة يا سيدى، سوف تكون مخطئـاً لو فعلت سوف تفقـد حيـاتك الثمينة لو قررت ذلك، أنا معك الآن، يدى بيدك ولا يجب أن أتمنى أن أرى جماعتى ضعفت، دع نفسك بحالها، أرى كما أعترف أننى مدين لك، إن هؤلاء الرجال الذين هناك أسفل لا كلمة لهم أبداً، لا تعتقد أنهم أبداً يرغبون ذلك، وأكثر ما عندهم أنهم لن يصدقوا كما أنت تصدق.

قال الدكتور:

– لا.. أنت الرجل الذى يحفظ كلمته ونحن نعرف ذلك.

حسنًا، وعن آخر أخبار القراصنة الثلاثة، سمعنا صوت طلق نارى خارجًا من المنطقة التى هم بها، اعتقدنا أنهم تم اصطيادهم، عقدنا مجلسنا وقررنا أننا يجب أن نتركهم على ظهر الجزيرة، عمت حالة من الفرح الجميع وكان بن جن الأكثر استحسانًا للأمر عن جراى، تركنا لهم مخزونًا كبيرًا من الذخيرة والطلقات وكميات من لحم الماعز المملح، وبعض الأدوية الكافية وبعض الضروريات والأدوات والملابس وشراعا احتياطيا وهلبا وبكرتين من الحبال وهدية جديدة من التبغ كما أراد الدكتور.

وكان ذلك آخر شىء قمنا به على الجزيرة، وقد كنا قبلها قد خبأنا الكنز على السفينة وملأناها بالماء الكافى وما تبقى من لحم الماعز المملح خشية من أى محنة.

وأخيرًا فى أحد الصباحات المعتدلة الجيدة، رفعنا المرساة استعدادًا للرحيل، وكان الأمر فى مقدرتنا تمامًا وبدأنا فى اتجاه خليج الشمال، كنا نرفع على السفينة نفس الأعلام التى حارب تحتها الكابتن ورفعناها حين كنا فى الحصن ضد المتمردين.

كان الزملاء الثلاثة متأكدين أننا نقترب منهم أكثر مما نحن نعتقد ذلك وتأكد لنا ذلك بعدها، ولكى نمر من خلال المضايق اضطررنا أن نكون قريبين جداً من النقطة الجنوبية، وهناك رأينا الثلاثة يركعون معًا فى بقعة من الرمال ويرفعون أيديهم ويتوسلون لنا أن نأخذهم، ورغم أن ذلك مس قلوبنا جميعًا أن نتركهم فى هذه الحالة البائسة،

لكننا لم نستطع أن نغامر بتمرد آخر يعرضنا للخطر ورأينا أننا لو أخذناهم معنا فسوف نأخذهم أيضًا إلى المشنقة وسيكون ذلك نوعًا من الرحمــة القاسية، فالأفضل أن نتركهم.

ونادى عليهم الدكتور ليفزى وأخبرهم عن المؤن التى تركناها لهم وأين سيجدونها، ولكنهم ظلوا ينادون علينا بأسمائنا ويناشدوننا باسم الرب والرحمة ألا نتركهم يموتون فى هذا المكان، أخيرًا بدأت السفينة تشق طريقها وبدأنا نبعد عن مرمى السمع للزملاء الثلاثة لكن واحدًا منهم لم أستطع أن أتعرف عليه قفز على قـدميه وصرخ صـرخة فظة وأستل بندقيته من على كتفه وأرسل طلقة صفرت فوق رأس سيلفر واخترقت الشراع الرئيسى.

ظللنا بعد ذلك تحت غطاء من جانب السفينة، وحين نظرت مرة أخرى كانوا قد اختفوا من تلك البقعة والبقعة ذاتها قد ذابت من مرمى الرؤية تمامًا كلما بعدت المسافة وكان ذلك نهاية الأمر، وقبل الظهيرة كان فرحى بلا حدود حين رأيت أن الصخرة العالية لجزيرة الكنز قد اختفت تمامًا وغرقت فى دوامات البحر الأزرق، لقد كنا رجالاً منهمكين جدًا لدرجة أن كل واحد منا كان يقدم يد المساعدة، فقط الكابتن الوحيد الذى يرقد على فراشه فى مؤخرة السفينة ويعطى أوامره، من أجل شفائه التام كان ما زال يرغب فى الهدوء.

وجهنا السفينة إلى أقرب ميناء فى أمريكا الإسبانية، فلم نكن نستطيع أن نغامر بالتوجه للوطن بدون إمدادات جديدة ومن أجل ذلك ظللنا صامدين إلى ما بعد العاصفة والنوات الجديدة حتى وصلنا إلى الميناء.

لقد جاء المساء حين وصلنا إلى الميناء، فنثرنا المرساة فى الخليج المغلق الأكثر جمالاً فى هذا المكان، أحاطنا فى الحال عدد من قوارب الشاطئ المملوءة بالزنوج والهنود المكسيكيين والملونين الذين يبيعون الفواكة والخضروات ويعرضون أن يغطسوا مقابل بعض قطع المال، شاهدنا كثيرًا من الوجوه الظريفة خاصة الزنوج وتذوقنا الفواكه الاستوائية وفوق كل ذلك بدأت الأنوار تشرق فى المدينة، فجعلت هذا النور يتناقض مع الإقامة الدامية المظلمة على الجزيرة.

أخذني الدكتور ليفزي والعمدة تريلوني معهما، تنزهنا على الشاطئ حتى مر جزء من الليل، هنا قابلنا ربانًا ومقاتلاً إنجليزيًا، تحدثنا معه، ذهبنا على ظهر سفينته وباختصار قضينا وقتًا لطيفًا، كان هذا اليوم إجازة ممتعة تذكرناها حين ذهبنا إلى جانب السفينة هيسبنيولا.

كان بن جن على سطح المركب، وبمجرد أن وصلنا إلى سطح السفينة، بدأ يجعلنا نعترف بما حدث مستخدمًا قدرته العالية على لىّ قسمات وجهه وجسده، كان سيلفر قد ذهب، تواطأ بن جن على هروبه من السفينة على متن قارب شاطئ من عدة ساعات مضت، وأكد لنا بن جن أنهُ فعل ذلك من أجل الحفاظ على أرواحنا التى من الممكن أن تفقد في ظل وجود رجل بقدم واحدة يوجد بيننا على ظهر السفينة.

ولم يكن ذلك كل ما حدث، فلم يهرب طباخ البحر - سيلفر - خالى الوفاض فقد قطع الحاجز غير المراقب وحرك واحدًا من أجولة العملة التى تقدر بثلاث أو أربع مئات من الجنيهات الإنجليزية كى تساعده فى تجواله الطويل، كنا سعداء جدًا لهذا الهروب الرخيص لسيلفر.

حسنًا، ولكى نقصر الرحلة الطويلة، حصلنا على بعض المساعدات القليلة الكافية من البعض، لذا كانت رحلة بحرية جيدة للعودة للوطن، ووصلت السفينة هيسبنيولا إلى ميناء بريستول بينما كان السيد براندلى يبدأ فى التجهيز لإعداد قارب آخر صغير مرافق لها، فقد عاد مع السفينة فقط خمسة رجال من الذين أبحروا معها، والذين شربوا الخمر ولعب الشيطان بالباقى منهم، كانت روح الانتقام والثأر وعلى الرغم من ذلك والتاكيد لم نكن أسوأ حالاً من أولئك الذين كانوا على السفينة الأخرى ويغنون قائلين:

ظل واحد من طاقمها على قيد الحياة

بينما أرسل للبحر واحدًا وسبعين رجلاً

امتلك كل واحد منا نصيبًا وافرًا من الكنز واستخدمه بحكمة أو بغباء طبقًا لطبيعته، تقاعد الآن الكابتن سموليت من عمل البحر، ولم يدخر جراى نقوده فقط ولكنه أصيب بآفة أن يزود هذا المال، بدأ يدرس مهنته تمامًا، صار الآن زميلا وصاحبا مشاركا لعدد من السفن الشراعية وتزوج بالإضافة لذلك، وصار ربًا لعائلة، وبالنسبة

لبن جن فقد حصل على ألف جنيه أنفقها أو قل أضاعها فى ثلاثة أسابيع، ولكى نكون أكثر دقة فى ١٩ يومًا فقط وعاد مرة أخرى للتسول فى اليوم العشرين وأعطى كوخًا كى يعيش فيه وهو ما زال بالطبع خائفًا كما كان على ظهر الجزيرة، ما زال يعيش مع أطفال القرية ومع مطرب فذ فى كنيسة أيام الآحاد وأيام القديسين وهذا أفضل شىء لديه رغم أنه يصيبه بعض السخرية من الآخرين.

وبالنسبة لسيلفر، لم نعد نسمع عنه أى شىء، فهذا البحار الصعب صاحب القدم الواحدة قد خرج أخيرًا نظيفًا من حياتى، لكنى أستطيع أن أقول إنه ربما قابل امرأته الزنجية العجوز وربما يعيش فى راحة معها ومع الكابتن فلنت، لقد كان يأمل هذا وأعتقد أن فرصه للراحة فى عالم آخر قليلة جدًا.

ما زالت سبائك الفضة والأسلحة مدفونة فى الجزيرة وأنا أعرف كل ذلك وأين دفنها الكابتن فلنت، وبالتأكيد هم ما زالوا راقدين هناك لأجلى، لكن الثيران والأحبال القوية لن تستطيع أن تجرجرنى إلى هناك ثانية، إلى تلك الجزيرة الملعونة، حيث أسوأ أحلام رأيتها فى حياتى حين كنت أسمع زعيق الأمواج على السواحل فأهب واقفًا من فراشى على صوت حاد للكابتن فلنت، ما زال يرن فى أذنى حتى الآن وهو يقول:

قطع الثمانية، قطع الثمانية.

مراجـــع

Bell, Ian. *Dreams of Exile: Robert Louis Stevenson, a Biography.* New York: Henry Holt, 1993.

Calder, Jenni. *Robert Louis Stevenson: A Life Study.* New York: Oxford University Press, 1980.

Calder, Jenni, ed. *Stevenson and Victorian Scotland.* Edinburgh: Edinburgh University Press, 1981.

Daiches, David. *Robert Louis Stevenson and His World.* London: Thames and Hudson, 1973.

Mackay, Margaret. *The Violent Friend: The Story of Mrs. Robert Louis Stevenson, 1840–1914.* Garden City, NY: Doubleday, 1968.

Maixner, Paul, ed. *Robert Louis Stevenson: The Critical Heritage.* London: Routledge and Kegan Paul, 1981.

McLynn, Frank. *Robert Louis Stevenson: A Biography.* New York: Random House, 1994.

Pope-Hennessy, James. *Robert Louis Stevenson.* New York: Simon and Schuster, 1974.

Eigner, Edwin M. *Robert Louis Stevenson and Romantic Tradition.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1966.

Frye, Northrop. *Anatomy of Criticism: Four Essays.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1957.

James, Henry. "The Art of Fiction." 1884. In *The House of Fiction: Essays on the Novel,* edited and with an introduction by Leon Edel. London: Rupert Hart-Davis, 1957.

———. "Robert Louis Stevenson." 1887. In *The House of Fiction: Essays on the Novel,* edited and with an introduction by Leon Edel. London: Rupert Hart-Davis, 1957.

Kiely, Robert. *Robert Louis Stevenson and the Fiction of Adventure.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1964.

Smith, Janet Adam, ed. *Henry James and Robert Louis Stevenson: A Record of Friendship and Criticism.* London: Rupert Hart-Davis, 1948.

Swinnerton, Frank. *R. L. Stevenson: A Critical Study.* New York: George H. Doran, 1923. Swinnerton was shrewdly critical of RLS, causing *Treasure Island* to be panned when it appeared; hence this is an important historical document.

Defoe, Daniel. *A General History of the Pyrates.* 1724. Edited by Manuel Schonhorn. Mineola, NY: Dover, 1999.

Dow, George Francis, and John Henry Edmonds. *The Pirates of the New England Coast, 1630–1730.* 1923. New York: Dover, 1996.

Ritchie, Robert C. *Captain Kidd and the War against the Pirates.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1986.

Stevenson, Fanny. *The Cruise of the "Janet Nichol" among the South Sea Islands: A Diary.* London: Chatto and Windus, 1915.

Stevenson, Robert Louis. *The Complete Stories of Robert Louis Stevenson.* Edited and with an introduction by Barry Menikoff. New York: Modern Library, 2002.

———. *The Lantern-Bearers and Other Essays.* Edited by Jeremy Treglown. London: Chatto and Windus, 1988. Includes the essays "Walt Whitman," "A Gossip on Romance," "A Humble Remonstrance," and "My First Book—*Treasure Island.*"

———. *The Letters of Robert Louis Stevenson.* Edited by Bradford A. Booth and Ernest Mehew. 8 vols. New Haven, CT: Yale University Press, 1994–1995.

المؤلف فى سطور :

روبرت لويس استيفنسون

روائى وشاعر وكاتب مقالات وأحد أبرع كتاب أدب الرحلات فى العالم، ولد فى ١٣ نوفمبر عام ١٨٥٠، وتوفى فى ٣ ديسمبر عام ١٨٩٤، أشاد به عدد من الكتاب العالميين الذين عاصروه، مثل لويس بورخيس وهمنجواى ودانيال دافو وفلادمير نابكوف.

ولد روبرت لويس استفنسون فى مدينة أدنبرة بإسكتلندا لأب يعمل مهندسًا فى أنهار وموانئ إسكتلندا وكان يحلم أن يكمل ابنه فى الوظيفة التى يعمل بها لكن الابن التحق بكلية القانون، وبعد أن تخرج لم يجد فى نفسه القدرة والحماس للعمل بالقانون، لأنه اكتشف فى نفسه موهبة الكتابة ووجد تشجيعًا كبيرًا من العائلة والأصدقاء الذين كانوا يتعاطفون معه ربما لمرضه الدائم بالسل الذى لم يمنعه من حياة حافلة وغزيرة بالإنتاج الأدبى والشعرى والفكرى الذين كان بحق كنزًا للبشرية.

بدأ حياته الأدبية بأدب الرحلات الذى ولد فى رحم المعاناة فى أسفاره ورحلاته فى المناطق الدافئة بعيدًا عن أزمات مرض السل فى المناطق الباردة، فأصدر كتابه الأول "رحلات داخلية" عام ١٨٧٨، و"رحلات مع حمار" عام ١٨٧٩، وتوالت أعماله المبدعة التى حققت له شهرة واسعة بعد زواجه من الأمريكية فانون أوسبورين التى أحبته وبدأت معه حياتها بعد أن طلقت من زوجها. أصدر فى تلك الفترة روايته الفذة "جزيرة الكنز" التى حققت له شهرة عالمية واسعة، كما أصدر رواية المخطوف فى عام ١٨٨٦، والسهم الأسود عام ١٨٨٨، وكاتريون والطبيب جيكل ومستر هايد وحديقة الأشعار.

بدأ روبرت استفنسون فى عام ١٨٨٨ رحلته وعائلته على ظهر يخت استأجره من سان فرانسسكو إلى جزر جنوب المحيط الهادى، وقد استغرقت أربعة أشهر،

زار خلالها ٣٢ جزيرة، وكانت ثمرة تلك الرحلة كتابة المهم "حاشية للتاريخ" ١٨٩٢، وكتاب "البحار الجنوبية" وصارت جزيرة ساموا وطنه الدائم الذى عاش فيها منذ عام ١٨٩٠، ومات فيها أيضاً عام ١٨٩٤ ودفن على قمة جبل فبيها.

وأخيراً.. لم يكن يحلم الشاب روبرت لويس استفنسون المولود فى أدنبره عام ١٨٥٠ الذى ذهب لقضاء إجازة فى جبال إسكتلندا أنه سيكتب عملاً يظل فى نفوس الصغار والشباب والكبار لعدة قرون ويتحول إلى العشرات من الأعمال الدرامية فى السينما العالمية والتليفزيونية والمسرحية والموسيقية، ويصير رمزاً للأعمال التى تتناول المغامرات وأعمال القرصنة وحياة نوعية معينة ممن يركبون البحر. لم يكن يحلم أن شخصياته التى نحت بعضهم ممن يحيطون به سوف تطول أعمارها كل هذه القرون وأنها ستكون أطول عمراً منه.

المترجم فى سطور:

محمد عبد الحافظ ناصف

كاتب مسرحى وكاتب أطفال وقاص وسيناريست ومترجم، ولد فى مدينة المحلة الكبرى عام ٦٧، حصل على عدد كبير من الجوائز المصرية والعربية فى المسرح والقصة القصيرة وأدب الأطفال والدراسات الأدبية ودراما الطفل، منها جائزة محمد تيمور فى المسرح لثلاث دورات والتأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة لثلاث دورات أيضًا، وجائزة محمود تيمور فى القصة القصيرة، وجائزة يوسف السباعى فى النقد، والجائزة الذهبية فى مهرجان الإذاعة والتليفزيون عام ٢٠١٠ عن مسلسل "حكايات رمضان أبو صيام" كأحسن عمل درامى للأطفال.

عضو اتحاد الكتاب ونقابة المهن التمثيلية وأتيلية القاهرة ونادى القصة وجمعية الأدباء ونقابة المعلمين، وعمل رئيسًا لإقليمى شرق الدلتا الثقافى والقاهرة الكبرى وشمال الصعيد، وعضو لجنة ثقافة الطفل بالمجلس الأعلى للثقافة وعمل نائبًا ورئيسًا للهيئة العامة لقصور الثقافة.

صدر له العديد من كتب الأطفال فى مجال القصة والرواية ومسرح الطفل والترجمة من عدد من دور النشر المصرية والعربية العامة والخاصة منها، الفارويكة ومقاعد خالية، ومن حكايات البنت المسافرة (قصص قصيرة) وطلوع النهار أول الليل ووداعا قرطبة والفلنكات وأرض الله وحضرة صاحب البطاقة والنهر ومصر إيجار جديد (مسرحيات) وحارة الموناليزا، وحرف النون يبتسم، وابتسامة القمر، مينا أمير الحياة، وأبو الهول معبد الأسرار، وأحلام النهار، وساعة الغابة، وسجين الهاء والواو، رقصة الفئران الأخيرة، وعلقة تفوت، وأغنية الشمس، وساعتى تكذب (أدب طفل).

قدم له التليفزيون المصرى مسلسلين هما: حارة الموناليزا، وحكايات رمضان أبو صيام، وقدم له المسرح المصرى عددًا من المسرحيات على خشبات المسرح القومى والهناجر وقصور الثقافة والجامعة والتربية والتعليم والشباب والرياضة.

ومن ترجماته القناع الذهبى، والعناكب، وحكاية فنـــان، وحكايات لونهــا أبيض وليس هذا كل شىء، والثعلب على الصندوق، وعاليًا تصعد العنزة، واذهبى بعيدًا يا بيكا وحكايات لونها أبيض.

التصحيح اللغوى: مدحت إبراهيم
الإشـراف الفنـى: حـسـن كـامل